أ. سميليانسكايا

الحركات الفلاحية في لبنان

النصف الأول من القرن التاسع عشر



تعريب : عدنان جاموس
راجعه وقدّم له : سالم يوسف

الحركـات الفلاحيـة فـي لبـنان

النصف الاول من القرن التاسع عشر

كـانون الاول ١٩٧٢ ـ دار الفـارابي ـ دار الجمـاهير
بيروت دمشق



تشكل الدراسات التاريخية ، ميدانا هاما من ميادين الصراع الايديولوجي ، وتزداد أهمية هذا الميدان في بلادنا بسبب التركة الاضافية التي خلفتها عهود السيطرة الاستعمارية بما فيها أشكالها الجـديدة .

ففي دراسة التاريخ يلحّ البرجوازيون على ضرورة **تجرّد** المؤرخ ، كي لا يؤدي « عـدم تجرده » الى « تشـويه » التاريخ سردا واستنتاجـات ، وهم يسهبون في تعداد قواعد « التجرد » و « الموضوعية » ، بما فيها ابتعاد المؤرخ عن أية أفكار مسبقة أو استنتاجات جاهزة ، وكذلك ابتعاده عن مسرح الاحـداث زمنيا وأحيانا مكانيـا ..

بهذه الحجة يضع المؤرخون البرجوازيون قناعا يخفي، في وهمهم، موقعهم الطبقي فيأتي ترتيبهم وتصنيفهم للاحداث تشويها للتاريخ مرّات ثلاث :

مرّة في تحويله الى جملة أحداث غير مترابطة ، كثيرا ما تحكمهـا ارادات ذاتية فردية معلقة فوق البشر .

ومرّة ثانية ، برصفهم ركام الاحداث دون ترتيب ، وفي أكثر الاحيان بترتيب معاكس للواقع ، تمسي معه العوامل الاساسية والحاسمة عوامل ثانوية فرضـت الاشارة اليها استحالة تجاهلهـا .

وهم يشوهون التاريخ **مرّة ثالثة** ، ونتيجة لذلك ، باخفائهم دور الجماهير، دور المنتجين الحقيقيين ، في صنع التاريخ وفي تطور المجتمع .

والمؤرخ الماركسي ، بكشفه هذا القناع ، لا يخفي كما لا يخاف ، الانطـلاق من موقع طبقي محدد ، واقعي أساسـا ، كي تتيسر له **جميع** الادوات ، أو **أكثرها** على الاقل ، فيمكنه معها اتباع منهج علمي وموضوعي في تصنيف الاحداث التاريخية وفي ترتيبها على السـواء .

ان التركة الاضافية التي خلفتها عهود السيطرة الاستعمارية على بلادنـا ، من تشويه لتاريخنا وحضارتنا ، اقتضتها مصالح ترسيخ دعائم تلك السيطـرة ، تاريخا وحاضرا على السواء . ويكاد تاريخ لبنان يعطي انموذجا لمدى التشويه الذي لحقه ولا يزال على يد المؤرخين البرجوازيين سواء منهم الاجانب أو اللبنانيين ، وفي كثير من الاحيان يفقد بعض اللبنانيين منهم حتى الحد الادنى من الموضوعية الـذي

قد يلازم ، وفي ميدان التاريخ ، الايديولوجية البرجوازية .

ويزداد أهمية بوجه خاص في تاريخ لبنان ، التصدي لتاريخ حقبة ، هامة هي بقدر ما هي راهنة ، من هذا التاريخ ونعني بها القرن التاسع عشر . ان أهمية تلك الحقبة لا تعود فقط الى مدى غناها بالتطورات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، أو الى مدى كثافة الغلاف الايديولوجي البرجوازي الذي تمت حياكته حول تاريخها ، بل هي تعود وبشكل خاص الى التأثيرات التي تركتها على تطور لبنان اللاحق .

والدراسات التي تناولت تلك الفترة ، على غزارتها خضعت بمجملها — عدا بعض القليل منها — لموقف طبقي برجوازي أو انعزالي أو استعماري على اختلاف الاقنعة التي ارتدتها ، فمنها ما لم يجد وراء حركة الفلاحين سوى « مصالح شخصية » أو ذاتية « هجم المزارعون الموارنة على المشايخ الموارنة الذين رفضوا التسليم لقيادة زعيم من الشعب يدعى طانيوس شاهين » وهي لا تجد تفسيرا لتكالب الدول الاستعمارية على التدخل المباشر سوى « لاستيائها لهذه الفظائع » ولا تفهم الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر مع الدمار الاقتصادي الذي لحق بفئات واسعة من سكان الجبل نتيجة دخول الاستعمار الا لان « اللبنانيين كانوا يعيشون على أرض تضيق بهم ، وكانوا يزدادون عددا وتقدما ورفاهية بلا توقف . » ! (١)

أو — « ان تكاثر السكان في لبنان الجبلي حيث التربة أقل خصبا من النساء وجد منفذا له في الهجرة .. » (٢) ومؤرخ اخر يكاد يوهمنا منذ المقدمة انه حاول أن يروي « واقع التاريخ ، دون تبرير أو ادانة ، كما اني حاولت أن لا استخلص من الاحداث عبرة » .. ولكنه سرعان ما يضيف « ولما كان لبنان ، كوحدة تاريخية ، مجموعة من الطوائف المتآلفة ضمن اطار سياسي واحد ، فقد آثرت — لاحظوا هذا الصدق في التبرير ! — ان انطلق في روايتي لتاريخ لبنان من هذا الواقع وأن أصف تطور العلاقات بين مختلف الطوائف اللبنانية عبر القرنين الاخيرين وصفا كاملا .. » (٣) وهو بالفعل ، يحول تاريخ الجبل الى تاريخ لطوائفه ، ولم يكن برأيه ، سعي بريطانيا للحد من مطامع محمد علي سوى لخوفها من وقوع صدام بينه وبين العثمانيين ، اذ أن مثل هذا الصدام سيؤدي الى عودة الروس الى مياه الآستانة ، فمطامع بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية لا يحركها سوى خوف كل منها من الاخرى!(٤). ذلك رغم أن صاحب العلاقة لا يتورع عن كشف جزء اخر من الحقيقة — لم يشر اليها مؤرخنا بالطبع — عندما يعلن بالمرستون في احدى رسائله الى وزيره في نابولي : « ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة

(١) جواد بولس : تاريخ لبنان — دار النهار للنشر — بيروت — ١٩٧٢ الصفحات ٣٥٤ — ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٢) فيليب حتي : لبنان في التاريخ — دار الثقافة — بيروت ١٩٥٩ — صفحة ٥٧٥ .

(٣) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث — دار النهار للنشر — بيروت ١٩٦٧ صفحة ١٠ .

(٤) المصدر نفسه صفحة ٦٤ .

عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية ، وقد يكون هذا الامر في ذاته لا خطر منه ، ولكنه يرمي الى تقطيع أوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه أبدا ، وفضلا عن ذلك فان أي ملك عربي مهما تبلغ قوته لن يكون قادرا على المحافظة على ما تحتله من طريق الهند . » (٥) كما انه يرى أن اجتماعات الفلاحين وانتخاب « مشايخ الشباب » كانت فقط لحماية الاهلين من « ظلم المشايخ وخصوصا آل الخازن » ، « فلا عجب ، اذن ، أن يبلغ هياج الفلاحين ضد أسيادهم أقصى مداه في مناطق آل الخازن بكسروان » وان تحول الحركة الى العنف اقتضى استقالة شيخ شباب عجلتون ، صالح صفير ، واختيار طانيوس شاهين ، شيخ شباب ريفون ، بدلا منه فقد « كان طانيوس شاهين هذا ، رجلا طويل القامة ، قوي البنية ، في الثالثة والاربعين من عمره ، احترف البيطرة ، واشتهر بشراسة خلقه وميله الى العنف .. » ! (٦) كما أن مؤرخا اخر لا يفهم سببا لاخفاق محمد علي سوى عاملين : أولهما مقاومة الانكليز للمشروع خوفا من سقوط الدولة العثمانية ووقوع طريق الهند تحت سيطرة دولة فتية قوية ، وثانيهما فقدان « الوعي القومي لدى العرب فقدانا يكاد يكون تاما » (٧) . ولا يجد في حركة الفلاحين سوى حركة قام بها الفلاحون الموارنة بتحريض من كهنتهم على سادتهم الاقطاعيين . (٨) .

واذا كانت بعض الدراسات الاخرى قد قدمت مادة أولية غنية فسهلت الى هذا الحد أو ذاك مهمة المؤرخ المتمسك بالمنطلق الماركسي — اللينيني توجها ومنهجية عامة فان كثيرا منها كان محاولات رائدة في هذا الميدان (٩) .

ان مؤلف أ. سميليانسكايا هذا ، يقدم لنا لوحة تكاد تكون شاملة لاهم سمات تلك الحقبة التاريخية خلال القرن التاسع عشر ، فمنهج المؤلفة ، الماركسي — اللينيني سمح لها باكتشاف أهم العوامل التي حددت تطور لبنان خلال ذلك القرن منذ بدايات تكوّن العلاقات الرأسمالية الاولى داخل البنية الاقطاعية المتميزة في اطار الدولة العثمانية ، الى الجوهر الاجتماعي لاصلاحات محمد علي وابراهيم باشا ، الى الضربة القاصمة التي تعرضت لها تلك البدايات مع دخول الاستعمار

(٥) عن جورج انطونيوس : يقظة العرب — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦٢.

(٦) كمال الصليبي : مصدر مذكور ، الصفحات : ١١٨ — ١١٩ — ١٢٠ .

(٧) جورج انطونيوس — مصدر مذكور صفحة ١٢ .

(٨) المصدر نفسه ، صفحة ١٢٤ .

(٩) بالاضافة الى مصادر ومراجع المؤلفة يمكننا الاشارة هنا الى دراسة دومينيك شيفاليه : « المجتمع في جبل لبنان ابان عصر الثورة الصناعية في أوروبا » باللغة الفرنسية — بيروت ١٩٧٢ — عرضته مجلة « الطريق » اللبنانية في عددها العاشر ١٩٧٢ ، وبصورة خاصة الجزء الثاني من مؤلف فؤاد قازان « لبنان في محيطه العربي من التكوين الجيولوجي حتى أيامنا » والذي صدر منه المجلد الاول عن دار الفارابي — بيروت ١٩٧٢ ، ولا يزال المجلد الثاني مخطوطا — نشرت مجلة « الطريق » بعض فصوله المتعلقة بتلك الحقبة في الاعداد ٨— ١٩٦٩ و ٣ — ١٩٧٠ و ٤ — ١٩٧٢ .

في مرحلة نضوج الرأسمالية في أوروبا . ولا ينتقص من جهد المؤلفة اقتصار بحثها على منطقة محددة من لبنان هي الجبل ، رغم ضرورة هذا التحديد وعلاقته وتأثيراته اللاحقة المميزة والمحددة في اطار الوحدات السياسية التي قامت بعد ذلك خلال القرن العشرين في المنطقة العربية .

ان منهج المؤلفة ، باستطاعته وحده ، أن يقدم التفسير الواقعي والصحيح لتطور أحداث القرن التاسع عشر في جبل لبنان ، وهو وحده الذي يسمح بفهم الكثير من التعارض الظاهري في منطق بعض الاحداث التاريخية وأكثرها تأثيرا على تطور لبنان اللاحق ، فاشتراك جماهير الفلاحين في انتفاضة عام ١٨٤٠ ضد حكم الامير بشير وابراهيم باشا لا يمكنه اخفاء الطابع الرجعي لتلك الانتفاضة باعادتها العلاقات الاقطاعية المتداعية .

ولم يكن صدفة ، ما رافق هذا الاحياء لتلك العلاقات الاقطاعية ، من بدء لمرحلة جديدة من علاقة الرأسمالية الاوروبية بالمنطقة مع معاهدة ١٨٣٩ بين بريطانيا والدولة العثمانية والتي كرست فتح أبواب التغلغل الاستعماري في بلادنا . ذلك على الرغم من صحة ودقة استنتاج المؤلفة حول ما شكلته تلك الانتفاضة وما أدت اليه من تطور في مستوى تنظيم جماهير الفلاحين ، ساهم في اغناء حركة الفلاحين في مرحلتها الثورية مع انتفاضة عام ١٨٥٨ — ١٨٥٩ .

والمعطيات التي يقدمها هذا الكتاب تسمح ، الى جانب سواها ، بالوصول الى استنتاج هام وأساسي ، فيما يتعلق بتطور جبل لبنان قبل وبعد حركة الفلاحين، فبالقدر الذي عبرت فيه تلك الانتفاضة عن نهوض في عوامل تحطيم العلاقات الاقطاعية ، بنهوض في القوى الاجتماعية التي تكونت من تحالف الحرفيين والفلاحين، بالقدر ذاته ، كانت القاعدة الاقتصادية لهذه القوى قد جرى تدميرها بالفعل ، وضربت آفاق تطورها بتغلغل الرأسمال الاجنبي . بذلك تشكلت القاعدة المادية لتطور جبل لبنان اللاحق ، والمتميز عن تطور بقية المناطق المحيطة به ، وبخاصة تلك التي شكلت فيما بعد الحدود الحالية للبنان .

ان فهم تلك الحركة الواقعية للتطور الاجتماعي في بلادنا ليس ممكنا بدون اتباع ذلك المنهج العلمي الذي اعتمدته المؤلفة ، وقد زاد المؤلفة — المستشرقة السوفياتية امكانية في تكامل كثير من تحليلاتها ما وفره لها اطلاعها على وثائق عهد القيصرية في روسيا ، والمساهمات القيمة التي بذلها كثير من المستشرقين السوفيات باتجاه ومنهج توفرت لهما الامكانيات الواقعية مع نجاح ثورة أوكتوبر الاشتراكية وقيام الاتحاد السوفياتي .

ان الحاجة ، تبرز أكثر فأكثر للمزيد من تلك الدراسات والابحاث ، ليس بغاية معرفة تاريخ التطور الفعلي لاوضاعنا الاجتماعية في لبنان والبلاد العربية وحسب ، بل بما تؤدي اليه تلك المعرفة من امكانية تحديد آفاق تطورنا المقبل الوثيقة الارتباط بامكانية التاثير في تلك العملية المعقدة من التطور الاجتماعي لصالح قوى المستقبل في بلادنا ، لصالح شعوبنا بأجمعها .

تلك هي برأينا أهم ما يقتضيه الترحيب بمثل تلك الدراسات وما يفرضه تقديرنا لتلك المساهمات والمبادرات في ظروف تزداد فيها الحاحا مهمة التصدي لتاريخنا الوطني تاريخا وبحثا وتملكا وطنيا لتراثه .

سالم يوسف

مقدمة

ظلت قضية لبنان تشغل أذهان الدبلوماسيين الاوروبيين مدة تنوف على عشرين عاما . وكاد الخلاف الذي ثار عام ١٨٤٠ بين السلطان التركي وحاكم مصر حول سوريا ولبنان (١) يؤدي الى نزاع مسلح بين الدول الاوروبية المؤيدة لهذا الجانب او ذاك . وكانت الصدامات الدرزية ـ المارونية التي وقعت في كل من عام ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ سببا في نشاط المراسلات الدبلوماسية ، وانعقاد المؤتمرات الدولية ، وتجوال قطع الاسطول الاوروبية قرب شواطىء سوريا ولبنان ، مما ادى فيما بعد الى وقوع الاحتلال المؤقت لهذين البلدين من قبل الجيوش الفرنسية في عام ١٨٦٠ . وكانت سياسة البلدان الاوروبية أزاء الحوادث اللبنانية موضع نقاش في البرلمانين الانكليزي والفرنسي . وكانت الصحافة الاوروبية تسهب في وصف ويلات الصدامات الدموية بين الدروز والموارنة وتفضح بشكل مثير سياسة انكلترا وفرنسا وتركيا في لبنان وسوريا . واصبحت القضية اللبنانية جزءا من المسألة الشرقية مما كان يخفي جوهرها الاجتماعي عن آكثر معاصريها .

---

(١) كانت كلمة « سوريا » المستعملة في القرن التاسع عشر تعني لبنان وسوريا المعاصرة وفلسطين . اما في هذا البحث فاننا نستعمل هذه الكلمات في معناها الحديث .

ولم تكن الحوادث اللبنانية في الواقع سوى نتيجة للحركة الواسعة المناوئة للاقطاعية ، والتي برزت كنتيجة لازمة النظام الاقطاعي وبدء ظهور العلاقات البرجوازية . وقد اجتازت هذه الحركة خلال اكثر من نصف قرن طريقا وعرة من التطور ، فبدأت كحركات تمرد عفوية قصيرة الامد (في الربع الاخير من القرن الثامن عشر والثلث الاول من القرن التاسع عشر) ثم ادت الى تشكيل جمهورية فلاحية بادارة مجلس من الفلاحين يترأسه الحداد الريفي طانيوس شاهين ، دامت منذ عام ١٨٥٩ وحتى عام ١٨٦١ في منطقة كسروان ، وهي احدى المناطق الجبلية المتطورة في لبنان . وقد تتوج التمرد في هذه المنطقة بنهوض الحركة المناوئة للاقطاعية التي امتدت من عام ١٨٤٠ وحتى عام ١٨٦٠ .

وعلى الرغم من ان الحركة الشعبية اللبنانية كانت ، في فترة نهوضها ، لا تضاهي ابدا الحركات الشعبية الجبارة في الهند والصين في منتصف القرن التاسع عشر من حيث ابعادها وجماهيريتها (لا ينبغي ان ننسى أن عدد سكان جبل لبنان في تلك الفترة كان لا يزيد على ٢٠٠–٢٥٠ الف نسمة) فانها كانت تضاهي الانتفاضات الشعبية في ايران وهند وصين منتصف القرن التاسع عشر من حيث جوهرها الاجتماعي وأثرها في تاريخ لبنان والدول العربية المجاورة . لقد كان للبنان طريقه الخاص في هذا التيار العام من الحركات الشعبية ، ودراسة هذا الطريق تدنينا من معرفة قانون تطور الحركات الاجتماعية في بلدان الشرق خلال فترة تفسخ الاقطاعية .

ان الحوادث اللبنانية كانت تسترعي انتباه الدبلوماسيين والصحفيين الاوروبيين المعاصرين (٢) . وقد كتب عنها من شارك فيها وشاهدها عيانا من اللبنانيين امثال : **طنوس الشدياق ، وانطوان ضاهر العقيقي ومنصور الحتوني وحسين ابي شقرا واسكندر ابكاريوس** (٣) .

---

(٢) ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين في ظل الحكم التركي ، موسكو ١٩٦٢.

(٣) طنوس الشدياق : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٨٥٩ . ثورة وفتنة في لبنان ، صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ الى ١٨٧٣ ، بيروت ١٩٣٩ . منصور الحتوني : نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ، بيروت ١٩٥٦ . حسين ابو شقرا : الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية ، بيروت ١٩٥٢ .

وهناك مواد لا تقل أهمية عن المذكورة آنفا محفوظة في ارشيفات القنصليات العامة ووزارتي الخارجية الانكليزية والفرنسية ودائرة الآثار اللبنانية ، ولكن لم ينشر منها للاسف سوى جزء يسير فقط . وقد أورد **م. كير** و **ع. اسماعيل** و **د. شيفاليه** و **ف. بولك** بعضا من هذه المواد في أعمالهم التي صدرت في السنوات الاخيرة (٤) .

وقد استعملنا في كتابنا هذا مواد أرشيف سياسة روسيا الخارجية الذي يحتوي على تقارير القنصليات العامة الروسية في بيروت ويضيف معلومات جديدة الى ما ورد في الارشيفات الانكليزية والفرنسية .

ان أشتداد حركة التحرر الوطني في البلدان العربية قبيل الحرب العالمية الثانية وفي سنوات ما بعد الحرب ، وانتزاع هذه البلدان استقلالها الوطني قد أثارا اهتماما جديا لدى العلماء العرب بتاريخ لبنان العصر الحديث وخاصة بحوادث فترة ما بين عام ١٨٤٠ و ١٨٦٠ . وتجلى هذا الاهتمام في نشر كتب الاخبار والوثائق الذي قام به **يوسف يزبك** و **أسد رستم** .

وبفضل هذه المطبوعات الاخيرة اصبحت المصادر الراهنة كافية لاجراء بحث علمي واف حول بعض قضايا تاريخ لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر وأواسطه وحول الموضوع الرئيسي في هذه الفترة وهو الحركة الشعبية المناوئة للاقطاعية .

ولا شك ان آجراء دراسات اخرى اكثر دقة للمخطوطات والوثائق المحفوظة في الخزائن اللبنانية والارشيفات الاوروبية سيتيح القاء الضوء على كثير من القضايا التي لا تزال غير واضحة حتى الان ، كما سيتيح اعادة النظر في بعض الاحكام السابقة. ومع هذا فان بامكاننا الان ان نستخلص نتائج عامة من المعلومات المتوفرة لدينا وان نحللها على ضوء المادية التاريخية .

---

(٤) Malcolm Kerr, Lebanon in the last years of feudalism, 1840-1868, Beirut, 1959; Adel Ismail, Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours, t. IV, Beyrouth, 1958; D. Chevallier, Aspects sociaux de la question d'Orient. Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, — « Annales. Economies. Sociétés. Civilisations », 1959, No. 1; W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788 - 1840, Cambridge (Mass), 1963.

وقد طرحت مؤلفة هذا الكتاب امامها مهمة تبيـــان المقدمات الاجتماعية ـ الاقتصادية للحركة المناوئة للاقطاعية في لبنان خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ومهمة تحديد أسباب نهوض هذه الحركة في منتصف ذلك القرن .

ويوجه الكتاب القسط الاوفر من العناية الى دراسة حركـة الفلاحين فيما بين عام ١٨٤١ وعام١٨٦٠ والى تلك المعركة السياسية التي طبعتها الحركة المذكورة بطابعها . وبمـا ان قضيـة الدروز والموارنة تشكل جزءا اساسيا في الموضوع المدروس فقـد وجهت المؤلفة انتباها خاصا الى اسباب ظهور العداوة بين هاتين الطائفتين والى تاريخ الصدامات بين مختلف الطوائف الدينية .

اما حوادث نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسـع عشر فينظر فيها الكتاب بخطوطها العامة وذلك من اجل رصد تطور حركة الفلاحين خلال الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر .

وقد ساعد المؤلفة في اعداد كتابها هـذا استاذها الراحـل **ف . ب . لوتسكي** . وهي تعبـر عـن امتنانها العميق لكـل مـن **يـو . ن . زادفادوفسكي و خ . سلام** و **ف ا . سولوفيـوف** الذين أتاحوا لها اجراء المشاورات معهم .

أ. سميليانسكايا

الفصل الاول

المقدمات الاجتماعية - الاقتصادية للحركة المناوئة للاقطاعية

* تطور العلاقات السلعية - النقدية ونشوء عناصر الرأسمالية في الزراعة والصناعة
* الملكية الاقطاعية للأرض
* استثمار الفلاحين للأرض
* الضرائب والريع العقاري
* وضع الفلاحين

تطور العلاقات السلعية ـ النقدية ونشوء عناصر الرأسمالية في الزراعة والصناعة

يتمتع لبنان بظروف طبيعية ملائمة لزراعة الثمار والمزروعات الصناعية . ولهذا كانت اشجار التوت والزيتون وكروم العنب والتين هي المزروعات الاساسية في القرية اللبنانية منذ القدم . ونتيجة لاتخاذ الاقتصاد الزراعي في جبل لبنان مثل هذا الاتجاه كان السكان يعانون من نقص في القمح ، وكان لبنان ، حسب تقدير المعاصرين ، لا يسد سوى ربع حاجته الى الاغذية ، وكان يستورد القمح والارز والذرة من مصر منذ القدم ، وهذا ما يفسر لنا سبب تطور العلاقات السلعية ـ النقدية تطورا ملحوظا في اواخر القرون الوسطى في لبنان .

ويشهد كتاب الاخبار الذي وضعه البطريرك الماروني الدويهي (في القرن السابع عشر) على وفرة الانتباه الذي كان يتتبع به اهالي لبنان اسعار الحبوب والحرير الخام . وقد كتب الرحالة الاوروبي بول لوقا الذي زار لبنان في بداية القرن الثامن عشر « بما ان البلاد التي يقطنها الموارنة ليست ملائمة تماما لتوفير الخبز والقمح لاهلها فان كل مداخيلها تأتي من بيع الحرير الذي يحصل عليه السكان من شتى انواع دودة القز المتوفرة بكميات

كبيرة (١) .

وابتداء من القرن السابع عشر يمكننا الحديث عن تخصص الاقتصاد اللبناني في انتاج الحرير الخام المخصص لورشات النسيج في دمشق وحلب ولتصديره الى اوروبا (٢) .

وتذكر معطيات القنصل الروسي ك . م . بازيلي ان سوريا ولبنان قد انتجتا في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر مقدار ثلاثة الاف قنطار من الحرير الخام ، عولج نصفها فقط محليا (في الاستثمارات الفلاحية بشكل رئيسي) ، واستعمل ربعها في ورشات حلب ودمشق والقاهرة وصدر الربع الاخير الى اوروبا (والى فرنسا بشكل خاص) (٣) . وهكذا فان نصف المنتوج الزراعي اللبناني على الاقل كان مخصصا للبيع ، اما في المناطق التابعة لبيروت فقد بلغت نسبة المبيعات ٩٠٪ من الخامات (٤) ، مما يدل على رواج سوق الانتاج اللبناني في القرن التاسع عشر .

وتذكر معطيات قنصل روسي اخر وهو ك . د . بتكوفتش ان مقدار ما انتج من الحرير الخام في الاعوام الستين بلغ في لبنان وحده ٤ر٧ ـ ٥ الاف قنطار وبلغ في نهاية السبعينات ١٧الاف وخمسمئة قنطار ، مع العلم ان كل محصول الحرير تقريبا ـ المغزول والذي في الشرانق ـ كان يصدر الى فرنسا (٥) .

---

(١) D. Chevallier, Lyon et la Syrie en 1919. Les bases d'une intervention, — « Revue historique », t. CCXXIV, octobre - décembre, 1960, p. 278.

(٢) Voyages de Richard Pockocke... en Orient, dans l'Egypte, l'Arabie, la Palestine, la Syrie, la Grèce, la Thrace, etc. », t. III, Neuchatel, 1773. p. 306.

(٣) أرشيف سياسة روسيا الخارجية (اسرخ) « السفارة في القسطنطينية ».

(٤) H. Guys, Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban, t. I, Paris, 1847, p. 55.

ومن الجدير بالذكر انه سبق لمارون عبود وقام بتعريب هذا الكتاب بعنوان : « لبنان منذ قرن ونصف » ، بيروت ، دار المكشوف ـ ملاحظة من المعرب .

(٥) ك. د. بتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، « مجموعة مواد جغرافية وطوبوغرافية واحصائية عن اسيا » العدد ×١× ، بطرسبورغ ١٨٨٥ صفحات : ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٩ .

وهكذا فقد اصبح انتاج الشرانق الحريرية في البلاد سلعيا تماما .

وتتيح لنا المصادر ان نكشف عن مناطق اخرى ذات اختصاص في الزراعة في لبنان وفي سوريا المرتبطة به اوثق ارتباط (٦) . بيد انه لم يكن هناك من منطقة تضاهي جبل لبنان من حيث تطور المزروعات السلعية ، كما انه لم تكن اية منطقة تحوز على سوق دائمة ومتوسعة باستمرار كالتي كان يحوزها جبل لبنان في منتصف القرن التاسع عشر .

وقد ادى التخصص الى توطيد وتوسيع الصلات التجارية بين مختلف مناطق سوريا ولبنان وفلسطين والى تطور السوق الداخلية . فمن المعلوم ان جبل لبنان كان يحصل على المواد الغذائية من سهل البقاع وشمالي سوريا والساحل اللبناني (٧) . كما كانت هناك صلات بمثل هذا الوثوق والانتظام بين المراكز الحرفية والمناطق الزراعية التي تزودها بالخامات .

وبتتبع تشكل المراكز التجارية والحرفية الجديدة يمكننا ان نحكم على سرعة تطور التجارة الداخلية في لبنان . ففي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر تحولت زحلة ودير القمر من قريتين صغيرتين الى مدينتين .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت زحلة ، وهي قرية صغيرة من قرى سهل البقاع ، تضم مئتي بيت فقط ، اما في عام ١٨١٠ فقد اصبحت تضم ٩٠٠ بيت يسكنها خمسة الاف انسان (٨) .

---

(٦) كان النوع الرئيسي من المزروعات في منطقة اللاذقية وجبال النصيرية هو التبغ . أما في منطقة صيدا وشمالي سوريا فقد كان القطن هو الصنف الرئيسي حتى منتصف القرن التاسع عشر وكان الفلاحون في وادي البقاع وحوران يزرعون القمح . واشتهرت غوطة دمشق ومنطقة طرابلس بالبستنة ، وكانت زراعة الخضار متطورة منذ القدم حول المدن الكبيرة .

(٧) بالتفصيل انظر : اي. م. سميليانسكايا ، حول مسالة تفسخ العلاقات الاقطاعية في سوريا ولبنان وفلسطين في منتصف القرن التاسع عشر . مجموعة : نشوء الرأسمالية في بلدان الشرق . من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر . موسكو ١٩٦٢ .

(٨) J.L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822, p. 5.

وارتفع هذا العدد في الخمسينات حتى الثمانية الاف انسان(٩).
وكانت زحلة نقطة تلاقي الطرق التجارية ومركز خزن القمح الذي يجمع من سهل البقاع وكان البدو الرحالة يسوقون اليها قطعانهم من شبه الجزيرة العربية وكردستان ليبادلوا منتوجاتهم ببضائع الصناعة اللبنانية والاوروبية . وكانت المدينة تزود سائر لبنان بالمواد الغذائية ، كما كان لها بعض الشأن في الانتاج اليدوي (المصنوعات الجلدية والنسيج والصباغة) .

وبسرعة مماثلة نمت دير القمر الذي كان عدد سكانها في مشارف القرن التاسع عشر ثمانية الاف نسمة (١٠) او عشرة الاف نسمة حسب ما يذكره أ . أ . رافالوفيتش (١١) . وكانت هذه المدينة مركزا لتجارة المنسوجات الحريرية اللبنانية . ويذكر التاجر الفرنسي آ ي . بلونديل انه شاهد هناك « كثيرا من ورشات النسيج » (١٢) وقد اثرى تجار هذا البلد عن طريق شراء الحرير الخام وعمليات الربا . وكان قسم منهم على ما يظهر يملك ورشات للحياكة ، كما كان العديد من اثرياء المدينة يملك اراض مؤجرة للشركاء .

وكانت فترة ما بين السنوات الاربعين والخمسين فترة ازدهار هاتين المدينتين اللتين عانتا في عام ١٨٦٠ من جراء الصدامات الدرزية ـ المارونية فاصبح عدد سكان زحلة ثمانية الاف وخمسمئة انسان في عام ١٨٦٢ ولم يبق من سكان دير القمر سوى ٢٦٠٠ شخص أو أقل (١٣) . ولم تصب هاتان المدينتان قدرا ملحوظا من التطور في السنوات التالية . وفي عام ١٩١٥ فقط اصبح عدد سكان زحلة يتراوح بين ١٢ و ١٥ الف انسان وبلغ عدد سكان دير القمر خمسة الاف انسان (١٤) .

(٩) Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoil..., p. 89.

(١٠) Ch. Churchill, The Druzes... p. 104.

(١١) أ. أ. رافالوفتش ، مذكرات طبيب روسي متوجه الى الشرق ، مجلة وزارة الداخلية ١٨٤٨ ، الجزء ٢٢ ، الصفحة ٤٤٦ .

(١٢) E. Blondel, Deux ans en Syrie et en Palestine (1838-1839), Paris, 1840, p. 87.

(١٣) ك. و. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . ص ١٤٥

(١٤) أ. روبين، سوريا المعاصرة وفلسطين — بتروغراد ١٩١٩ . ص ١٤ و١٥.

ولم يكن سبب اعاقة تطور المدن اللبنانية الداخلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يعود الى الحوادث السياسية الداخلية بقدر ما كان يعود الى العمليات الاقتصادية التي شملت بلدان الشرق العربي ، والمقصود بهذا هو خضوع اقتصاد هذه البلدان بشكل متزايد الى راس المال الاجنبي . فمنذ اواسط القرن التاسع عشر بالذات بدأت سوريا ولبنان وفلسطين تتحول الى اسواق للتصريف ومصادر خامات للصناعة الاوروبية مما أعاق تطورها الاقتصادي المستقل وعرقل انشاء سوق داخلية .
واصبحت بيروت ، وهي المرفأ الرئيسي ، بوابة لدخول النفوذ الاجنبي لا الى لبنان فحسب بل والى سوريا كذلك .
والارقام التالية تعطينا صورة عن نمو سكان بيروت خلال اكثر من مئة سنة (١٥) :

العام	عدد السكان بالآلاف
١٧٨٢	٦
١٨٣١	٩ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٨٤٧	٢٧ر٥ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٨٦٠	٤٠ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٨٨٥	١٠٠ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٩١٥	٢٠٠ (بمن فيهم سكان الضواحي)

ولم ينشأ في بيروت انتاج صناعي متطور ، بل كان هناك

(١٥) انظر مواد عام ١٧٨٣ في كتاب :
C.-F. Volney, Voyage en Egypte en Syrie, t. 2, Paris, 1823, p. 309; ».

وعام ١٨٣٠ في كتاب :
« J.-F. Michaud et J.-J. Poujoulat, Correspondance d'Orient. 1830 - 1831, vol. VI, Paris, 1835, p. 123.

وعام ١٨٤٧ في كتاب أ. أ. رافالوفتش ، مذكرات طبيب روسي متوجه الى الشرق ، « مجلة وزارة الداخلية » ١٨٤٨ الجزء ٢٢ ، ص ٤٢٧ .

وعام ١٨٦٠ في كتاب :
W. Thomson, The Land and the Book, London 1860, p. 37.

وعام ١٩١٥ في كتاب أ. روبين . سوريا المعاصرة وفلسطين صفحة ١٥ .

العشرات من البيوتات التجارية العائدة للتجار الاجانب والكومبرآدورية المحلية ومن مكاتب اصحاب المصارف المرابين . وافتتح في السنوات الخمسين في المدينة فرع للبنك العثماني (برأسمال انكليزي) كما انشئت المحكمة التجارية وشيد التجار المحليون اولى الفنادق على الطراز الاوروبي (١٦) . وفي عام١٨٥٨ قام رأس المال الفرنسي بشق اول طريق في سوريا يصل بين دمشق وبيروت .

وقد أمنت هذه الطريق ايصال البضائع الصناعية الاوروبية الى داخل سوريا واخراج الخامات الزراعية من لبنان .

وفي منتصف القرن التاسع عشر انتزعت بيروت جزءا كبيرا من تجارة المدن الساحلية وتحولت صيدا من ولاية ضخمة الى بلدة متواضعة يتراوح عدد سكانها بين ستة وسبعة الاف شخص واصبحت تابعة لبيروت كليا .

ومع تطور التجارة في لبنان تشكلت البورجوازية التجارية، التي كان تجار بيروت يشكلون فيها الفئة المسيطرة اقتصاديا . وقد كتب ك . م . بازيلي يقول ان كبار التجار في بيروت كانوا يعقدون سنويا صفقات قيمتها بضع عشرات من ملايين القروش (١٧) . وكانت مداخيلهم تفوق احيانا الريع الاقطاعي الذي كان يجنيه أغنى الاقطاعيين . ومع ان ثروات التجار في داخل لبنان كانت أضأل من ثروات تجار بيروت الا ان رؤوس اموالهم لم تكن بالهينة . ففي صيف عام ١٨٦٠ كانت مستودعات الشرانق وحدها التي يملكها احد تجار دير القمر الاثرياء تحتوي على ثلاثين الف اوقية يقرب سعرها من ٦٠٠ الف قرش هذا عدا السلع الاخرى والمجوهرات والنقود المعدنية التي كان يملكها (١٨) . (ولنلاحظ على سبيل

(١٦) J.L. Farley, Two years in Syria, London, 1858, p. 54.

في عام ١٨٢٧ بلغ عدد الشركات التجارية في بيروت ٣٤ شركة منها ٢١ شركة لبنانية . وفي عام ١٨٣٩ بلغ عددها ٦٧ منها ٣٤ شركة لبنانية .

Ch. Issawi, Economic development and Liberalism in Lebanon, — « The Middle East Journal », vol. 18, 1964, No. 3, p. 282.

(١٧) أسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

(١٨) F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860, Paris, 1861, pp. 75, 76.

المقارنة ان مبلغ الضرائب الاجمالي الذي جبته الخزانة من جبل لبنان في اربعينات القرن التاسع قشر قد بلغ ١٧٥٠ الف قرش) .

وقد انشأ التجار الكبار رؤوس اموالهم في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عن طريق الصفقات التجارية الخارجية ونظام الالتزام في جباية الضرائب والرسوم الجمركية ، وعن طريق الديون المقدمة للاقطاعيين والحاكم في لبنان وعن طريق عمليات الربا في الريف . وقد كان الاسلوب الاخير في استثمار رأس المال متطورا بشكل خاص . وليس من قبيل الصدفة ان والي سورية المصري ابراهيم باشا كان مضطرا حتى الى منع التجار من جباية الديون من سكان الريف (١٩) .

وفي الاربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر اصبح المجال الاساسي لاستثمار رأس المال التجاري هو شراء الخامات الزراعية المخصصة للتصدير الى اوروبا : وكان يقوم بهذه الصفقات عملاء تجار بيروت والتجار الريفيون وتجار المدن الصغيرة ، وكان هؤلاء الاخيرون غالبا ما يقومون بدور وسطاء لدى كومبرادور بيروت .

كما كان تجار لبنان الداخلي يقومون ايضا بتزويد لبنان بالمواد الغذائية . فقد قام تجار زحلة مثلا بأعمال واسعة في تجارة القمح واشتروا القطعان في ولايتي حلب ودمشق (٢٠) . ولكن كومبرادور بيروت كان يستثمر جزءاً من رأسماله في تجارة المفرق والجملة في الداخل ويخضع له بهذا تجار جبل لبنان . وقد كتب ك . م . بيتكوفتش يقول : « ان الذين يجنون الربح الاعظم من التجارة مع لبنان سواء في مجال الاستيراد او التصدير هم تجار بيروت الذين يستثمرون اللبنانيين بجشع ويقرضونهم الاموال لقاء فوائد باهظة » (٢١) .

وكان العديدون من تجار زحلة بشكل خاص يقومون بأعمالهم التجارية « بالنقود المستلفة من تجار بيروت » (٢٢) .

ولكن كومبرادور بيروب نفسه غالبا ما كان في تبعية للشركات التجارية الاوروبية التي تشتري منه الخامات . ولم يستطع سوى

(١٩) أسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

٢٠ — ك . د . بيتكوفتش : لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٧٥ .

٢١ — المصدر نفسه ، صفحة ١٧٦ .

٢٢ — المصدر نفسه ، صفحة ١٧٥ .

القليلون ، كآل دحداح مثلا ، ان يفتتحوا مكاتب تجارية في الخارج
— في مرسيليا ولندن وباريس (٢٣) ، وان يقوموا بعملياتهم
التجارية باستقلال .

وكان تجار لبنان الداخلي ، على ما يظهر ، يوظفون الاموال
في الانتاج الصناعي اكثر من تجار بيروت . فقد كان تجار زحلة
يملكون ورشات المصنوعات الجلدية والصباغة ، كما كان تجار دير
القمر يملكون ورشات الحياكة . ومنذ الاعوام الاربعين آخذ كبار
التجار ورجال المصارف في بيروت مثل سرسق اخوان ، وجورجي
تويني ، واصفر اخوان ، يعملون في مجال الصناعة وانشأوا فبارك
لغزل الحرير (٢٤) .

واستمر برجوازيو بيروت بعد سلوكهم هذه الطريق بتسليف
الفلاحين النقود ولكنهم خصصوا جزءا من هذه السلف لتحسين
المزارع ولشراء بيض دودة القز من قبل الفلاحين الذين كانوا
يبيعون الخامات (٢٥) لتجار المدينة . وهكذا كان التجار ـ اصحاب
المصانع يتدخلون في شؤون تنظيم الانتاج الزراعي . ولكن الفترة
التي ندرسها لم تكن سوى فترة ظهور بوادر الانتقال الى اشكال
أعلى من استثمار رأس المال في الصناعة .

وقد ادى تطور العلاقات النقدية السلعية في لبنان في القرن
التاسع عشر الى خراب اقتصاد الفلاحين الطبيعي . انما لا ينبغي
ان ننسى ان ما كان ينزل الى السوق هو قبل كل شيء الريع العيني
الذي كان يجبيه اصحاب الاراضي ومتعهدو جمع الضرائب من
الفلاحين ، وبالتالي فان الانتاج الفلاحي نفسه في هذه الحالة لم
يكن مرتبطا بالسوق مباشرة .

وكان التبادل العيني ما يزال يلعب دورا ليس بالهين في حياة
الاسرة الفلاحية . ويرسم لنا الاتنوغرافي واللغوي اللبناني المعروف
انيس فريحة لوحة عن حياة القرية اللبنانية في القرن الماضي

---

٢٣ — يوسف الدبس ، الجامع في تاريخ الموارنة المؤصل ، بيروت ١٩٠٥ ص : ٥٣٧ — ٥٣٨ .

٢٤ — ك. د. بيتكوفتش . لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٧٩ — ١٨٠ .

٢٥ — D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 53.

حسب المعلومات التي تعطينا اياها الاتنوغرافيا ، فيصف الصفقات
التجارية التي كانت تعقد على اساس التبادل العيني على الشكل
التالي : لقد كان التاجر الاتي من الخارج يقف ببغاله او بجماله في
ساحة القرية ويبدأ بالمتاجرة . فيبادل القمح والفاصولياء بزيت
الزيتون او القضامة والفستق بالحديد والنحاس او الاحذية والقماش
والقباقيب بالحبوب وزيت الزيتون او التفاح الزبداني وخوخ قب
الياس بأشياء معدنية قديمة وما شابه ذلك (٢٦) .

ان اللوحات التي رسمها لنا انيس فريحة هي لوحات ساطعة
وتحول دون شك دون تضخيم دور العلاقات النقدية السلعية في
القرية . ولكن مصادر اواسط القرن التاسع عشر تسمح لنا بالقول
بوجود اشكال اكثر تطورا من علاقات الاقتصاد الزراعي بالسوق .

وكانت ضرورة دفع الضرائب النقدية وشراء بيوض دودة القز والقمح
والقطعان المعدة للذبح تجبر الفلاحين على انزال بعض منتجات
اقتصادهم الى السوق . وتذكر المصادر الى جانب بيع خامات
الحرير بيع الخمر والجبن ، والخضار .

ان تصريف خامات الحرير بشكل جيد والحاجة الدائمة الى
النقود كانا يجبران الفلاحين على بيع محصولهم كله ويجعلانهم
يزيدون من اهتمامهم بتربية فراشات الشرانق الحريرية . وقد
ادى بهم هذا الى اهمال الحياكة المنزلية ، وكانوا احيانا يكفون حتى
عن حل الشرانق وهو عمل كانت تقوم به مغازل الحرير التي ظهرت
في لبنان وقد اشار د . اوركهارت ، رجل السياسة الانكليزي
الذي زار لبنان في مشارف الاربعينات والخمسينات من القرن
التاسع عشر ، الى ان تدهور الصناعات المنزلية قد انتشر في كل
مكان (٢٧) . صحيح ان الفلاح كان لا يزال يعد بنفسه المحراث
والنورج وعدة حيوانات الجر والمذاري والاطباق المجدولة لتقديم
الغذاء الى دود القز ، وما شابه ذلك ، ولكن كان مضطرا لابتياع
الثياب والاحذية وسكة المحراث ، والادنان المعدنية (الخلاقين) ،
والاجزاء المعدنية في آلة حل الشرانق وبعض الادوات المنزلية .
وبقدر ما كانت تزداد تبعية اقتصاد الفلاحين للسوق بقدر

---

٢٦ — انيس فريحة ، حضارة في طريق الزوال : القرية اللبنانية — بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٣٢ — ٣٣ .

٢٧ — D. Urquhart, The Lebanon (Mount Souria). A history and adiary, vol. I, pp. 321, 322.

ما كان يتغير طابع علاقة الفلاح بالسوق . فقد كان الفلاحون اللبنانيون ، وفقا لاقوال ك . ف فولني ، يبيعون بضائعهم بأنفسهم في اسواق المدن الساحلية . اما في اواسط القرن التاسع عشر فقد بدأ الوضع يتغير في عدد من المناطق واخذ يزداد دور الوسيط والتاجر كأداة وصل بين الفلاح والسوق . ولم يكن الامر الجديد هنا يتجلى في انقطاع الفلاح عن السوق بقدر ما كان يتجلى في تغير طابع الصفقات التجارية التي بدأت تتشابك بقوة مع عمليات الربا . وكان يساعد على هذا حالة العوز وانعدام الحقوق التي كان يعيشها الفلاح من جراء الاستثمار الاقطاعي الفظيع الذي كان يصل الى ابعد الحدود في الريف . وقد كتب ك . م . بازيلي يقول : في فترة جباية الضرائب من كل عام (اي في اصعب ظروف حياة الفلاحين) كان يتوجه جيش من التجار الوسطاء الى الريف في سوريا ولبنان ، فيستغلون حاجة الفلاحين الى المال ويقدمون لهم قروضا مقابل رهن المحصول القادم بفائدة تتراوح بين ٣ و ٥ بالمئة في الشهر او انهم كانوا يشترون المحصول سلفا بثلثي السعر او بنصفه . وكان مقدار الفائدة يتعلق بنوع المزروعات كما كان من السائد ايضا ان يتعلق مقدار الفائدة بدرجة شدة الاستثمار الاقطاعي في هذه المنطقة او تلك (في هذه الحال كانت التبعية مباشرة) . اما في المناطق السهلية الخاضعة مباشرة للسلطة التركية حيث كان استثمار الاقطاعيين الاتراك والعرب للفلاحين يتجلى بكل فظاعته فقد كانت الصفقات التجارية تتصف بطابع الاستعباد الاشد (٢٨) .

ولكن في مستهل الاربعينات كان عدد غير قليل من الفلاحين لا يزال مستقلا في تعامله مع السوق. وهذا ما يفسر سبب المقاومة الجماهيرية التي ابداها سكان لبنان ضد فرض رسوم جمركية جديدة في المدن الساحلية عام ١٨٤١ .

ان التطور الفائق الذي اصاب الاستغلال التجاري الربوي في الريف والذي كان في نهاية المطاف يعرقل نمو العلاقات السلعية ــ النقدية، لم يتأت من علو درجة الاستغلال الاقطاعي فقط بل ومن الاتجاه الذي اتخذه تطور الاقتصاد في سوريا ولبنان . فقد سبب سيل السلع الصناعية المنهمر الى المنطقة بعد

٢٨ ــ أ.س.ر.خ. « السفارة في القسطنطينية » .

اكتمال الانقلاب الصناعي في اوروبا تدهور الحرفة والمانوفاكتورة في سوريا . وتقلص الى حد بعيد عدد سكان المراكز الحرفية في البلاد ــ في حلب ودمشق ــ (٢٩) . ولم يكن الفلاحون الذين حل بهم الخراب بقادرين على مغادرة القرية الى المدن طلبا للعمل ، بل كانوا مضطرين للتمسك باستثماراتهم وللوقوع فريسة في ايدي المرابين .

وقد انهك الاستغلال الاقطاعي والربوي الاقتصاد الفلاحي ونشأت ظروف كانت العلاقات السلعية ــ النقدية فيها تتطور تطورا كبيرا نسبيا ، بينما كان نشوء وتطور العلاقات الرأسمالية يجريان بأقصى درجات البطء . وكان هذا الامر يتجلى في لبنان اواسط القرن التاسع عشر بدرجة ادنى منها في سوريا المجاورة.

وقد عوض لبنان عن تدهور بعض المدن الساحلية مثل طرابلس وصيدا بنمو بيروت نموا سريعا الى حيث كان يذهب سكان الجبال بعد انتهاء الموسم الزراعي . وكانت بيروت تؤمن العمل لعدد كبير من عمال البناء (نحاتي الاحجار ، والنجارين ،والطيانين) والحمالين ، وعمال الزوارق والمكارية والخدم والمياومين .والظاهر ان انهيار الحرفة في دمشق وحلب لم يؤثر تأثيرا جديا على الاقتصاد اللبناني . ففي اواسط القرن التاسع عشر كان الانتاج الصناعي في جبل لبنان لا يزال منتعشا وكان عدد العمال المستأجرين آخذا في الزيادة .

ان انهمار سيل الفلاحين الذين حل بهم الخراب الى بيروت قد شكل على ما يظهر ظروفا اكثر ملاءمة في لبنان منها في سوريا لتطور الاقتصاد الفلاحي ، الامر الذي ساعد بدوره على ولادة العلاقات الرأسمالية في الريف اللبناني .

ويحدثنا معاصرو تلك الفترة عن تطبيق اسلوب العمل المأجور في اقتصاد لبنان الزراعي في أواسط القرن التاسع عشر .

٢٩ ــ يذكر ك. م. بازيلي ان عدد عمال آلات النسيج في دمشق قد تقلص منذ سنة ١٨٢٠ الى ١٨٤٠ من ثمانية آلاف الى الالفين ، وفي حلب من عشرة الاف حتى الالف . كما تقلص جدا عدد سكان هاتين المدينتين . فقد هبط عدد سكان حلب خلال السنوات العشرين المذكورة من ١٥٠ الف حتى الثمانين الف شخص . وهبط عدد سكان دمشق من ١٢٠ الف الى ٨٠ الف نسمة .
(أسرخ ، « السفارة في القسطنطينية ») .

فيذكر بورفيري اوسبينسكي معلومات عن استخدام العمل المأجور في استثمار الاديرة . وقد كان دير القديس مار جرجس الكاثوليكي في لبنان الذي يضم ٢٢ راهبا والواقع على الطريق الكبيرة بين حلب وطرابلس يعتبر مأوى للتجار المسافرين . وكان يتسع لقوافل كاملة ويصرف كمية كبيرة من الخبز والرز والسمن والخمر وما شابه ذلك ، على المسافرين الذين ينزلون فيه . كما كان يملك الكروم ، ومزارع لتربية دودة القز ، واراض مزروعة ، وعددا من الاغنام يتراوح بين سبع مئة وثمان مئة غنمة ومثل هذا العدد من الماعز وخمسا وعشرين بقرة وعشرة بغال وثلاث افراس وعشرة رؤوس من الثيران . وكان يستأجر اربعين خادما ويقدم لهم الاجور والغذاء ليقوموا بخدمة النزلاء وادارة الشؤون الداخلية في الدير ، كما كان هؤلاء يقومون بحراثة جزء من اراضي الدير الزراعية . وكان مجموع العمال الزراعيين الذين يستأجرهم الدير بانتظام يزيد عن الثمانين (٣٠) .

وقد كتب د . اوركهارت يصف ميزانية اسرة فلاحية في احدى قرى لبنان تملك قسما غير كبير من الارض ، ويعتبر العمل الزراعي المأجور فيها اهم وسيلة للعيش : لقد كانت الاسرة تتألف من اربعة اشخاص (رجلين وامرأتين) . وكان الرجلان يعملان كأجيرين خلال ثلثي الموسم الزراعي (اكثر من اربعة اشهر) سنويا. وكانت مصاريف هذه الاسرة بما فيها الضرائب تعادل ١٥٧٥ قرشا. اما دخلها فكان يتألف من ٥٠٠ قرش من بيع الحرير والخمر و٨٠٠ قرش من عمل الرجلين الاضافي (٣١) .

وكانت الاسر التي تعيش بمثل هذه الميزانية تشكل عددا ليس بالقليل في الريف اللبناني ، وهذا ما جعل القنصل الفرنسي هـ . غيز يفترض ان من الممكن فرز فئة كاملة من بين اللبنانيين « تتألف من المياومين الفقراء الذين يعيشون ثلاثة ارباع الوقت في

---

٣٠ — ارشيف الدولة المركزي في لينينغراد . ب. اوسبينسكي ، كتاب وجودي . يوميات ومذكرات حياتية . الجزء الاول . بطرسبورغ ١٨٩٤ الصفحة ١٨٤ . ويتحدث ب. اوسبينسكي كذلك عن استئجار الاديرة لعدد كبير من العمال (حتى الثلاثمئة) لاعمال مؤقتة غير مرتبطة بزراعة الارض (كتاب وجودي الجزء الاول . ص ٣١٠) .

٣١ — D. Urquhart, The Lebanon..., I, pp. 389-391.

انتظار الفترة التي تحلّ فيها الحاجة الى ايديهم » (٣٢) .

ان هذه المعطيات وعددا من الشواهد الاخرى تسمح لنا بالحديث عن وجود عملية تباين الفلاحين في الريف . ففي ناحية من القرية كانت تتشكل ، حسب رأي هـ . غيز ، « الفئة الاكبر عددا » والمؤلفة من « اتعس الناس » (٣٣) وهم الذين حل بهم الخراب فتحولوا الى مياومين ورعاة وسائقي بغال وحطابين وعمال في مصانع ومانوفاكتورات غزل الحرير في لبنان وعمال في شق طريق دمشق – بيروت وما شابه ذلك .

اما في الناحية الاخرى فقد اخذت تبرز فئة الفلاحين الموسرين المتحولين الى بورجوازيين ريفيين. وكان ممن لاحظوا هذه العملية القنصل الانكليزي « هيوغ رويز » الذي ذكر ان المسيحيين الاثرياء في دير القمر كانوا في الماضي « من اقنان » الشيوخ النكدية . وقد سلف بعض هؤلاء الاثرياء الى الشيوخ انفسهم مبالغ بفائدة قدرها ٤٠٪ (٣٤) . كما ان مطالبة الفلاح المتمردين في شمال لبنان بالغاء الاتاوات الاقطاعية التي فرضها الاقطاعيون على الفلاحين المشترين الارض منهم تدل على الانتشار النسبي لشراء الاراضي من قبل الفلاحين الموسرين . وقد لاحظ هـ . غيز ان اصحاب الاراضي من الفلاحين الاغنياء في جبل لبنان كانوا يستأجرون «العمال المياومين الفقراء في موسم جمع الحرير» (٣٥) . كما كانت بعض الاستثمارات الفلاحية في سهل البقاع تستخدم العمال الاجراء ايضا . وكان بعض فلاحي لبنان الموسرين يتعاطون التجارة والربا . وكان الفلاحون الموسرون في قرية بكفيا يتاجرون بالتبغ والقطران والخيول والمواشي الاخرى في مناطق مختلفة من سوريا وحتى مصر . كما كانوا يجنون المداخيل من تأجير الفيلات للموسرين من اهالي بيروت (٣٦) .

---

٣٢ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 145.

٣٣ — Ibid., pp. 145-146.

٣٤ — W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840. pp. 280, 281.

٣٥ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 145.

٣٦ — بطرس البستاني ، دائرة المعارف ، بيروت ، ١٨٨١ ، ج ٥، ص ٥٣٦ .

اما في القرى الصناعية التي سيأتي ذكرها فيما بعد فقد تشكلت ايضا فئة من الاعيان كانت تستخدم العمل المأجور في الحرفة .

بيد ان الظواهر الاجتماعية ـ الاقتصادية الجديدة في القرية اللبنانية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت لا تزات ضعيفة التطور . وكانت العلاقات الرأسمالية هناك لا تزال في دور الولادة .

وكان الفلاحون لا يزالون يشكلون طبقة واحدة في مجتمع اقطاعي ، وقد تقسموا الى فئات ومجموعات حسب اشكال واحجام ملكيتهم للارض وحسب طابع التبعية الشخصية . اما تباين الفلاحين اجتماعيا واقتصاديا وظهور الفئات الجديدة بين سكان الريف (الكولاك والبروليتاريا) فلا يكادان يظهران في تلك الفترة الا بخطوطهما العامة .

وكانت العمليات الجديدة التي تحدث في الريف اللبناني هي التالية : تطور العلاقات النقدية ـ السلعية ، تخصص الاقتصاد الزراعي ، انهيار الاقتصاد الطبيعي ، تطور نظام الاجرة ، ظهور الاستغلال الرأسمالي ، ازدياد تباين الفلاحين . وقد بدأت هذه العمليات منذ نهاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر تعاني من التأثير المتزايد لرأس المال الاوروبي الغربي .

وكانت العمليات الجديدة التي تحدث في الريف اللبناني مرتبطة بالتغيرات الطارئة على الحرفة والصناعة .

فحتى مستهل القرن التاسع عشر لم يكن في لبنان مدن تتمركز فيها الحرف . وكانت صيدا وبيروت وطرابلس مدنا تجارية بشكل رئيسي وطريقا لاستيراد القمح الى لبنان وتصدير الخامات الزراعية منه .

بيد انه منذ نهاية القرن الثامن عشر حدثت في لبنان بوتيرة لا بأس بها عملية انفصال الصناعة عن الاقتصاد الزراعي على اساس الحرف الريفية وعملية بروز المراكز الحرفية في المدينة والريف . ان تهدم الانتاج الحرفي والمانوفاكتوري الذي وقع في اواسط القرن التاسع عشر في دمشق وحلب تحت تأثير منافسة سلع المصانع الاوروبية لم يصاحب في لبنان بهلاك الصناعات الريفية لان هذه السلع كانت مخصصة لسوق اضيق وكان مصدروها اكثر مرونة في تقدير مطالب الفئات الواسعة من الاهالي .

وفضلا عن هذا فان الحرفي الريفي لم ينقطع عن الزراعة التي كانت تؤمن له وسائل المعيشة . ولكن منافسة السلع الاوروبية كانت تعرقل نجاح تطور اشكال التنظيم الرأسمالية العليا للصناعة داخل الحرف الريفية .

وقد ذكر ك . د . بيتكوفتش ان « سكان القرى والاماكن الصغيرة كانوا يزاولون مختلف الحرف لسد الحاجات المحلية ، ويصادف بين اللبنانيين الحجارون والنجارون والحدادون والخياطون وصانعو الاحذية والصباغون والحائكون وغيرهم من العاملين بأبسط الادوات البدائية » (٣٧) ويشتري هؤلاء الحرفيون المواد الخام بأنفسهم عادة من دمشق وطرابلس وبيروت . وقد كانت غالبية هؤلاء الحرفيين تزاول باستمرار هذه الحرفة أو تلك ولكنها كانت تملك في الوقت نفسه استثمارات زراعية . وكان العمل يجري دائما تقريبا بطلب من المستهلك .

وكان من الامور المميزة لعدد من فروع الحرفة اللبنانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر تحول الحرفيين الريفيين الى منتجي سلع صغار . وفي الوقت نفسه كان سكان قرى كاملة يتخصصون في حرف معينة . فقرية (زوق مكايل) في شمال لبنان كانت في بداية القرن التاسع عشر مشهورة بالحياكة وصنع الاحذية . ويذكر بوركهارت ان غالبية سكان زوق كانت من اصحاب الدكاكين والحرفيين الذين كانوا يزودون كسروان بالثياب والاحذية (٣٨) . وكان سكان قرية بيت الدين (وهي مقر الامير بشير الشهابي) ينتجون الملابس لسكان الجبال . اما حرفيو مدينة زحلة فقد كانوا يصنعون الثياب القطنية والعبي (٣٩) الصوفية .

وكان هناك قسم كبير من الحرف في بداية القرن التاسع عشر لا يزال يخصص منتجاته لسوق ضيقة ولسد حاجات الاقطاعيين بشكل اساسي . ويذكر بوركهارت ان حرفيي دير القمر كانوا يتفننون في صنع عبي المشايخ الموشاة بالذهب والفضة والتي يصل ثمنها الى ٨٠٠ قرش (٤٠) . وكانت منتجات الحرف

---

٣٧ ـ ك. د. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . صفحة ١٦٩ .

٣٨ ـ J.L. Burchardt, Travels in Syria..., p. 183.

٣٩ ـ Ibid., pp. 6-7.

٤٠ ـ المصدر نفسه ، صفحة ١٩٣ .

الريفية تباع عادة في الاسواق المحلية الصغيرة ، كالخان القديم الخرب قرب حاصبيا الذي كان يؤمه كل ثلاثاء سكان القرى الواقعة على بعد مسيرة يوم واحد » (٤١) .

ولكن الانتاج الاجمالي كان معروفا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى منذ بداية القرن بالنسبة لبعض فروع الحرفة . فقد كانت قرية راشيا تبيع منتوجاتها من المصنوعات الفخارية التي تخصصت في صنعها ضمن مساحة تمتد حدودها الى بعد مسيرة اربعة او خمسة ايام ، وخاصة في حوران والجولان (٤٢) اما المنسوجات الحريرية التي كانت تصنع في زوق فقد كانت مشهورة في سائر سوريا وخارج حدودها كذلك ، وكانت تصدر الى مصر وغيرها من ولايات الامبراطورية العثمانية والى اوروبا . وتدل سعة اسواق تصريف نتاج الحرفة الريفية على التطور العالي نسبيا في مجال الانتاج السلعي الصغير في القرى الحرفية المذكورة .

ان المواد التي في حوزتنا لا تسمح لنا مع الاسف بالقاء الضوء على تنظيم الحرفة الاقتصادي . ويمكننا ان نتتبع احوال تباين الحرفيين ، الذي هو نتيجة حتمية لتطور الاقتصاد السلعي الصغير ، من مثال الحرف الريفية في الزورق حسب معطيات السنوات الـ (٦٠–٧٠) في القرن التاسع عشر . لقد وصف ك. د. بيتكوفتش احوال حرف الحياكة في زوق بعد خمسين سنة من وصف بوركهارت لها ، اي عندما انتهى عهد الحرفة اليدوية المستقلة وحلت محلها الورشات التي يعمل فيها العمال لحساب رب العمل. ويقول ك . د . بيتكوفتش ان « اصحاب الفبارك » في زوق لم يكونوا بحاجة لرؤوس اموال كبيرة من اجل تسيير انتاجهم . فقد كانوا يعملون « يوما فيوما ويبيعون نتاجهم محليا » وكانوا يوسعون الانتاج ويقلصونه حسب التصريف . وكان العامل الذي يزاول حياكة الانسجة الحريرية والمذهبة يتقاضى عشرة قروش يوميا ، اما صانع البرانس وعموم الانسجة القطنية والصوفية فقد كان يكتفي بخمسة قروش يوميا (٤٣) . و « العمال » الذين يتحدث عنهم ك . د . بيتكوفتش هم الاناس الذين يبيعون قوة عملهم ، اما

٤١ — المصدر نفسه ، صفحة ٣٤ .

٤٢ — Ibid., p. 36.

٤٣ — ك. د. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٧١ .

ما يسمى « بأصحاب الفبارك » فيقصد بهم مالكي الورشات . ولكن « اصحاب الفبارك » هؤلاء انفسهم ليسوا اناسا مستقلين ، بل هم في تبعية للتجار الذين يشترون سلعهم محليا .

وكان طابع الانتاج في قرى بكفيا والبترون وبيت شباب يقترب من طابع الانتاج في زوق خلال الاعوام الـ (٦٠ – ٧٠) . وقد احصى ك . د . بيتكوفتش في بكفيا والقرى القريبة منها حتى الالف وخمسمئة آلة حياكة تنتج من الانسجة ما تتراوح قيمته بين مئة ومئة وعشرة آلاف ليرة تركية سنويا (٤٤) .

وقد برزت في دير القمر في اواسط القرن التاسع عشر ورشات حياكة ليست بالكبيرة ، وربما تكون قد ظهرت هناك كذلك مانوفاكتوريات صغيرة . ولا يمكننا ان نحكم على حجم العمل المأجور المستخدم فيها سوى بمعطيات عرضية فقط . فمن المعروف ان اصحاب ورشات دير القمر قد استلفوا مبلغ ٣٠ الف فرنك (٧٥٠ الف قرش) لتجديد ٤٢ ورشة كانت قد هدمت في عام ١٨٦٠ من جراء الصدامات بين الدروز والموارنة ، وكان يعمل في هذه الورشات اكثر من اربعمئة عامل وعاملة (٤٥) ، وبالتالي فقد كانت كل ورشة تضم عشرة عمال وسطيا .

والى جانب ورشات النسيج كانت توجد في لبنان المصابن وورشات صنع البارود والادوات المعدنية التي كانت على ما يظهر تستخدم العمل المأجور كذلك . ففي قرية بيت – شباب (لبنان الاوسط) كان هناك مصنع لصب النواقيس كما كان يصنع سكك الحراثة ونعال الدواب واوعية خشبية للفسيل تستعمل في مغازل الحرير .

وقد احصى ك . د . بيتكوفتش اربع عشرة مصبنة في لبنان تصدر الصابون الى مصر . وحسب الظاهر فان عدد العمال في مثل هذه الورشات لم يكن يزيد عن العشرة . ويذكر ك . م . بازيلي ان عدد عمال ورشة البارود كان خمسة فقط . ان الصناعة الريفية في لبنان لم ترتفع ولم يكن بامكانها ان ترتفع الى مستوى اعلى من مستوى التعاونية الرأسمالية البسيطة والاشكال الاولى

٤٤ — المصدر نفسه ، صفحة ١٧٢ .

٤٥ — E. Lonet, Expedition de Syrie : Beyrouth - Le Liban - Jerusalem 1860-1861, Paris, 1862, p. 346.

للمانيفكتورة في ظروف استيراد السلع الصناعية الاوروبية الى لبنان بأحجام كبيرة . ومن الامور المميزة ان الباحثين في مستهل القرن التاسع عشر كانوا يذكرون كذلك تلك المراكز الحرفية نفسها وأنواع المنتجات السلعية نفسها ، وحتى انهم كانوا يذكرون عدد الآلات نفسه كما في مجال النسيج مثلا ، حيث يبلغ هذا العدد حوالي (٢٠٠٠) نولا (٤٦) .

ولم تنشأ المانوفاكتورة المتطورة والمصانع الصغيرة في البلاد الا في ذلك الفرع الصناعي المتصل بمعالجة الخامات المخصصة للتصدير . ومنذ الاربعينات من القرن التاسع عشر بدأت تظهر في سوريا مانوفاكتورات وحتى مصانع غزل الخيوط الحريرية حيث كانت تستعمل الآلات البخارية . وكانت هذه المؤسسات تظهر عادة في المناطق الريفية بالقرب من مصادر الخامات وتعود ملكيتها للرأسماليين الاجانب والتجار المحليين . وكان أصحاب المصانع الاول هم من التجار الاوروبيين (الفرنسيين والانكليز) الذين كانوا يعيشون في مدن سوريا الساحلية (٤٧) . وقد كانوا احيانا يشركون رؤوس اموال الاقطاعيين المحليين . وكان استقرار صناعة غزل الحرير نوعا ما والارباح الطائلة المتوفرة نتيجة رخص الايدي العاملة وكثرة طلب الحرير تجذب الرأسمال التجاري للعمل في هذا المجال . فحتى الستينات لم يكن في لبنان سوى خمسة او ستة مصانع من هذا النوع ، في كل منها (١٠٠) دولاب ،ولكن هذا العدد بدأ يزداد بعد ذلك حتى اصبحنا نجد في الثمانينات حوالي ستين مصنعا لغزل الحرير في لبنان (٤٨) .

وكان العمل في المصانع موسميا ويستمر مئتي يوم سنويا. وكان عدد العمال في المصانع الستين يصل الى خمسة آلاف ومئتي عامل اي بنسبة ٨٠ الى مئة عامل في كل مصنع وسطيا بأجر يعادل خمسة قروش يوميا (٤٩) ، ويذكر بورفيري أوسبينكسكي ان المصانع أصبحت تفضل العمل النسوي لرخصه .

وهكذا حدث في مجال الحرفة في لبنان تطور من الانتاج

---

٤٦ — أ. روبين ، سوريا المعاصرة وفلسطين ، صفحة ١٢٨ ، ١٢٩ .

٤٧ — ك. د. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . صفحة ١٦٩، ١٧٩، ١٨٠ .

٤٨ — المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

٤٩ — المصدر نفسه ، صفحة ١٧٠ .

الحرفي الريفي الوثيق الارتباط بالاقتصاد الزراعي حيث الحرفي يعمل حسب الطلب الى حرف منزلية تعتمد على تصريف المصنوعات اليدوية في السوق .

وفي مشارف منتصف القرن التاسع عشر نشأت الورشات والمانفاكتورات المتفرقة على اساس من الحرف المنزلية الريفية . ويمكننا الافتراض ان الرأسمال التجاري قد لعب الدور الحاسم في تنظيمها ، فارتفاع طلب السوق العالمية للحرير الخام دفع التجار والاقطاعيين لتوظيف رؤوس اموالهم في انشاء اولى المصانع الصغيرة لغزل الحرير . وقد كان الرأسمال الاجنبي يشارك منذ السنوات الاربعين من القرن التاسع عشر في هذا الشكل الذي يعتبر اعلى اشكال تنظيم المصانع في لبنان .

وقد الحقت العمليات الجديدة التي حدثت في الاقتصاد الزراعي والحرفة في لبنان تغيرات في نظام ملكية الارض الاقطاعية.

الملكية الاقطاعية للارض

كان نظام ملكية الارض في لبنان كما في باقي مناطق الامبراطورية العثمانية على درجة كبيرة من التعقيد . فقد كانت ملكية السلطان السامية (*) لسائر اراضي الامبراطورية تمتزج هنا مع الملكية السامية لاراضي البلاد من قبل الامير الحاكم الذي كان جبل لبنان من نصيبه . وكان الامير بدوره يقدم الاراضي للاقطاعيين اللبنانيين . ومع هذا فان سائر الاراضي المستعملة كان لها ملاك مباشرون يعين لهم القانون نوع ملكيتهم للارض من (ملك او بكلك او وقف او مشاع) (٥٠) مما يخلق شبكة معقدة من اشكال

(*) ملاحظة من المعرّب : تستخدم المؤلفة هذه الكلمة بمعنى ان ملكية الارض في ظل السيطرة العثمانية كانت في النهاية واساسا تعود الى السلطان .

٥٠ — الملك : الملكية الشخصية التي يمكن انتزاعها بسهولة . وقد كانت الغالبية العظمى من أراضي لبنان المزروعة تدخل ضمن هذا النوع من الملكية .

بكلك : (بالتركية بيبليك) الاراضي العائدة للامير الحاكم .

الوقف : الاراضي والممتلكات الاخرى التي يتم التبرع بها للكنائس والمؤسسات الدينية الاخرى لاهداف خيرية ودينية .

ملكية الارض السائدة غالبا في المجتمع الاقطاعي .

وفي منتصف القرن التاسع عشر سادت الملكية الاقطاعية الكبيرة للارض على شكلين : فهي اما ملكية مشروطة (مقاطعة) (٥١)، او غير مشروطة (٥٢) . (اما في باقي الامبراطورية العثمانية في

المشاع : الاراضي المشاعة . كان جبل لبنان يتميز عن سوريا ذات الاراضي السهلية بانعدام الملكية المشاعية للاراضي الزراعية ، وكانت هذه الملكية مقتصرة على المراعي والغابات .

كما كانت توجد في لبنان اراض تسمى « الاراضي الميتة » — الموات — وهي ارض بكر ولا تدخل في ملك احد وتبعد عن اقصى بيوت القرية بمسافة لا يتجاوزها صوت الانسان . وكان يمكن « احياء » الارض الموات عن طريق فلاحتها وزراعتها وبناء بيت وطاحونة وحفر بئر وما الى هذا . وفي مثل هذه الحالة كانت الارض « المحياة » في لبنان تصبح ملكا لمن احياها . ولم يكن جبل لبنان يحتوي على اراضي للدولة — اراضي اميرية — المرجع : عبد الله قرا علي ، كتاب مختصر الشريعة بيروت ١٩٥٩ .

I. Aouad. Le droit privé des maronites au temps des émirs Chihab (1697-184) d'après les documents inédits, Paris, 1933.

٥١ — لقد كان اصطلاح « مقاطعة » في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يستعمل ايضا بمعنى اقليم او ناحية أي وحدة مساحية . وكان هذان المفهومان يتطابقان عادة . ولكن كان يحدث أن تشمل المقاطعة (فيوذة) قرية أو قريتين فقط لا تشكلان مقاطعة — اقليما . وغالبا ما تخلط الكتب التاريخية بين معنيي كلمة مقاطعة . وينبغي أن ندخل في نطاق الملكية المشروطة الاراضي الخاصة — وهي الاراضي العائدة للامير الحاكم . فقرى دير القمر وعين دارا وطبلون ونيحا وعماطور كانت قرى خاصة .

« Zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft », Bd VI, Leipzig, 1852, S. 103, 104).

٥٢ — تنبغي الاشارة الى أن بعض الاراضي كانت تعود للملاك مطلقين واخرين خاضعين لشروط في آن واحد . فاراضي القرية كانت تدخل ضمن مقاطعة الاقطاعي الذي كان يملك القرية ملكية مشروطة ولكن في الوقت ذاته كانت كل قطعة من الاراضي المزروعة ملكا للفلاح او الاقطاعي (اذا كان الفلاح قد حرم من حقوق ملكية الارض يعمل فيها بصفته شريكا) . وهكذا فقد كانت بعض أشكال الملكية تعيش الى جانب اشكال اخرى ، وكان الاقطاعيون الملاك يؤكدون حقهم في الارض بواسطة جبي مختلف انواع الريع الاقطاعي .

عام ١٨٣٩ (*) فقد كانت الملكية الاقطاعية المشروطة — المقاطعات العسكرية — ملغاة) .

وكانت المقارنة بمثابة راتب عقاري مشروط بالتزام المقاطعجي بجبي الضرائب للخزينة. وكان المقاطعجية يؤدون الخدمة العسكرية للامير الحاكم ، ويلتزمون بقيادة الفلاحين المسلحين استجابة لطلبه. وكانت نسبة عائداتهم من الضرائب تبلغ ٨٪ ، ولكنهم كانوا في الواقع يستولون على نصيب اكبر من هذا بكثير ، وهذا النصيب بالذات هو ما يجب اعتباره الجزء الذي كان يعود للمقاطعجية من الضريبة — الريع (٥٣) .

وكان هؤلاء يتمتعون ضمن اراضي ممتلكاتهم بالحصانة الادارية وبالحصانة القضائية جزئيا وكانوا في الحقيقة الحكام ذوي السلطة المطلقة . فقد كان المقاطعجي يحاكم الجرائم الجنائية التي يعاقب عليها بالسجن او بالجلد ، على اساس القوانين العامة. اما محاكمة الجرائم الاكثر خطورة والتي عقابها الاعدام او التشويه الجسدي (حسب مبدأ « العين بالعين والسن بالسن ») فقد كانت من اختصاص الامير الحاكم . وكان الفصل في القضايا المدنية (التي تعالج على اساس الشريعة في المناطق الدرزية والاسلامية وعلى اساس القوانين العامة والمجموعات القضائية في المناطق المسيحية) من اختصاص القضاة او رجال الدين (القساوسة والاساقفة والبطاركة) . وكان حكام المقاطعات يقومون بتنفيذ احكام المحاكم المختصة بالقضايا المدنية .

وكانت احجام المقاطعات تختلف من واحدة لاخرى . فمشايخ جنبلاط مثلا كانوا يملكون في مستهل القرن التاسع عشر خمس مقاطعات : الشوف واقليم جزين واقليم التفاح واقليم الخروب وجبل ريحان وكلها تقع في جنوب لبنان وتضم حوالي ٢٠٠ قرية يقطنها اكثر من ٣٠ الف انسان . وكان المشايخ النكديون الدروز يملكون مقاطعة المناصف ومركزها دير القمر التي كانت في عام ١٨٣٣ خاصة الامير الحاكم ومقاطعة الشحار الواقعة في لبنان المتوسط (وكانت تضم ٣١ قرية يقطنها اكثر من ثلاثة عشر الف انسان) .

(*) ملاحظة من المعرّب : ورد في النص الروسي عام ١٩٣٩ ولا شك انه خطأ مطبعي .

٥٣ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

ملكية الارض السائدة غالبا في المجتمع الاقطاعي .

وفي منتصف القرن التاسع عشر سادت الملكية الاقطاعية الكبيرة للارض على شكلين : فهي اما ملكية مشروطة (مقاطعة) (٥١)، او غير مشروطة (٥٢) . (اما في باقي الامبراطورية العثمانية في

المشاع : الاراضي المشاعة . كان جبل لبنان يتميز عن سوريا ذات الاراضي السهلية بانعدام الملكية المشاعية للاراضي الزراعية ، وكانت هذه الملكية مقتصرة على المراعي والغابات .

كما كانت توجد في لبنان اراض تسمى « الاراضي الميتة » — الموات — وهي ارض بكر ولا تدخل في ملك احد وتبعد عن اقصى بيوت القرية بمسافة لا يتجاوزها صوت الانسان . وكان يمكن « احياء » الارض الموات عن طريق فلاحتها وزراعتها وبناء بيت وطاحونة وحفر بئر وما الى هذا . وفي مثل هذه الحالة كانت الارض « المحياة » في لبنان تصبح ملكا لمن احياها . ولم يكن جبل لبنان يحتوي على اراضي للدولة — اراضي اميرية — المرجع : عبد الله قرا علي ، كتاب مختصر الشريعة بيروت ١٩٥٩ .

I. Aouad. Le droit privé des maronites au temps des émirs Chihab (1697-184) d'après les documents inédits, Paris, 1933.

٥١ — لقد كان اصطلاح « مقاطعة » في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يستعمل ايضا بمعنى اقليم او ناحية اي وحدة مساحية . وكان هذان المفهومان يتطابقان عادة . ولكن كان يحدث أن تشمل المقاطعة (فيوذة) قرية او قريتين فقط لا تشكلان مقاطعة — اقليما . وغالبا ما تخلط الكتب التاريخية بين معنيي كلمة مقاطعة . وينبغي أن ندخل في نطاق الملكية المشروطة الاراضي الخاصة — وهي الاراضي العائدة للامير الحاكم . فقرى دير القمر وعين دارا وطبلون ونيحا وعماطور كانت قرى خاصة .

« Zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft », Bd VI, Leipzig, 1852, S. 103, 104).

٥٢ — تنبغي الاشارة الى أن بعض الاراضي كانت تعود للملاك مطلقين واخرين خاضعين لشروط في آن واحد . فاراضي القرية كانت تدخل ضمن مقاطعة الاقطاعي الذي كان يملك القرية ملكية مشروطة ولكن في الوقت ذاته كانت كل قطعة من الاراضي المزروعة ملكا للفلاح او الاقطاعي (اذا كان الفلاح قد حرم من حقوق ملكية الارض يعمل فيها بصفته شريكا) . وهكذا فقد كانت بعض اشكال الملكية تعيش الى جانب اشكال اخرى ، وكان الاقطاعيون الملاك يؤكدون حقهم في الارض بواسطة جبي مختلف انواع الريع الاقطاعي .

عام ١٨٣٩ (*) فقد كانت الملكية الاقطاعية المشروطة — المقاطعات العسكرية — ملغاة) .

وكانت المقارنة بمثابة راتب عقاري مشروط بالتزام المقاطعجي بجبي الضرائب للخزينة. وكان المقاطعجية يؤدون الخدمة العسكرية للامير الحاكم ، ويلتزمون بقيادة الفلاحين المسلحين استجابة لطلبه. وكانت نسبة عائداتهم من الضرائب تبلغ ٨٪ ، ولكنهم كانوا في الواقع يستولون على نصيب اكبر من هذا بكثير ، وهذا النصيب بالذات هو ما يجب اعتباره الجزء الذي كان يعود للمقاطعجية من الضريبة — الريع (٥٣) .

وكان هؤلاء يتمتعون ضمن اراضي ممتلكاتهم بالحصانة الادارية وبالحصانة القضائية جزئيا وكانوا في الحقيقة الحكام ذوي السلطة المطلقة . فقد كان المقاطعجي يحاكم الجرائم الجنائية التي يعاقب عليها بالسجن او بالجلد ، على اساس القوانين العامة. اما محاكمة الجرائم الاكثر خطورة والتي عقابها الاعدام او التشويه الجسدي (حسب مبدأ « العين بالعين والسن بالسن ») فقدكانت من اختصاص الامير الحاكم . وكان الفصل في القضايا المدنية (التي تعالج على اساس الشريعة في المناطق الدرزية والاسلامية وعلى اساس القوانين العامة والمجموعات القضائية في المناطق المسيحية) من اختصاص القضاة او رجال الدين (القساوسة والاساقفة والبطاركة) . وكان حكام المقاطعات يقومون بتنفيذ احكام المحاكم المختصة بالقضايا المدنية .

وكانت احجام المقاطعات تختلف من واحدة لاخرى . فمشايخ جنبلاط مثلا كانوا يملكون في مستهل القرن التاسع عشر خمس مقاطعات : الشوف واقليم جزين واقليم التفاح واقليم الخروب وجبل ريحان وكلها تقع في جنوب لبنان وتضم حوالي ٢٠٠ قرية يقطنها اكثر من ٣٠ الف انسان . وكان المشايخ النكديون الدروز يملكون مقاطعة المناصف ومركزها دير القمر التي كانت في عام ١٨٣٣ خاصة الامير الحاكم ومقاطعة الشحار الواقعة في لبنان المتوسط (وكانت تضم ٣١ قرية يقطنها اكثر من ثلاثة عشر الف انسان) .

(*) ملاحظة من المعرّب : ورد في النص الروسي عام ١٩٣٩ ولا شك انه خطأ مطبعي .

٥٣ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

وكان الامراء من آل ارسلان يملكون مقاطعة الغرب الاسفل التي تضم ٧٠ قرية ويسكنها اربعة آلاف انسان . وكانت الفروع المختلفة من اسرة الامراء اللمعيين تملك مقاطعة المتن التي كانت تضم اربعين قرية كبيرة وسبعة واربعين قرية صغيرة ... الخ (٥٤) .

والى جانب المقاطعات التي كانت تضم بضع عشرات وأحيانا بضع مئات من القرى فقد كانت هناك مقاطعات تتألف من قريتين او ثلاث قرى تقريبا .

وكانت ملكية المقاطعات تنتقل بالوراثة من الاجداد الى الاحفاد في الاسر الاقطاعية . ومما يدل على هذا طريقة منح المقاطعة بالذات . يقول المؤرخ « لقد قدم الامير المقاطعة له (للاقطاعي) ولاحفاده » (٥٥) . بيد ان ادارة المقاطعة والتصرف بالمداخيل كانا في يد كبير العائلة ويرثهما منه الابن الاكبر . ونادرا ما كان يجري تقسيم المقاطعة بين الابناء . ويذكر طنوس الشدياق حادث تقسيم واحد فقط في عام ١٦٦٧ ، عندما قسم المالك مقاطعة كسروان بين أبنائه الثمانية ولم ينل الاربعة الصغار سوى حصة واحدة (٥٦) .

وكانت العائلات الاقطاعية التي تملك مقاطعة كاملة غالبا ما تضم عشرات واحيانا مئات من الرجال البالغين مع اسرهم . وكانت هذه العائلات مؤلفة من اسر تعيش في قرى مختلفة وبعض هذه الاسر كانت تملك القرى التي تعيش فيها وتتبع كبير العائلة ، وغالبا ما كان الاحفاد الشباب في العائلة الاقطاعية يخدمون عند الامراء او البشوات الاتراك محتفظين بكل ميزات طبقتهم ، وكانوا يتصفون بالغطرسة والغرور مع انهم لم يكونوا في الغالب يفوقون الفلاحين غنى وثروة .

وكانت ملكية غالبية العائلات الاقطاعية اللبنانية للمقاطعات تستمر لعدة مئات من السنين ، دون ان يكون لها حق التخلي عنها الى ملاك اخرين . فالامير وحده هو الذي كان يستطيع تجريد مالك المقاطعة من أملاكه المهداة اليه او أملاك عائلته ، كما فعل الامير بشير الثاني مثلا مع اعدائه السياسيين .

وكانت ملكية المقاطعات وقفا على الفئة العليا المتميزة التي

٥٤ — أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٥٥ — طنوس الشدياق : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ، صفحة ٩٠ .

٥٦ — المصدر نفسه ، صفحة ٨٧ .

تشبه فئة النبلاء ضمن الطبقة الاقطاعية . ويميز المؤرخون بين هذه الفئة التي تتألف من أصحاب المناصب والوجوه والاعيان والاكابر والملاك وبين افراد الشعب البسطاء من الاهالي (٥٧) .

وكانت هذه الفئة تتمتع بعدد من الامتيازات ، فالى جانب حق الامتلاك الاقطاعي المشروط كان ممثلوها يملكون الحق في اشغال المناصب العالية وحمل انواع خاصة من الاسلحة والاشتراك في العمليات الحربية على خيولهم (بينما كان الفلاحون يحاربون مترجلين) وارتداء الملابس الجيدة والزينة مما كان محظورا على الشعب البسيط . ولم يكن الاقطاعيون يتعرضون للجلد او للاعدام (لقاء الجرائم نفسها التي كان بقية الاهالي تعدم من جرائها) ،بل كان عقابهم هو النفي والغرامة ومصادرة الاملاك وقطع أشجارهم وهدم مساكنهم (٥٨) .

وحتى في بداية القرن التاسع عشر كان يوجد في لبنان ما يشبه « المكانية » : فقد كانت كل عائلة اقطاعية تشغل مكانا معينا في السلم الاقطاعي (٥٩) .

٥٧ — في منتصف القرن التاسع عشر اي في فترة نمو التباين في الملكية بين الفلاحين كان المؤرخون يطلقون على ممثلي الفئة العليا الريفية لقب الاعيان والوجوه ولكنها لم تكن تعتبر من الفئة الممتازة .

٥٨ — H. Fleischer, Zur Geographieund Statistik des nôrdlichen Libanon, S. 100, 101.

٥٩ — كان استقبال مختلف الاقطاعيين في قصر الامير الحاكم يجري حسب رسميات صارمة . كما كانت هناك ديباجات معينة للرسائل الموجهة اليهم وما الى هذا ... فاذا دخل على الامير الحاكم احد الامراء الشهابيين ، كان الامير الحاكم ينهض وينزل عن السجادة التي يجلس عليها ويقف الى ان يقترب ذاك ويقبله في منكبه . اما عند دخول احد الامراء اللمعيين او الارسلانيين فقد كان الامير الحاكم ينهض ردا لتحيته . وكان الامراء اللمعيون يقبلون الامير في زنده فوق الكوع ، اما أمراء ارسلان فتحت الكوع والشيوخ يقبلون راحته ... وهكذا ... وكان الامير الحاكم يكتب الرسائل الموجهة الى الشهابيين واللمعيين وحماده على نصف صفحة والى باقي ملاك المقاطعات على ربع صفحة ... الخ .

وكان يتوجه الى الشيوخ والامراء بكلمتي « الاخ العزيز » ومن ثم يكمل حسب منصب المخاطب : « اعز الاحباء » او « حبيبنا » او « عزيزنا » . راجع :
Fleischer, Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon, S. 100, 104.

وكان افراد عائلة الامراء الشهابيين يتمتعون بأسمى مكانة ثم يأتي بعدهم الامراء اللمعيون فأمراء ارسلان . وكانت مرتبة مشايخ لبنان المتوسط (وتعتبر المشيخة لقبا لهم) دون مرتبة الامراءوكان لهم نظامهم الخاص : ففي القمة كان مشايخ آل جنبلاط وبعدهم يأتي آل حماده ثم النكديون وتلحوق وعبد الملك وآل العيد .

وكانت المرتبة الدنيا في هذه الفئة من نصيب العائلات الاقطاعية التي لا تحوز على القاب متوارثة ، ومن نصيب اتباع المشايخ والامراء والموكل اليهم أمر ادارة القرى من قبل أصحاب المقاطعات . كعائلة ابي شقرا الدرزية مثلا (٦٠) .

وقد كان لبنان المتوسط في وقت ما مقاطعة متوارثة للامراء المعنيين وخلفائهم الامراء من آل شهاب . وكان الاعيان الاقطاعيون فيه (وغالبيتهم من ذوي العقيدة الدرزية) يشغلون المكانة الاسمى ، اما أعيان الاقطاعيين في باقي مناطق جبل لبنان وسهل البقاع وغالبيتهم من المسيحيين (مشايخ خازن وحبيش ودحداح والضاهر وعازار وغيرهم) فقد كانوا أقل سطوة (٦١) .

ان هذا التباين في المراتب بين الفئات الاقطاعية يفسر لنا اسباب الصراع من أجل السيطرة السياسية في لبنان بين الاقطاعيين الدروز والموارنة في منتصف القرن التاسع عشر .

لقد كانت الارستقراطية الاقطاعية تتصف بالانغلاق على نفسها كفئة اجتماعية . كما كان الاعيان اللبنانيون كافة يباهون بالحفاظ على نبل محتدهم ، حتى أن بعض الطوائف كانت تسبب نفسها لصحابة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وهكذا فقد كانت المقاطعة ملكا اقطاعيا مشروطا ، ترتبط حيازتها بخدمة الأمير الحاكم . وكانت حيازة الارض مرتبطة بالسلطة السياسية على السكان الذين يقطنونها . كما ان ملكية المقاطعات وما يشابهها من انواع الملكية كانت تتصف بانتساب المالك لفئة اجتماعية وبعدم حيازته التامة . كما كانت هذه الملكية تتصف ببنية هرمية .

---

٦٠ ـ W. Polk. The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 59.

٦١ ـ H. Fleischer, Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon, S. 102.

اما الاراضي المتلكة بدون شروط (وهي نوع من انواع املاك الاقطاعي الخاصة) فقد كانت تحت تصرف مالكها كلية ، ولم تكن حيازتها ترتبط بأية التزامات . ان المصادر العربية تسمي عادة هذا النوع من المتلكات بـ « الاملاك » او العقارات ، ونادرا ما تسميها بالرزق .

وهي تتميز عن الملكية المشروطة بطابع الريع الاقطاعي . فقد كان صاحب الملكية المشروطة للارض يجني جزءا من الريع ـ الضريبة . بينما كان مالك الارض المطلق يدفع للدولة عادة الريع ـ الضريبة (اذا كان لا يتمتع بالحصانة الضرائبية) ولكنه كان يجني ريعا اقطاعيا من الشركاء الذين يعملون في ارضه . وكان ما يجري فعلا ان الفلاحين الذين كانوا يعملون في هذه الارض كانوا يدفعون الريع لمالك الارض المباشر ، والريع ـ الضريبة للدولة اي لمالك الارض الاعلى .

وكانت الملكية الاقطاعية المطلقة للارض تقترب بصيفتها القانونية من الملكية البورجوازية وذلك لانها كانت مجردة من اكثر الوصايات والشوائب السياسية والاجتماعية » (٦٢) التي تتصف بها الملكية المشروطة للارض . ولم يكن انتساب المالك الى فئة اجتماعية معينة يلعب دورا في شكل الملكية المطلقة للارض ، اذ كان يحق لاي شخص ان يمتلك الارض ملكية مطلقة من الناحية القانونية بغض النظر عن الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، كما ان بنية هذه الملكية جوهريا لم تكن تتصف بالصفة السلمية المتدرجة . وكان مالك الارض لا يجني الريع بواسطة الاكراه اللااقتصادي بل بحكم تبعية الشريك اقتصاديا لهذا المالك . ومع ان هذه الملكية فقدت بهذا عددا من السمات الهامة التي تتصف بها الملكية الاقطاعية فانها لم تكف عن كونها اقطاعية وذلك لانها بقيت كالسابق مصدرا للريع الاقطاعي .

وفي مستهل القرن التاسع عشر انتشرت في لبنان على نطاق واسع الملكية الاقطاعية المطلقة الضخمة . وتذكر لنا معطيات ك . ف فولني التي ربما كانت تعوزها الدقة انه في نهاية القرن الثامن عشر كانت الاسر الدرزية الخمس او الست الرئيسية في لبنان

---

٦٢ ـ ك. ماركس . رأس المال ، ك. ماركس وف. انجلز ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، الجزء ٢٥ ، القسم الثاني ، الصفحة ١٦٧ .

الجنوبي تملك عشر كافة الاراضي المزروعة (٦٣) . وكانت العقارات الاقطاعية تتألف من قطعات من الاراضي مبعثرة في اماكن مختلفة، ومن مساحات متجانسة كبيرة حيث كان الاقطاعي يملك اراضي قرى كاملة مع كافة منشآتها (٦٤) .

وكان اصحاب المقاطعات يملكون عادة عقارات عديدة موجودة ضمن مقاطعاتهم . وقد كتب ر . بوركهارت بصدد ممتلكات الشيخ بشير جنبلاط « ان الجزء الاكبر من منطقة جيسن (اي اقليم جزين على ما يظهر وهو مقاطعة لآل جنبلاط « المؤلف ») ملك له وهو لا يسمح لاحد بامتلاك اراضي في هذا المكان ، بل انه يوسع ممتلكاته الخاصة سنويا ، وبهذا **تزداد سلطته باستمرار » (٦٥) .**

وبالاضافة الى هذا فقد كان آل جنبلاط يملكون قرى في مقاطعات أخرى وخاصة في سهل البقاع . وكان مشايخ آل الخازن يملكون مساحات كبيرة من الارض في مقاطعة كسروان ، اما ممتلكات الامراء الشهابيين فقد كانت موزعة في العديد من مقاطعات لبنان.

وقد ازداد الاهتمام بالملكية غير المشروطة في فترة تطور العلاقات السلعية ـ النقدية عندما اصبح من السهل تصريف الريع العيني في السوق وازدادت حاجة الاقطاعيين الى النقود . وكان السبب الاول في هذا هو ضخامة مداخيل العقارات . فالاقطاعي الذي يملك الارض ملكية مشروطة كان يقبض رسميا ٨٪ من الضريبة المجنية . فاذا كانت الضريبة تعادل ٢٥ بالمئة من المحصول كان ما يقبضه الاقطاعي يعادل قرشين من كل مئة قرش من مدخول الارض . اما اذا كانت ملكية الاقطاعي للارض مطلقة فقد كان يجني من الشريك مقداراً يتراوح بين ثلث المحصول ونصفه اي من ٣٣ الى خمسين قرشا من كل مئة قرش من المدخول . وكان يدفع ثلث

٦٣ ـ C.F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, vol. 2, p. 190.

٦٤ ـ في بداية القرن التاسع عشر اشترى الامير بشير شهاب قرية بيت الدين من الشيخ أبي علي بيت الديني وبنى فيها قصرا له ومنازل للشركاء الذين يعملون في ارضه .

خليل همام فايز ، ابو سمرا غانم او البطل اللبناني ، القاهرة ، ١٩٠٥ ، ص ١٧٠ .

٦٥ ـ **J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 197.**

هذا المبلغ او نصفه اي من ٨ قروش الى ١٢ قرشا كضريبة الى الخزينة ، اما الباقي فقد كان يدفعه الشريك ، وهكذا فقد كان يجني من مثل هذه القطعة من الارض مبلغا يتراوح بين خمسة وعشرين قرشا وثمانية وثلاثين قرشا اي اكثر مما يقبضه صاحب المقاطعة ببضع مرات . ان هذا الحساب يعطينا رغم تبسيطه صورة عن مردود الملكية المطلقة (٦٦) .

والى جانب المداخيل المرتفعة كانت الملكية المطلقة تتمتع بميزات اخرى على جانب كبير من الاهمية في ظروف العلاقات السلعية النقدية الآخذة في التطور ومنها : حرية التصرف بالارض ، حرية نقل ملكيتها من يد لاخرى ، امكانية تعيين نوع المزروعات التي يجب على الفلاحين الشركاء ان يزرعوها .

ان كتب الاخبار تعكس لنا اهتمام الاقطاعيين بالحفاظ على الملكية المطلقة للارض وتوسيع نطاقها . ومن الامور التي لها دلالتها في هذا المجال سياسة الامراء الشهابيين الذين كانوا في القرن الثامن عشر يعاقبون اصحاب المقاطعات المذنبين لا بتجريدهم من مقاطعاتهم وانما بمصادرة املاكهم ، وبقطع اشجارهم (٦٧) معتبرين على ما يظهر ، ان هذا النوع من العقاب اكثر جدية .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر اصبح من الممكن ملاحظة النمو السريع للملكية المطلقة للاراضي . فاذا كان ك. ف فولني قد لاحظ في الثمانينات من القرن الثامن عشر ان الاقطاعيين الدروز يملكون عشر الارض فان الشيخ الدرزي سعيد جنبلاط اصبح في الاربعينات من القرن التاسع عشر يملك بمفرده ثمن مجموع اراضي لبنان

٦٦ ـ ويمكن ان نصل الى نتيجة مشابهة على أساس المعطيات التالية : في العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان نصيب كل اصحاب مقاطعات لبنان ذوي الملكية المشروطة يصل الى ثلاثمئة الف قرش (اي بنسبة ٨٪ من مجموع ٣٧٥٠٠٠٠ قرشا) بينما كان بعض ملاك الارض في لبنان يجنون من بساتينهم وأحراش الزيتون والحقول مبلغا يتراوح بين المئتين والثلاثمئة الف قرش ، أي ما يعادل كل ما يقبضه جميع أصحاب المقاطعات تقريبا .

٦٧ ـ راجع مثلا : طنوس الشدياق : كتاب أخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٨٥٩ ، صفحة ٣٧٥ .

الجنوبي (٦٨) . اي اكثر مما كان يملكه كافة الاقطاعيين الدروز قبل خمسين سنة .

وكانت حيازة الارض تجري بطرق مختلفة :منها شراء الارض من الفلاحين الذين حل بهم الخراب (٦٩) ، واحياء الارض الموات واستعمال حق الاشتراك بالملكية ، واخيرا عن طريق الاستيلاء بالقوة على اراضي الفلاحين .

ومع تعاظم الملكية المطلقة اخذ يظهر عند الاقطاعيين الميل الى حماية ممتلكاتهم من الضرائب الباهظة . وقد استطاع اصحاب المقاطعات الدروز ذوو السطوة (والذين كانت ممتلكاتهم داخل مقاطعاتهم) ابان توزيع مقادير الضرائب بين مختلف المناطق ان يحصلوا لدى الامراء الحاكمين على تقليص الضرائب على مقاطعاتهم على حساب زيادة الضريبة المجبية من المسيحيين ، اما في داخل المقاطعات فقد كان اصحابها يحاولون توزيع الضرائب بحيث يقع العبء الرئيسي على الفلاحين والملاكين الصغار (٧٠) .

وكان من المحتم ان يقوي هذا من استياء الفلاحين وان يولد تناقضات داخلية بين الكتل الدرزية والمارونية الاقطاعية .

وكانت الملكية المطلقة تتيح للاقطاعيين تكويس مقادير ضخمة

---

٦٨ — D. Urquhart, The Lebanon..., t. II, p. 190.

وقد كتب ب. ادواردس في عام ١٨٦٠ عن أسر درزية تملك سدس الاراضي .
(R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 55).

٦٩ — لقد ذكر الرحالة الاوروبي ج. دانديني أخبارا عن تجريد الفلاحين من الارض لقاء الديون في نهاية القرن السابع عشر ، كما يمكن أن نطلع على مثل هذه المعلومات لدى رحالة القرن الثامن عشر في

« Voyage du Mont Liban du R.P. Jerome Dandini », Paris, 1685, p. 89.

و « رحلة قيم الدير بينوس عبر ايطاليا الى مصر وجبل لبنان وأرض الميعاد وأورشليم . مترجم عن الالمانية ، بطرسبورج ١٧٩٣ ، صفحة ١٥٤ — ١٥٥ .

٧٠ — كتب ك. م. بازيلي في مستهل العقد الرابع من القرن التاسع عشر انه كان يوجد في لبنان « مبدأ فاسد تتمتع حسبه أراضي الشيوخ والامراء بأفضلية تامة ، وتقع كل الاعباء على الملاك الصغار من الكادحين » (أسرخ) « السفارة في القسطنطينية » .

من النقود (٧١) جرت العادة على عدم توظيفها في الاقتصاد الزراعي . وكان بعض الاقطاعيين يحولون نقودهم المكدسة الى راس مال تجاري وربوي ويستعملونها لبناء الدكاكين والمخازن وابنية السكن للاجرة . وقد كان الامير ملحم شهاب مثلا يجني من البيوت والدكاكين ريعا قدره ٤٠٠ فرنك استرليني (حوالي ٤٤ الف قرش) . (٧٢) وفي منتصف القرن التاسع عشر أخذ بعض أصحاب رؤوس الاموال يوظفون رؤوس اموالهم في الصناعة . وقد شارك الشيخ يوسف عبد الملك مثلا في انشاء مصنع لغزل الحرير مع التجار الانكليز (٧٣) .

وكانت النيجة هي تشكل فئة مرتبطة اقتصاديا بالبورجوازية الناشئة داخل الطبقة الاقطاعية . بيد ان قسما لا يستهان به من الاقطاعيين السوريين كانوا يبذرون مداخيلهم دون انتاج ، ولم تستطع عقاراتهم التي ازدهرت ابان الاقتصاد الطبيعي ان تصمد امام ضغط العلاقات السلعية المالية ، وهذا ما ادى الى افتقارهم ثم افلاسهم . وكان هذا احد مظاهر ازمة الاقتصاد الاقطاعي . ان المصادر غالبا ما تتحدث عن الديون الكبيرة التي استقرضها الاقطاعيون من التجار والمرابين . والامر الذي ادى الى تعقيد العلاقات المتبادلة بين الفئة الاقطاعية وفئة التجار والمرابين . (ان التناقضات بين الاقطاعيين الدروز ومدينيهم من التجار المسيحيين ومرابي دير القمر قد لعبت دورها في حوادث الاربعينات من القرن التاسع عشر) .

وهكذا كانت تزداد قيمة واهمية الملكية الاقطاعية المطلقة بالنسبة لغيرها من اشكال ملكية الارض مع تطور العلاقات السلعية — النقدية . وكان توسع نطاقها يجري بشكل رئيسي عن طريق

---

٧١ — لقد بلغ مدخول أحد أقوى المشايخ في مستهل القرن التاسع عشر وهو الشيخ بشير جنبلاط مليون قرش :
(J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 196).

وقبض اقطاعي كبير اخر من بساتين الزيتون فقط ريعا قدره ١٥ الف جنيه استرليني (١٦ مليونا و ٥٠٠ الف قرش) :
(D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 183).

٧٢ — (D. Urquhart, The Lebanon..., vol. II, p. 285).

٧٣ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

الاستيلاء على اراضي الفلاحين . واصبحت مسألة الارض قضية حيوية ولهذا فقد ظهرت لدى الفلاحين ابان الحركة الفلاحية في السنوات الاربعين والخمسين من القرن التاسع عشر نزعة استعادة الاراضي التي انتزعها الاقطاعيون منهم .

استثمار الفلاحين للارض

ان وجود ملكية اقطاعية كبيرة للارض لم يكن يعني عادة وجود اقتصاد اقطاعي ضخم . ففي لبنان ، كما في كافة بلدان الشرق كان الفلاحون الشركاء التابعون يعملون في استثماراتهم الصغيرة المبعثرة في اراضي الاقطاعيين .

وكان استثمار الفلاحين للارض في لبنان يتم بشكلين : بشكل ملكية فلاحية صورية (٧٤) وبشكل استئجار بالشراكة .

وغالبا ما كان الفلاحون في مناطق لبنان الجبلية وعلى الساحل ملاكا للاراضي المزروعة التي كانت تدخل تحت حوزتهم على اساس حق الملك في اغلب الاحوال . وكانت تنعدم هنا الملكية المشاعة للاراضي المزروعة بعكس ما كان يجري في سوريا السهلية وفي سهل البقاع حيث كانت ملكية الاراضي المفلوحة مشاعية .

ان انعدام المعطيات الاحصائية كلية لا يسمح بتحديد نسبة حجم الملك الفلاحي ونحن نعرف بوجوده من اشارات ك . ف . فولني (٧٥) و ك.م . بازيلي،و هـ . غيز و ك . د. بيتكوفتش(٧٦).

---

٧٤ ـ تسميتنا الفلاح مالكا هي تسمية اصطلاحية اذ أنه لم يكن يملك سوى حق حرية التصرف بأرضه وكان من الاصح أن نسمي هذه الملكية « بالاستعمال الحر » من نوع Freehold الانجليزي و Cens الفرنسي اذ أن الفلاح كان يدفع من أرضه الريع الاقطاعي الذي يذهب قسم منه للسيد صاحب المقاطعة التي يعيش فيها الفلاح وقسم للخزينة .

٧٥ ـ يذكر ك. ف. فوليني ان كل فلاح «يستثمر بنفسه ارضا صغيرة يمتلكها او يستأجرها » :
(C.-F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, vol. 3, p. 146).

٧٦ ـ كتب ك. د. بيتكوفتش « ان كل قاطن على العموم يملك منزلا له وقطعة غير كبيرة من الارض يزرعها قمحا أو يستعملها لزراعة أنواع معينة أخرى » . (« لبنان واللبنانيون » صفحة ١٥٢) .

كما انه من المتعذر تحديد الحجم الوسطي للاراضي العائدة للاقتصاد الفلاحي في لبنان اواسط القرن التاسع عشر . ان انعدام الملكية المشاعية للارض وعدم اعادة تقسيمها ساعد على نشوء تذبذبات قوية في احجام هذه الملكية . وتشهد معطيات انيس فريحة قلى ان عددا قليلا فقط من الفلاحين اللبنانيين كان يمتلك ارضا يكفي مدخولها لاعالة الاسرة . ومن المرجح ان غالبية الفلاحين كانت لا تملك سوى قطعا صغيرة من الارض وكانت تستأجر الارض باستمرار على اساس الشراكة ، كما كان يفعل سكان منطقة بشري الكبيرة في شمال لبنان ، خاصة الذين استأجروا قطعا من الارض في البقاع (٧٧) .

وغالبا ما كانت الملكية الفلاحية مثقلة بالديون ، وقد اصبح تجريد الفلاحين الذين حل بهم الخراب من اراضيهم في القرن التاسع عشر ظاهرة شائعة . وكان من اسباب حرمان الفلاحين من الارض كذلك التقسيم المستمر للارض بين الورثة (٧٨) .

وبما ان الاستملاك الحر للاراضي القفر كان محدودا في لبنان فان المصدر الاساسي الذي ظل يعمل على تفتيت الارض الى ملكيات صغيرة هو الشراكة بالمغارسة .

وقد كان هذا الشكل من أشكال الشراكة يجري كالتالي : يقدم مالك الارض للفلاح قطعة من الارض غير المزروعة لفلاحتها وغرسها بالاشجار . وخلال مدة معينة بعد أن يبدأ البستان باعطاء الثمر يتم تقسيم الارض ويعتبر الفلاح مالكا لنصف او ثلث او ربع الارض أو اي قسم آخر منها واحيانا يصبح مالكا لحصة مماثلة من المنزل الذي يعيش فيه . وكان امتلاك الفلاح للارض يجعله مرتبطا بالاقطاعي ارتباطا وثيقا بحكم صغر الارض والديون التي تراكمت عليه في فترة انتظار اثمار البستان . (وقد كانت الفترة اللازمة لنضج المحصول الاول من التوت تتراوح بين ثلاث وخمس

---

٧٧ ـ J.F. Michaud et J.J. Poujoulat, Correspondance... vol. VI, p. 264.

٧٨ ـ يكتب أنيس فريحة : كان الامر يصل الى حد ان ما يقسم بين الورثة لم يعد قطع الارض بل أغصان التوت الضخمة التي يتغذى دود القز على أوراقها ومحصول الزيتون : (أنيس فريحة ، حضارة في طريق الزوال ، القرية اللبنانية ، بيروت . ص ١٢١) .

سنوات ومن العنب بين آربع وست سنوات ومن الزيتون بين عشر واثنتي عشرة سنة) (٧٩) . ومثل هذا الفلاح يعتبر شريكاللاقطاعي في المحصول وفي ملكية الارض .

وقد ساعد الاستئجار على اساس المغارسة في فترة تعاظم التباين بين الفلاحين على نمو ملكية كبار الفلاحين للارض . وكان هذا النوع من الاستئجار منتشراً في اراضي الامراء الشهابيين وقد ادى الى زيادة ملكية الفلاحين للارض في لبنان الغربي حيث كانت تنبسط املاك الامراء .

وقد لاحظ د . شيفاليه ان اسلوب المغارسة نادرا ما كان يصادف في الشمال (شمال الجبل ـ المعرّب)حيث كانت تحتدم التناقضات الطبقية الصدامية بين الاقطاعيين والفلاحين بسبب حرمان الفلاحين من الارض . ففي هذه المناطق بالذات حدث تمرد كسروان الذي جرى خلاله تقسيم اراضي الاقطاعيين (٨٠) . ولكن لا ينبغي ان ننسى ان المشاركة في الملكية نتيجة اسلوب الاستئجار بالمغارسة كانت تجعل من الفلاح مالكا غير مطلق الصلاحية . فالاقطاعي الشريك في الملك كان يملك حق الشفعة (اي حق بيع الارض وايجارها) . وكان الاقطاعي في بعض الحالات يملك الحق في دفع ثمن قطعة الارض للفلاح الشريك وطرده منها (٨١) . ولم تكن الملكية المشتركة تنتج فقط عن الاسئجار بالمغارسة الذي كان الفلاح يمتلك الارض بواسطته بل ونتيجة عملية معاكسة، اي بشراء الاقطاعي جزءا من ارض الفلاح او بالاستيلاء عليها لقاء الديون .

وقد كانت عمليات الملكية المشتركة للارض من قبل الفلاح والاقطاعي في لبنان القرن التاسع عشر شائعة نوعا ما : ويتحدث عن هذا خاصة . بوركهارت : « كانت ولاية الشوف بأسرها تحت سلطته (سلطة الشيخ بشير جنبلاط ـ المؤلفة) وكان يعتبر شريكا لكافة الدروز تقريبا الذين يملكون في هذه المنطقة » (٨٢) وقد اكد

---

٧٩ ـ فيليرس ، فلاحو سوريا ولبنان . م. ١٩٥٢ ، صفحة ١٥٥ .

٨٠ ـ D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 55.

٨١ ـ D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 240.

٨٢ ـ J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., pp. 196-197.

د . اوركوارت هذه المعلومات في الاربعينات من القرن نفسه(٨٣) . وهكذا فقد ادخل ك . ف فولني و ك . م . بازيلي و . غيز و ك . د . بيتكوفتش في عداد الملاك ، اصحاب الارض الذين لم يكن باستطاعتهم ان يديروا اقتصادا مستقلا في اراضيهم ولذلك فقد كانوا يستأجرون باستمرار آراضي الاقطاعيين .

وقد كان الاستئجار شكلا اخر من آشكال استثمار الفلاحين للارض . فمن المعلوم آن قسما من فلاحي لبنان لم يكن يملك ارضا على الاطلاق . وقد قدر ك . د . بيتكوفتش ان الفلاحين الذين لا يملكون ارضا خاصة بهم يشكلون حوالي ١٠ ٪ من سكان لبنان(٨٤) وهم الذين يدعون بالشركاء .

ان العرف اللبناني يعرف اشكالا متنوعة من المشاركة على درجة كبيرة من التعقيد احيانا . وكانت شروط المشاركة تتعلق بنوعية الارض والمزروعات وبوجود او عدم وجود البذور وأدوات العمل والحيوانات لدى الفلاح وبملكية البيت الذي يسكنه الفلاح، وكان حجم الحصة التي يعطيها الفلاح الشريك للاقطاعي من المحصول يتراوح بين الثلث والنصف (٨٥) . والى جانب هذا فقد كان الشركاء ملزمين بتأدية واجبات اخرى ، اذ كانوا يزودون مطبخ الاقطاعي بالطيور والبيض والجبن والسمن والحليب والاخشاب والفحم مجانا . كما كانوا يعملون بالسخرة في بناء بيت الاقطاعي وما الى هذا (٨٦) .

---

٨٣ ـ يكتب د. اركهارت : « ليس هنا من قرية الا لسعيد بيك (ابن الشيخ بشير جنبلاط) فيها بعض الاملاك مهما كانت حقيرة وشحيحة حصة الفلاح الذي يشاركه في ملكها . ان الهدف من هذا النظام الذي يلفت الانتباه هو السيطرة التامة من ناحية السلطة والحيازة التامة من ناحية الملكية . وهذا يفسر لنا الاسلوب الذي اتبعه أبوه في حيازة ممتلكاته » .
D. Urquhart, The Lebanon, vol. I, p. 252.

٨٤ ـ ك. د. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٥٢ .

٨٥ ـ D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 211.

٨٦ ـ كتب الكولونيل الانكليزي ش. تشرشل الذي كان مقيما في لبنان « ان الفلاحين ، والتابعين منهم للشيخ خاصة ، يقدمون له الهدايا من الطيور الداجنة والسكر والقهوة في مناسبات معينة وخاصة في العيد الكبير او عندما تحتفل اسرة

ولم يكن الشركاء في الغالب يملكون بيوتا خاصة بهم بل كان الاقطاعي هو الذي يقدم لهم المسكن مع الارض . وكانت ظاهرة عدم توفر البيوت الخاصة ، ظاهرة منتشرة في لبنان .

وليس عبثا ان يكتب انيس فريحة قائلا : « ... اذا قالوا عن انسان ما انه يملك منزلا كان هذا بمثابة مدح واجلال له في الوقت الذي كان فيه رهن المنزل او بيعه يلحق العار بالفلاح » (٨٧). وقد كانت تبعية الفلاح الشريك للاقطاعي تجعل وضعه اكثر تعقيدا .

وكانت الاتفاقية الاسمية على الشراكة المنصوص عنها كتابيا او شفويا اتفاقية مؤقتة ولم يكن للفلاح اي حق في استعمال الارض بصورة دائمة (٨٨) . وكانت العلاقات بين الشريك والمالك في الواقع اعقد بكثير مما تنص عليه الاتفاقية: فالفلاحون الذين كانوا يملكون الارض ابا عن جد على اساس الشراكة ، كانوا يكتسبون حقوقا معينة فيها . ويقول أ . م . بير كينفيتم : « كان الفلاح عادة يعتبر الارض التي يعمل فيها وكأنها معطاة له من اجل استعمالها الى الابد ، وخاصة اذا كانت الارض في السابق ملكا له ثم انتقلت الى حوزة الافندي لقاء الديون كما كان يحدث غالبا . ولم يكن استئجار الارض يعتبر استئجارا مؤقتا عاديا الا عندما كان الفلاح، مستأجر ارض الاقطاعي ، يملك حصة خاصة به من الارض في القرية المجاورة ، وغالبا ما كان الاستئجار في مثل هذه الحالة يستمر لمدة

الشيخ بميلاد أو عرس أو عند عودته بعد غيبة طويلة . وهم ملزمون أيضا أن يرافقوه تحت قيادته وعندما يطاب منهم ذلك في رحلاته الى الجبال . كما انهم يقدمون له الاحجار من المقالع والاخشاب من الغابات لبناء منزله بايماز منه . وكان الشيخ لا يقدم لهم مقابل هذا العمل الاجباري سوى وجبة العشاء » .
(Ch. Churchill, Mount Lebanon a ten years' residence from 1842 to 1852..., vol. II, London 1853, pp. 285, 286).

٨٧ ـ أنيس فريحة حضارة في طريق الزوال : القرية اللبنانية ، بيروت ١٩٥٧ ، صفحة ٣٨ .

٨٨ ـ يصف لنا د. شيفاليه وصفا دقيقا كيفية عقد الاتفاقية بين الشريك ومالك الارض بالاستناد الى الوثائق .
(D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 45).

سنة واحدة (٨٩) .

وتشهد بعض المعطيات على ان الاقطاعي لم يكن يتمتع بحق طرد الفلاح من الارض تعسفيا ، بل كان الاقطاعي الرامي الى الاحتفاظ بحقه الكامل في التصرف بالفلاح الذي يعيش في ارضه، يحاول ان يقوي ارتباط هذا الفلاح بالارض . ومن المعلوم ان الاقطاعيين الدروز احتجوا بشدة ضد مشروع نقل الفلاحين (الموارنة) الذين يعملون في اراضيهم الى المناطق المارونية . وكان استجلاب الاقطاعي للشريك الذي يعمل عند غيره يؤدي الى نزاعات بين الاسر الاقطاعية (٩٠) .

أن هذه الوقائع الاخيرة تدل على وجود اشكال متعددة من تبعية الفلاح للاقطاعي تبعية اقطاعية .

لقد اتفق اكثر المعاصرين على ان العلاقة القنّية بين الفلاح والاقطاعي كانت معدومة في سوريا ولبنان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومع هذا فان مما لا جدال فيه وجود عدم المساواة في الحقوق بين الفئات الاجتماعية كشكل من اشكال تبعية الفلاحين للاقطاعيين في لبنان ، وقد كان هذا الشكل يتجلى في انعدام حقوق الفلاحين السياسية وانعدام التساوي امام المحاكم المدنية والجنائية وفي خضوع الفلاح للاحكام التي تصدرها محكمة سيده وفي ارهاقه بالضرائب الى الحد الاقصى (كان رجال الدين والاقطاعيون العلمانيون يتمتعون بامتيازات ضريبية) . وكان عدم المساواة بين فئة الفلاحين وغيرها من الفئات الاجتماعية في لبنان مدعوما بالكثير من التقييدات في الحياة العامة اليومية (من ناحية الملابس والاسلحة واسلوب التوجه الى الشخص وما الى هذا) .
وقد وصف الفلاحون وضعهم في بدء الحركة الفلاحية في الخمسينات من القرن التاسع عشر على لسان العقيقي الذي كتب يقول : « واما الرعايا فأخذوا يلهجون فيما بينهم عن هذا الصنيع معتدين ذواتهم انهم صاروا كالعبيد بيد المقاطعجية وما عاد لهم

---

٨٩ ـ أ. م. بيركينفيم ، الوضع الاقتصادي الراهن في سوريا وفلسطين م. ١٨٩٧ ، الصفحتان : ١٤ ـ ١٥ .

٩٠ ـ أسرخ « السفارة في القسطنطينية » ويصف لنا ك. م. بازيلي الصدام الذي جرى في آب عام ١٨٤٢ في قرية غزير بين المشايخ لان أحد الفلاحين ترك سيده « ليخدم سيدا اخر » .

قول ولا مشورة في شيء » (٩١) . ولكن آلى جانب عدم المساواة الطبقية بالنسبة لكلّ الفلاحين في لبنان فقد كان هناك شكل آخر من التبعية الاقطاعية اثقل من الاول منتشر بين بضع فئات من الشركاء الذين يطلق عليهم اسم « اهل سمية » او بين غالبية الشركاء (٩٢) . وكانت هذه الفئات تؤدي الخدمة العسكرية لدى الاقطاعي فضلا عن تقديم قسم من المحصول له وتزويده بالمنتوجات الزراعية والقيام بأعمال السخرة . كما كانت هذه الفئات تخضع كلية لراي الاقطاعي في اختيار نوع المزروعات وتنظيم الاستثمارة. وكان الاقطاعي هو الذي يحاكم هؤلاء الشركاء . كما ان حريتهم الشخصية كانت محدودة : اذ آن من الصعب عليهم ان يغادروا الارض ولا يحق لهم الزواج الا باذن من الاقطاعي . وكانت اوضاع التبعية الاقطاعية تنتقل بالوراثة (٩٣) ولم تكن مدعومة بالقوانين بل كانت تعتمد في وجودها على حكم العادة .

وهكذا فقد كان الفلاحون في لبنان يمثلون ككل فئة منقوصة الحقوق في المجتمع الاقطاعي . وكان ما يجعل اوضاع الفلاحين داخل هذه الفئة متباينة هو آن بعض الفلاحين كانوا يملكون الارض التي يعملون فيها وبعضهم يعمل كمستأجر-شريك عند الاقطاعي. وكان الفلاحون المالكون للارض اسميا لا يتمتعون بكامل الحقوق التي تتمتع بها الفئات الاخرى ولكنهم لم يكونوا مستبعدين شخصيا، اما الفلاحون الشركاء فقد كانوا لا يزالون تابعين لشخص الاقطاعي. في حين كان الفلاحون المالكون لقطع من الارض ليست كبيرة والمستأجرون لاراضي الاقطاعيين ، يشغلون مكانا متوسطا بين هاتين الفئتين . . وكان وضعهم الحقوقي على ما يظهر يجمع بين

---

٩١ — ثورة وفتنة صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ الى ١٨٧٣ بيروت ١٩٣٩ ، ص ٧٢ .

٩٢ — المصدر نفسه ٥٢ — ٥٤ .

٩٣ — I. Aouad, Le droit prive..., pp. 130-133.

كانت العادات القديمة في لبنان تقضي أن يدهن الطفل بعد ثلاثة أيام من ولادته بالزيت والآس (رمز الوداعة والقوة) وكان الامراء أصحاب المقاطعات يبعثون بالزيت والاس الى اسرة الشريك التي ولد فيها الطفل كناية عن ارتباط هذا الطفل بالاقطاعي .

عدم المساواة في الحقوق مع بقية الفئات وبين سمات التبعية الشخصية .

الضرائب والريع العقاري

كان الريع الاقطاعي في لبنان طبقا لاشكال ملكية الارض يتخذ اما شكل الريع — الضريبة التي تجبيها الدولة بصفتها المالك الاعلى للارض — والتي يعفي أصحاب المقاطعات منها جزئيا او شكل ريع يأخذه المالك من الشريك .

وكان نظام الضرائب في لبنان يتصف بسمات خاصة تميزه عن نظام الضرائب في سوريا وبقية مناطق الامبراطورية العثمانية. اما الاصلاحات التي اجرتها الحكومة العثمانية في نظام الضرائب خلال فترة التنظيمات فلم تمس في الواقع لبنان ، ولم تحدد الحكومة فيه سوى المقدار العام للجزية المجبية منه . ويرجح ان مقادير الضرائب التقليدية في لبنان قد بقيت على حالها حتى عام ١٨٦١ .

وكانت الضريبة الاساسية في البلاد هي المفروضة على الاشجار المثمرة آو الارض المزروعة وتدعى الاموال الاميرية أو الميرى واحيانا تدعى المال ونادرا جداً ما تدعى الخراج .

وكانت الاموال الاميرية تحدد بأشكال مختلفة .

ويخبرنا ك . ف . فولني ان الميرى كان يجبى من البساتين والكروم حسب عدد الاشجار بينما كان يجبى من الاراضي المزروعة حسب مساحة الحقل . ويذكر ك . ف فولني أن ضريبة كل شجرة (٩٤) توت في لبنان كانت تعادل ثلاثة مجيديات بينما كانت ضريبة المئة دالية قرشا واحدا . وقد لاحظ بوركهاردت بعد خمسين سنة وجود اسلوب مشابه في تقدير الضريبة المفروضة على الكروم في زحلة (٩٥) . بيد آن الضريبة المفروضة على أشجار التوت (وكان يطلق عليها اسم بزرية) كانت تتناسب مع كمية ما يتم الحصول عليه من خامات الحرير واوراق التوت . وكانت

---

٩٤ — C.-F. Volney, Voyage en Egypte en Syrie, vol. 2 pp. 192-193.

٩٥ — J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 29.

الاوراق تقدر بالاحمال ويتشكل الحمل الواحد عادة من اوراق ثماني او عشر اشجار . وكانت اصغر المزارع والتي تنتج من ١٠ الى اثني عشر حملا توفر الغذاء ليرقات اوقية من البيوض . ويقدر د . شيفاليه ان الميرى الذي كان يجبى في اواسط القرن التاسع عشر من اصحاب مزارع التوت التي يتراوح مدخولها من عشرة احمال الى اربعين حملا كان يتراوح بين قرشين وتسعة قروش سنويا (٩٦) . وقد وصف هـ . غيز بالتفصيل اسلوبا آخر من اساليب تقدير الميرى بما يتناسب مع مدخول الارض : « تدفع الضريبة على الارض المزروعة حسب مساحة الارض من الدراهم ويساوي الدرهم قطعة من الارض تتسع لبذر مد من القمح(حوالي تسعة كيلو غرامات) . وتوزع تبعا لنوعية ومدخول الارض فيفرض قرش واحد على مساحات تتراوح بين سبعة دراهم وعشرين درهما . وقد ازدادت هذه الضريبة في الوقت الحاضر الى ثمانية امثال ما كانت عليه في البدء وهي ترتفع الى الستة عشر مثلا اثناء المشقات » (٩٧) .

وقد لاحظ ك . م . بازيلي ايضا كيف كان يزداد الميري عمليا عما كان عليه في البدء . وكتب يقول : « تبعا للعادة القديمة في لبنان كانت الضريبة عبارة عن حجم الميري الذي فرض لاول مرة والذي يعتبر اساسا لنظام الضرائب مضاعفا عددا ما من المرات » (٩٨) . وخلال ذلك كانت المناطق المختلفة في لبنان تدفع احجاما مختلفة من الضرائب في الوقت نرفسه . (ففي بدء القرن التاسع عشر كانت زحلة تدفع مالا اميريا مضاعفا ومنطقة بعلبك تدفع ثلاثة امثال الحجم الاول للميري) (٩٩) .

---

٩٦ — D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires en 1858, p. 50.

٩٧ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 141.

وهكذا فان حجم الضريبة في راي غيمز يتحدد لا بالنسبة للحبوب فقط بل وبالنسبة للاشجار المثمرة أيضا . ويذكر ك. د. بيتكوفتش ان الضريبة المفروضة على الارض ظلت تتحدد حسب نظام الدراهم حتى خلال الثلث الاخير من القرن التاسع عشر « لبنان واللبنانيون » صفحة ١٥١ .

٩٨ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٩٩ — J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 61.

وقد كان حجم الميري في لبنان اقل منه في سهول سورية ومع ذلك فقد كان يكلف الفلاح ٢٥٪ من محصوله وربما كلفه احيانا نصف المحصول . كتب بوركهارت يقول : « لقد كانت نسبة حجم الضرائب المفروضة على خامات الحرير في لبنان تتراوح بين ٢٠ و ٢٥٪ من اصل المحصول — اما نسبة الضرائب المفروضة على الحبوب فتزيد عن خمسين بالمئة » (١٠٠) ويرى غيز ان نسبة ضريبة الميري في لبنان كانت تتراوح بين ١٥ بالمئة و ٢٥ بالمئة من اصل محصول الفلاحين (١٠١) .

وكان الميري في لبنان يجبى نقدا واحيانا كضريبة عينية حسب دفاتر الضرائب الريفية ، التي كانت توضع على اساس الاحصاءات المتكررة خلال فترات زمنية مختلفة . وكانت الضريبة المفروضة على الاشجار المثمرة تجبى عادة نقدا ، اما ضريبة الحبوب فتجبى عينيا .

ويقوم الشيخ المحلي بتوزيع الضريبة على القرية ، ويجبيها له اعوانه ليقدمها لصاحب المقاطعة او لجباة الضرائب الحكوميين . وفي حالة تأخر الدفع كانوا يرسلون الى القرية فصيلة من الجنود لتعيش عند الفلاحين وتفقرهم .

ويقول ك . م . بازيلي ان الضريبة في لبنان ظلت مقتصرة على الارض حتى انهاية القرن الثامن عشر (١٠٢) ، عندما فرض الامير يوسف الشهابي الجزية التي يدعونها في لبنان (الجوالي) . وكان مقدار الجزية التي تؤخذ من الرجال يتراوح بين خمسة وتسعة قروش وذلك حسب الوضع العائلي ومكان السكن (١٠٣) .

وليس لدينا مواد تثبت وجود ضرائب كانت مفروضة على المواشي في لبنان . ومن المعلوم ان الامير الحاكم قد فرض في نهاية القرن

---

١٠٠ — Ibid., p. 169.

١٠١ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 143.

١٠٢ — كتب ك. م. بازيلي يقول « في لبنان ، كما في سائر البلدان الاسيوية لم يكونوا قديما يعرفون سوى الضريبة المباشرة التي تفرض على مزارع توت القز والزيتون وهما النوعان الوحيدان من الاشجار المثمرة في لبنان . وحتى الخراج لم يكن يفرض على المسيحيين من اللبنانيين ... فقد فرض الامير في البدء جزية على بذرة دود القز ثم فرض الخراج ثم فرض الضرائب على المواشي والمطاحن وما شابه ذلك » « سوريا وفلسطين » ص ٦٣ .

١٠٣ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 140.

الثامن عشر ضرائب على المواشي . وتشير وثائق لبنان الشمالي في القرن الثامن عشر الى وجود ضريبة على سوق المواشي الى المراعي الصيفية وضريبة على ايوائها في اماكن معينة في الشتاء .

وعدا الضرائب النظامية كانت تفرض كذلك رسوم فوق العادة ، كتلك التي تذكرها كتب اخبار القرن الثامن عشر مثل جمع الاغذية والعلف للجنود (١٠٤) ، والضرائب المفروضة على العمائم والاخفاف والاقمشة المعدة من اجل المكاور (العمائم) (١٠٥) . والضريبة المفروضة على روث الماعز (كسماد) والمذكورة في شكوى اهالي شمالي لبنان في عام ١٨٤٤ وما شابه ذلك .

ومن آونة لاخرى كان اهالي لبنان ملزمين بالقيام بأعمال السخرة لصالح الدولة او لصالح الامراء اللبنانيين . وقد تضخمت هذه الاعمال في فترة السيطرة المصرية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، واصبحت تستغل في بناء الطرق والتحصينات وقنوات تحويل مجرى الماء والقصور وفي استخراج الثروات المعدنية . وكان يدخل ضمن أعمال السخرة تزويد المناجم بالاخشاب والأكياس ونقلها الى مكان بناء القلاع . وأحيانا يدفع مبلغ ضئيل من المال لقاء هذه الاعمال .

كما كانت الضرائب تفرض كذلك على فروع الصناعة المنزلية التي تحولت الى انتاج حرفي فقد فرض الامير بشير الضرائب على عجلات حل شرانق الحرير وعلى الطواحين وبيوض دود القز والمصانع (١٠٦) .

وعلاوة على الاتاوات والضرائب المباشرة كانت توجد رسوم غير مباشرة كالرسوم الجمركية والرسوم المفروضة على الموازين وعلى اسواق البيع والشراء (البازار) . الخ ..

كما كانت هناك فئة خاصة من الرسوم تتشكل من الغرامات والمبالغ التي تجبى لقاء فصل المحاكم في القضايا (فقد كان الحاكم يقبض لقاء الفصل في قضية مدنية نسبة خمسة بالمئة من اصل المبلغ المختلف عليه) ، والمبالغ المجبية لصالح رجال الدين الاسلام والمسيحيين (لقاء القيام بطقوس الختان والاعراس والدفن وما

---

١٠٤ — اسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٨ .

١٠٥ — طنوس الشدياق كتاب اخبار ... صفحة ٤١٠ .

١٠٦ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

شابه ذلك ...) كما كان الاساقفة يفرضون ضرائب باهظة خاصة (١٠٧) . وقد تحولت هدايا العيد التي كان الشيوخ يجبرون الفلاحين على تقديمها الى نوع مرهق جداً من انواع الرسوم (١٠٨) .

وهكذا فقد كان نظام الضرائب في لبنان يتناسب تماما مع طابع اقتصاده الاقطاعي : انعدام وحدة النظام الضرائبي ، سيادة الاشكال والاساليب التقليدية في جبي الاتاوات ، تغلب الرسوم المباشرة وعلى رأسها ضريبة الارض المزروعة (وبتعبير أدق ضريبة الاشجار المثمرة والارض المزروعة) التي تتراوح بين ربع ونصف المحصول ، التعسف في تحديد حجم الضرائب . وكانت الصفة التي تميز نظام الضرائب هذا هي عدم التساوي الطبقي في دفع الرسوم . فقد كتب ك . م . بازيلي يقول « ان الشيوخ ، والامراء ، والاشخاص الذين يخدمون لدى الدولة هم اشخاص ذوو امتيازات ، معفيون من الضرائب » (١٠٩) . وكان الحكام اللبنانيون يمنحون الاقطاعيين احيانا حق الحصانة الضرائبية (١١٠) . كما كان رجال الدين معفيين من الجزية والسخرة الحكومية وعدد من الرسوم (١١١) .

وقد ادت التغييرات الاقتصادية التي حدثت في البلاد منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى نمو الضرائب .

ففي السبعينات من القرن الثامن عشر بلغت الجزية التي كان يأخذها البشوات الاتراك من لبنان مئة وخمسين الف قرش وارتفعت في نهاية القرن نفسه الى ٦٠٠ الف (١١٢)، اما في نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر فقد وصلت الى مليونين وخمسمئة الف قرش . وقد جبت السلطات المصرية من لبنان حتى نهاية حكمها

---

١٠٧ — يذكر بوركهاردت ان ضرائب الاساقفة كانت تعادل نصف قرش عن كل رجل بالغ : (J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 28).

١٠٨ — « ثورة وفتنة .... » صفحة ١٧٨ .

١٠٩ — ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين ، اوديسا ١٨٦٢ ، الجزء الثاني ، الصفحة ١٤١ .

١١٠ — طنوس الشدياق « كتاب ... » صفحة ٣١٤ .

١١١ — I. Aouad, Le droit prive..., pp. 27, 29.

١١٢ — ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين في ظل الحكم التركي ، م ١٩٦٢ صفحة ٦٥ .

هناك حتى الثمانية ملايين وسبعمئة وخمسين الف قرشا (١١٣) .
وهكذا فمنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى عام ١٨٣٠ ازدادت الضرائب في لبنان بمعدل المرة ونصف المرة ، اما في عام ١٨٤٠ فقد ازدادت بمقدار خمس مرات مع اعتبار انخفاض سعر القرش . كما ان هناك شواهد اخرى على استفحال الاضطهاد الضرائبي في النصف الثاني عشر وبدء القرن التاسع عشر . وقد تجلى هذا في تقوية العسف والاكراه لدى جباية الضرائب .

وقد ادى الارتفاع الكبير في مقادير الاتاوات في الثلاثينات من القرن التاسع عشر اي في فترة السيطرة المصرية الى افقار الاهالي فأفقرت عشرات من قرى ولاية صيدا واضطر سكان المناطق الواقعة بين طرابلس وحماه الى الهجرة واصبح سكان عكار (شمالي لبنان) يعيشون في فقر وضنك (١١٤) .

ومنذ الثمانينات من القرن الثامن عشر تتكاثر الانباء في كتب الاخبار عن مقاومة اهالي لبنان لجباية الضرائب . اما في عام ١٨٢٠ فقد هبت في لبنان انتفاضة فلاحية مسلحة ، كما كان من اسباب انتفاضة الفلاحين في عام ١٨٤٠ ثقل عبء الضرائب المرهق . وغالبا ما كان الاقطاعيون يساندون هذه الحركات عندما كانوا يمتلكون اكثرية الاراضي ملكية مطلقة وكان تخفيض الضرائب يعود عليهم بالفائدة .

اما الشكل الثاني للريع في لبنان فقد كان عبارة عن المبلغ الذي يجنيه الاقطاعي من الشركاء الذين يعملون في ارضه . وكان هذا الريع يدفع عادة على شكل منتجات زراعية ، مع انه كان يلاحظ ميل بعض الاقطاعيين لاستبداله بريع نقدي او حتى بريع عمل وذلك بتأثير تطور العلاقات السلعية النقدية آنذاك .

ويذكر ك . اوركهارت بهذا الصدد ان رهبان دير مار حنا كانوا يرتدون سابقا ثيابا صوفية وقطنية من النسيج المنزلي يقدم الفلاحون موادها الخام للدير كريع اقطاعي . وقد وجد ك . ف فولني في هذا الدير فنا حرفيا متطورا واشار الى هذا بقوله « يزاول الرهبان انواعا من المهن الضرورية او المفيدة للدير . فأحدهم يعمل حائكا ويجهز الانسجة والثاني يعمل خياطا ويخيط

١١٣ — Adel Ismail, Histoire du Liban, t. IV, pp. 47-48.

١١٤ — Ibid., p. 45.

الثياب والثالث يعمل اسكافيا ويصنع الاحذية والرابع – ينحت الاحجار ويدير البناء » ثم يأتي على ذكر الطباخين والخبازين والطباعين والمجلدين وغيرهم (١١٥) . بيد ان الدير اصبح في الاربعينات يشتري الثياب المصنوعة من القطن الاميركي ثم يقوم الرهبان بصبغها باللون المناسب . والى جانب اعراض الدير عن الحرفة المنزلية التي تعتبر احدى دعائم الاقتصاد العيني ، فقد حول الدير فلاحيه الى الريع النقدي . ويشير ك . اوركهارت الى « ان الفلاحين كانوا مستعدين لتقديم القطن والصوف بكل رحابة صدر ولكن الرهبان كانوا يفضلون القروش » (١١٦) . بيد ان تغيير ريع المنتجات الزراعية لم ينتشر في لبنان وسوريا انتشارا واسعا: فقد ظلت الشراكة كالسابق تقوم على الريع العيني .

ان الطلب المتزايد على المنتجات الزراعية في السوق الخارجي وتدهور الاقتصاد الفلاحي قد جعلا بعض الاقطاعيين يميلون لايجاد اقتصادهم السلعي بالاستفادة من عمل السخرة . ان ك . م . بازيلي قد تحدث اكثر من مرة عن تطبيق ادخال السخرة . وقد كتب يقول : جرت العادة على ان يعمل الفلاحون في مزارع المشايخ والامراء والاديرة حسب مبدأ المناصفة « لكن العديد من النبلاء ذوي النفوذ المتوارث منذ القديم فرضوا عادة استغلال عمل الفلاحين في اراضيهم دون مقابل » . وقد ذكر في مكان اخر ان « الفلاحين مضطرون لتقديم عملهم في ارض الاسياد بالمجان تقريبا » (١١٧) .

ولكن ريع العمل ، شأنه شأن الريع النقدي ، لم يكن واسع الانتشار في لبنان .

وقد اخذت المشاركة بشكلها المجرد تكتسب معنى اجتماعيا جديدا بالتدريج في الظروف الاقتصادية الجديدة . واخذ الشريك يتحول بالتدريج الى عامل زراعي .

ولكن هذه العملية كانت تجري ببطء شديد ، وليس بين ايدينا للاسف مواد كافية عن المشاركة لكي نرصد هذا التحول

١١٥ — C.-F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, vol. 2., p. 326.

١١٦ — D. Urquhart, The Lebanon..., vol., II, p. 7.

١١٧ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

وليس باستطاعتنا سوى الاشارة الى بعض سماته .

تدل كتابات هـ . غيز و ك . د بيتكوفتش و أ م . بيركينففيم على أن نوع المشاركة الذي آخذ ينتشر اكثر من غيره في القرن التاسع عشر هو الاستئجار لمدة قصيرة والذي لا يعطي الشريك اي حق في امتلاك الارض بل يتركه معرضا للطرد من الارض متى اراد مالكها ذلك . ولم يقتصر الامر على حرمان الفلاح من حق ملكية الارض في فترة تهدم الفلاحين وترديهم في هوة العوز في القرن التاسع عشر بل كان الفلاحون يفقدون ادوات العمل الزراعي وحيوانات الجر كذلك . وكان الاقطاعي اللبناني يقدم لمثل هؤلاء الفلاحين الارض والادوات وغالبا ما يضيف اليها الحيوانات والبذور . وعلاوة على ذلك فقد كان الاقطاعي يقدم للفلاح في الغالب منزلا للسكن ويسلفه مبلغا من المال . ولقاء هذا كان الفلاح مضطرا للرضى بالحصة الدنيا من المحصول المجنى . وبهذا كانت تتداخل وتتشابك اشكال الاستثمار الاقطاعي والاستثمار الرأسمالي .

بيد أن تغيرات اشكال الريع بقيت ظواهر مفردة ، وكان السبيل الرئيسي لزيادة دخل الاقطاعي هو الاستيلاء على ارض الفلاح وتحويله الى شريك .

وضع الفلاحين

كانت القرى في لبنان تتمركز في الجبال بالقرب من منابع المياه حيث توجد الاراضي الصالحة للزراعة . وكانت بعض القرى تتألف من خمسة أو ستة بيوت ، ويصل عدد بيوت البعض الاخر حتى الثمانين بيتا . وكانت القرى الكبيرة تنقسم الى احياء تربط بين سكانها قرابة الدم ، وتشغل كلا منها اسرة ابوية كاملة تدعى بالبيت . واحيانا كانت تحتل الحي عشيرة مؤلفة من اقارب تجمعهم صلة قرابة واسعة .

وكانت الاراضي المشتركة ، والنظام الموحد للاستفادة من الارض ومنشآت العمل العامة ، وعادة التعاون المتبادل تربط بين سكان القرية ربطا وثيقا .

وقد كانت تلحق بكل قرية مساحة معينة من الارض . وتصادف في كتب الاخبار عبارات مثل « في ارض قرية يارون »

« قرب ارض السعديات » وما شابه ذلك (١١٨) .

وكانت الارض تستعمل حسب نظام تقليدي يتناسب مع المصلحة الاقتصادية .

كما كانت مقسمة الى مدرجات او جلول (الجل عبارة عن قطعة من الارض مفلوحة بعمق وجيدة التسميد ومحاطة بحيطان حجرية ، وعادة ما تكون متمركزة قرب القرية وتزرع بأشجار التوت والتبغ) وكروم (وهي اراض قليلة السماد وغير مروية ويزرع فيها العنب والاشجار المثمرة) وسليخ (وهي أراض عذراء او بور بعيدة عن القرية وتزرع بالحبوب) وقلع (وهي اراض صخرية غير مستوية وصعبة المنال على الزارع ينبت فيها الصنوبر الايطالي وشرابة الراعي والصنوبر البري وتستعمل للرعي او الاحتطاب ولغرس الاشجار المثمرة التي لا تحتاج الى عناية كبيرة. وكان اصحابها يزرعونها بالزيتون اذا توفرت لديهم الوسائل اللازمة) . وكان القسم الاعظم من هذه الارض ملكا لافراد معينين.

والقسم الباقي ملك للقرية بأجمعها وهو ما يسمى بالمشاع اي الاراضي المشاعة ، وكان يدخل ضمنها الاراضي الصخرية الموات ، والاراضي المغطاة بالاعشاب والمراعي والغابات وكلها تستعمل تحت اشراف مجلس القرية . وكانت مراعي القرية تستغل من قبل اهلها انفسهم لرعي مواشيهم فيها ولكنهم كانوا احيانا يتخلون عنها لقاء مبلغ معين للغرباء من اصحاب قطعان الماعز الذين يسوقون قطعانهم في الصيف الى الجبال . وكانت القرى التي تملك المشاع والغنية بأشجار الصنوبر البري تبيع الاخشاب لاهالي المناطق الاخرى مرة واحدة خلال مدة تتراوح بين العشر سنوات والثلاثين سنة . اما مداخيل المشاع فقد كانت تعود على سكان المنطقة (ولا يذكر انيس فريحة كيف كان يجري التوزيع) .

وكان فلاحو القرية يستعملون جماعيا بيدر درس القمح الذي الذي ربما كان ملك واحد منهم كما كانوا يبنون المنحل ويستعملونه جماعيا ـ وهو مكان دافىء من آجل تفقيس بيوض دودة القز . وكانت عادة التعاون المتبادل في بعض الاعمال منتشرة بين سكان القرية (مثلا عند جمع وتصنيف شرانق الحرير) .

١١٨ ـ طنوس الشدياق كتاب .... صفحة ١٤٦ و ٣٦٨ .

وليس باستطاعتنا سوى الاشارة الى بعض سماته .

تدل كتابات هـ . غيز و ك . د بيتكوفتش و أ م . بيركينففيم على أن نوع المشاركة الذي أخذ ينتشر اكثر من غيره في القرن التاسع عشر هو الاستئجار لمدة قصيرة والذي لا يعطي الشريك اي حق في امتلاك الارض بل يتركه معرضا للطرد من الارض متى اراد مالكها ذلك . ولم يقتصر الامر على حرمان الفلاح من حق ملكية الارض في فترة تهدم الفلاحين وترديهم في هوة العوز في القرن التاسع عشر بل كان الفلاحون يفقدون ادوات العمل الزراعي وحيوانات الجر كذلك . وكان الاقطاعي اللبناني يقدم لمثل هؤلاء الفلاحين الارض والادوات وغالبا ما يضيف اليها الحيوانات والبذور . وعلاوة على ذلك فقد كان الاقطاعي يقدم للفلاح في الغالب منزلا للسكن ويسلفه مبلغا من المال . ولقاء هذا كان الفلاح مضطرا للرضى بالحصة الدنيا من المحصول المجنى . وبهذا كانت تتداخل وتتشابك اشكال الاستثمار الاقطاعي والاستثمار الرأسمالي .

بيد أن تغيرات اشكال الريع بقيت ظواهر مفردة ، وكان السبيل الرئيسي لزيادة دخل الاقطاعي هو الاستيلاء على ارض الفلاح وتحويله الى شريك .

وضع الفلاحين

كانت القرى في لبنان تتمركز في الجبال بالقرب من منابع المياه حيث توجد الاراضي الصالحة للزراعة . وكانت بعض القرى تتألف من خمسة او ستة بيوت ، ويصل عدد بيوت البعض الاخر حتى الثمانين بيتا . وكانت القرى الكبيرة تنقسم الى احياء تربط بين سكانها قرابة الدم ، وتشغل كلا منها اسرة ابوية كاملة تدعى بالبيت . واحيانا كانت تحتل الحي عشيرة مؤلفة من اقارب تجمعهم صلة قرابة واسعة .

وكانت الاراضي المشتركة ، والنظام الموحد للاستفادة من الارض ومنشآت العمل العامة ، وعادة التعاون المتبادل تربط بين سكان القرية ربطا وثيقا .

وقد كانت تلحق بكل قرية مساحة معينة من الارض . وتصادف في كتب الاخبار عبارات مثل « في ارض قرية يارون »

« قرب ارض السعديات » وما شابه ذلك (١١٨) .

وكانت الارض تستعمل حسب نظام تقليدي يتناسب مع المصلحة الاقتصادية .

كما كانت مقسمة الى مدرجات او جلول (الجل عبارة عن قطعة من الارض مفلوحة بعمق وجيدة التسميد ومحاطة بحيطان حجرية ، وعادة ما تكون متمركزة قرب القرية وتزرع بأشجار التوت والتبغ) وكروم (وهي اراض قليلة السماد وغير مروية ويزرع فيها العنب والاشجار المثمرة) وسليخ (وهي أراض عذراء او بور بعيدة عن القرية وتزرع بالحبوب) وقلع (وهي اراض صخرية غير مستوية وصعبة المنال على الزارع ينبت فيها الصنوبر الايطالي وشرابة الراعي والصنوبر البري وتستعمل للرعي او الاحتطاب ولغرس الاشجار المثمرة التي لا تحتاج الى عناية كبيرة . وكان اصحابها يزرعونها بالزيتون اذا توفرت لديهم الوسائل اللازمة) . وكان القسم الاعظم من هذه الارض ملكا لافراد معينين .

والقسم الباقي ملك للقرية بأجمعها وهو ما يسمى بالمشاع اي الاراضي المشاعة ، وكان يدخل ضمنها الاراضي الصخرية الموات ، والاراضي المغطاة بالاعشاب والمراعي والغابات وكلها تستعمل تحت اشراف مجلس القرية . وكانت مراعي القرية تستغل من قبل اهلها انفسهم لرعي مواشيهم فيها ولكنهم كانوا احيانا يتخلون عنها لقاء مبلغ معين للغرباء من اصحاب قطعان الماعز الذين يسوقون قطعانهم في الصيف الى الجبال . وكانت القرى التي تملك المشاع والغنية بأشجار الصنوبر البري تبيع الاخشاب لاهالي المناطق الاخرى مرة واحدة خلال مدة تتراوح بين العشر سنوات والثلاثين سنة . اما مداخيل المشاع فقد كانت تعود على سكان المنطقة (ولا يذكر انيس فريحة كيف كان يجري التوزيع) .

وكان فلاحو القرية يستعملون جماعيا بيدر درس القمح الذي الذي ربما كان ملك واحد منهم كما كانوا يبنون المنحل ويستعملونه جماعيا ـ وهو مكان دافىء من أجل تفقيس بيوض دودة القز . وكانت عادة التعاون المتبادل في بعض الاعمال منتشرة بين سكان القرية (مثلا عند جمع وتصنيف شرانق الحرير) .

---

١١٨ ـ طنوس الشدياق كتاب .... صفحة ١٤٦ و ٣٦٨ .

وقد كتب د . اوركهارت الذي زار جبل لبنان في الاربعينات من القرن التاسع عشر في معرض وصفه لاقتصاد الفلاح اللبناني: « ... أن كل بيت يملك عددا من الاغنام وحيوانات للجر وبستانا للثمار (يربي فيه دودة القز – ملاحظة من المؤلفة –) وحديقة وكرما ومسكبة على الاقل ان لم يكن لديه حقل . ويوجد في كل مبنى معصرة للزيتون ومحراث ، ومعصرة للعنب ومقص لجز الاغنام وسكين للبستنة وآلة نسيج ومغزل ورفش . كما يوجد خابية للدبس في المطبخ ووعاء نحاسي للصباغ » (١١٩) وبالاضافة الى هذا يجب ان نذكر عدة الكدن والرحى والمذراة ... وما الى هذا.

وكانت الاعمال الزراعية تبدأ مع انقطاع الامطار الشتوية في شهر شباط اما في القرى الجبلية فبعد ان يذوب الثلج الذي يتراكم في الشتاء على ارتفاع يزيد عن الف ومئتي متر فوق سطح البحر . وكان الموسم الزراعي يبدأ عادة بتشذيب الكروم والاشجار المثمرة ، وبفلاحة الكروم والاراضي المزروعة بأشجار التوت والمزروعات الربيعية فلاحة ثانية (الفلاحة الاولى تجري في الخريف بعد الامطار الاولى) وفي اذار ونيسان تبذر المزروعات الربيعية (الذرة والذرة الشامية والفول وما شابه ذلك) وتغرس الخضار وتعشيب ارض المزروعات الشتوية (القمح والشعير) . وفي النصف الثاني من نيسان وخلال شهر آيار يفرخ دود القز ويبدأ العمل الشاق لاطعام اليرقة ويستمر هذا حتى حزيران – تموز حيث تتشكل الشرانق . ثم يجري ري المزارع وحقول القمح . ومنذ نهاية ايار وحتى تموز كان يجري الحصاد والدراس والتذرية بمقدار نضج المزروعات الخريفية . وفي تموز يبدأ جمع الثمار والعنب ، ثم يبدأ في اب جني الثمار الربيعية . وبعد الامطار الخريفية الاولى في تشرين الثاني تجري الفلاحة الاولى وبذر المزروعات الخريفية . اما في الشتاء فيقوم الفلاحون باصلاح الصواوين ومجاري المياه .

ان المستوى العالي (بالنسبة للقرية الاقطاعية) لاساليب الزراعة التكنيكية وبنية الاقتصاد المعقدة نسبيا واستعمال الارض بحذق وتعقل الى حد لا بأس به قد جعلت استثمارة الفلاح اللبناني احسن حالا من استثمارة الفلاح السوري الذي يعتمد على زراعة

— ١١٩ D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 3.

الحبوب . وقد انعكس هذا على وضع الفلاح في لبنان . فقد كان رحالة القرن الثامن عشر وبدء القرن التاسع عشر يلاحظون ثبات دعائم الوضع الاقتصادي في القرية اللبنانية وكانت الظروف السياسية احد العوامل المساعدة على هذا .

منذ نهاية القرن الثامن عشر بدأت اوضاع الفلاح اللبناني بالتدهور بسبب تطور العلاقات – السلعية النقدية وتعاظم الضرائب . وقد اصبح الفلاح نتيجة خراب الاقتصاد الطبيعي في تبعية للسوق وتذبذباته وفريسة للاستغلال الربوي – التجاري .

ويحدثنا د . اوركهارت عن ضنك العيش الذي كانت تعاني منه غالبية الفلاحين اللبنانيين ، كما يصف لنا البيت الذي اضطر الى قضاء ليلته فيه ، بأنه بناء ضيق كبيت للسكن ولا يوجد فيه سوى الاواني الفخارية وليس فيه طيور داجنة أو مواشي . ويتغذى اهل القرية « بالزيتون والخبز ...وتتألف جراية الانسان البالغ من عشر زيتونات وهم يرتدون الاسمال ويعيشون كلهم في فقر وعوز ما عدا بعض المشايخ . » ويستطرد د . اوركهارت قائلا ان بقية القرى في تلك المنطقة ليست احسن حالا من هذه القرية ان لم تكن اسوأ منها » (١٢٠) .

وماكاد يهل منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت أكثرية استثمارات الفلاحين في لبنان على شفا الانهيار والافلاس . ان فرض الضرائب الاضافية والقحط وارتفاع اسعار بيض دود القز قد كانت في تلك الظروف سببا في انتشار الجوع والافلاس وافتقار القرى .

وهكذا فان تحليل التطور الاقتصادي – الاجتماعي في لبنان منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى السنوات الستين من القرن التاسع عشر يدل على ان أسلوب الانتاج الاقطاعي المسيطر في البلاد قد بدأ يتفسخ تحت تأثير العلاقات السلعية – النقدية الآخذة في التطور والعلاقات البورجوازية الناشئة . وقد رافق تفسخ النظام الاقطاعي احتداد التناقضات الداخلية .

واخذت الحكومة الاقطاعية والطبقة الاقطاعية الساعيتان للتكيف مع الظروف الاقتصادية الجديدة بتشديد استثمار الفلاحين اما عن طريق تقوية الاضطهاد الضرائبي أو عن طريق الاستيلاء على أراضي الفلاحين وتحويل أصحابها الى شركاء . ان ازدياد الاضطهاد

— ١٢٠ Ibid., pp. 233, 234.

الاقطاعي واستفحال الاستثمار الربوي ــ التجاري كانا سببــا في تدهور أوضاع الفلاحين في لبنان .

وقد ادت الخطوات التي خطاها الاقتصاد اللبناني آلى الامام الى تغييرات في بنية السكان الطبقية. فقد تشكلت فئات اجتماعية جديدة وتحول التجــار والمرابون واصحــاب الورشات الحرفيــة والمانيفاكتورات في ظروف نشوء الرأسمالية الى بورجوازيي ريف ومدينة . وكان العمــال المياومون والاجــراء الزراعيون وعمــال المانيفاكتورات يشكلون الفئات التي ستتشكل منهــا البروليتاريا فيما بعد .

وكان التطور آلحر للعلاقات السلعية ــ النقدية والبورجوازية يتطلب الحرية في انتقال السكان والمبادرة فــي المجال الاقتصادي وضمــان الملكيــة والحقــوق الشخصيــة وآلمساواة الاجتماعيــة وتشريعات جديدة ونظاما قضائيا جديداً ثم في النهــاية أشكالا ديمقراطية جديدة للحياة الاجتماعية . ولم يكن لكل هذه الامــور وجود فعلي في لبنان . فقد كانت آلفئات الاقطاعية هي المسيطرة سياسيا واقتصاديا في البلاد ، اما بقية الفئات من السكان فقــد كانت منقوصة الحقوق طبقيا ، وكان قسم من الفلاحين في تبعية للاقطاعي اما شخصية او بسبب الارض وكان اعيان الريف والتجار والحرفيون واصحاب المانيفاكتورات في زحلة ودير القمر في تبعية للاقطاعيين الذين يعيشون في اراضيهم مــن الناحيــة الاداريــة والقضائية والضرائبية . ان كل هذه الامور كانت سببا في نشوء تناقضات طبقية حادة ومقدمة للحركة الشعبية المناوئة للاقطاعية في لبنان منتصف آلقرن التاسع عشر .

الفصــل الثــاني

المقدّمات السّياسّية لنهُوض الحَركَةِ المُناوِئَة للاقطاعِيَّة

* عصيان عام ١٨٤٠ في لبنان
* إعادة الحكم التركي الى سوريا

المقدمات السياسية لنهوض الحركة المناوئة للاقطاعية

ان الحركة الشعبية المناوئة للاقطاعية التي ابتدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر في لبنان بلغت اوجها ما بين السنوات الاربعين والخمسين من القرن التاسع عشر .

كان لبنان في نهاية القرن الثامن عشر عبارة عن امارة شبه مستقلة ضمن الامبراطورية العثمانية . وكانت اراضيه تضم جبل لبنان والساحل في منطقة جبيل وسهل البقاع ولبنان الشرقي(١). وكان الامير الحاكم تابعا للسلطان ويستلم خلعة الولاية التي تخوله حق الحكم (وهي عبارة عن قفطان يقدم للامير كهدية كما يذكر ك. م. بازيلي) من باشا صيدا . وكان الباشا يحدد مقدار الجزية

---

١ — كان لبنان المتوسط عبارة عن مقاطعة الامراء الحاكمين الاصلية التي أعطيت لهم منذ عهد الحروب الصليبية . وقد أعطاهم باشا طرابلس شمال لبنان ومنطقة جبيل وأعطاهم باشا دمشق سهل البقاع . ولهذا كان اقطاعيو لبنان الشرقي يعترفون بتبعيتهم للامراء اللبنانيين .

المفروضة على لبنان . ولم يكن هناك اية اتفاقيات فعلية بين البشوات والامراء . وكانت اوضاع البلاد ضمن رقعة الامبرآطورية – حجم المساحة الخاضعة لحاكم لبنان ودرجة استقلال الامراء في السياسة الداخلية والخارجية ومقدار الجزية – تتحدد حسب توزع القوى بين الامراء الحاكمين والبشوات الاتراك .

وفي بداية القرن السابع عشر ، اي في فترة حكم الامير فخر الدين الثاني المعني (١٥٩٠ – ١٦٣٥) كاد لبنان ان ينال الاستقلال، وكان اميره يطبق سياسة مستقلة في الداخل والخارج . ولكن بعد سقوط فخر الدين الثاني تدهورت الاوضاع في البلاد تدهورا كبيرا . وكانت منطقة لبنان المتوسط (الشوف) تكاد لا تخضع لسلطة الامراء الحاكمين . ولكن مع ازاحة الاسرة الحاكمة (٢) وانتصار الامراء الشهابيين المدعومين من القيسية الاقطاعية في المعركة التي جرت قرب عين دارة عام ١٧١١ ، بدأ الحكم الذاتي في جبل لبنان يتوطد بالتدريج . واخذت تتوسع من جديد رقعة الارض الخاضعة لسلطة الامراء . وقد طبق اخر الامراء الشهابيين بشير الثاني (١٧٨٨ – ١٨٤٠) سياسة داخلية مستقلة وقام بمحاولات لانتهاج سياسة خارجية مستقلة .

وكان التنظيم السياسي في داخل لبنان يقوم على اساس البنية الهرمية في ملكية الارض . فعلى رأس الادارة كان يقف الامير الحاكم من آل شهاب وتوكل السلطة المحلية الى اتباعه من اصحاب المقاطعات الذين يخضع لهم حكام القرى – اي المشايخ الريفيون . ولم يكن يوجد في لبنان جهاز خاص بالسلطة الحكومية. فقد كان موجه الامير او الكيخيا (*) (وهو بمثابة رئيس الخدم) يقوم بدور الوزير الاول وكان الامير يوكل شتى الاعمال في ادارة البلاد الى اقاربه او اتباعه .

ولم يكن لدى الحاكم اللبناني جيش دائم سوى حرسه الخاص . وكان في حالات الضرورة يستدعي فرقة شعبية من

---

٢ – في عام ١٦٩٧ مات اخر ممثل لآل معن وورثه أمير من آل شهاب تجمعه به صلة قرابة من ناحية الام .

(*) – او من كان يسمى بمدبّر الامير – ملاحظة من المعرّب .

المتطوعين مؤلفة من فصائل الفلاحين المنتمين لشتى المقاطعات (٣) وكان نظام الدعوة يتيح جمع عدد من المحاربين في دير القمر يصل حتى الخمسة عشر الفا خلال ثلاثة ايام .

ان هذه السمات وامثالها التي اتصف بها التنظيم السياسي داخل لبنان قد طبعت بطابعها تطور الحركات الشعبية في هذا البلد . وأن مساهمة الفلاحين في الذود عن الحكم الذاتي في لبنان تفسر لنا احتفاظ جبل لبنان حتى في القرن الثامن عشر بتلك الظاهرة السياسية التي لم تكن معروفة في مناطق سوريا وفلسطين السهلية المجاورة وهي الدعوة لعقد الاجتماعات الشعبية (٤) .

ومع ان هذه الاجتماعات قد فقدت اهميتها في مشارف

---

٣ – يكتب ك. ف. فولني بهذا الصدد « لا الامير الاكبر ولا بقية الامراء يملكون جيشا : وليس لديهم سوى أناس الخدمة البيتية وبعض عبيد سود . فاذا ما نشبت الحرب فان كل رجل ، شيخا كان أم فلاحا ، قادر على حمل السلاح يستدعى للقتال . وعندها يأخذ كل واحد كيسا صغيرا من الدقيق وسلاحا وبضع طلقات وقليلا من البارود المصنوع في القرية ويتوجه الى المكان الذي عينه له الحاكم » :

(C.-F. VOLNEY, voyage en Egypte et en Syrie, vol. 2. pp. 194, 196).

٤ – يقول فولني : كان الامراء في حالة اعلان الحرب أو السلام وزيادة الضرائب يدعون لاجتماع شعبي عام يستعرضون فيه الاوضاع . ويعتقد ك. فولني: ان حق التصويت في هذه الاجتماعات كان يتمتع به كل شيخ وكل فلاح يتمتع بالاحترام بفضل عقله وشجاعته . وربما كان فولني يبالغ في تقدير أهمية هذه الاجتماعات ودور الفلاحين فيها . ولا يذكر طنوس الشدياق في كتاب اخباره مثل هذه الاجتماعات سوى مرة واحدة عندما « جمع الامير منصور امراء البلاد واعيانها واكابرها وباقي اهلها » لكي يعلن تنحيته عن السلطة (طنوس الشدياق ، كتاب .... صفحة ٣٨٦) . واستنادا الى هذا الخبر الذي يذكره طنوس الشدياق يمكن الحكم بان الحاضرين لم يكن لهم أي دور فعال في الاجتماع . ان ك. م. بازيلي يتحدث ايضا عن اجتماع شبيه بهذا عقد لاسباب اخرى . وقد استقى الكاتب معلوماته في هذا المضمار من تاريخ آل شهاب وبسترس (ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ، صفحة ٦٣) .

القرن التاسع عشر فانها عملت على توطيد اهتمام الفلاحين بالحياة الاجتماعية مما ساعد فيما بعد على تطور وعيهم السياسي . وبفضل اشتراك الفلاحين اللبنانيين في فرق المتطوعين الشعبية اصبحوا يملكون سلاحا وتكونت لديهم خبرة في القتال المسلح مما جعل الانتفاضات الفلاحية على درجة كبيرة من التنظيم .

وقد اتصفت سنوات حكم بشير الثاني ببعض التغييرات في حياة لبنان السياسية ، انعكست بدورها على الحركة الشعبية . لقد قام الامير بشير الثاني باولى المحاولات لمركزة الادارة في البلاد . وجرد بعض اصحاب المقاطعات من السلطة السياسية واستبدلهم بموظفين (كانوا عادة من اقاربه) وعين القضاة وأوكل اليهم جزءا من الاعمال القضائية التي كانت سابقا من اختصاص اصحاب المقاطعات ومع ان نزعة المركزة في سياسة الامير بشير لم تؤد الى تنظيم الجهاز الحكومي لادارة لبنان فان الامير الحاكم قد خطا رغم ذلك الخطوات الاولى نحو نسف نفوذ الارستقراطية الاقطاعية الامر الذي خلق الظروف المؤاتية لتطور الحركة المناهضة للاقطاعية .

وقد عمل الامير بشير على تطوير الزراعة وبنى الطرق ووجه الاهتمام لضمان سلامة التنقل داخل البلاد ، مما سهل تطور العناصر البورجوازية في المجتمع اللبناني من تجار ومرابين واصحاب ورشات ومانوفاكتورات ، وقد قام هؤلاء في نهاية حكم الامير بشير بأولى محاولاتهم للاشتراك في حياة البلاد السياسية.

لم ينهج الامير بشير الثاني السياسة الدينية التقليدية التي كان عليها اسلافه . فقد كان الامراء الشهابيون يعتنقون الدين الاسلامي . وكان الاقطاعيون الدروز طوال مدة حكم آل شهاب يتمتعون بمركز السيادة (٥) ، بينما احتاج الامير بشير الثاني في نضاله ضد النزعة نحو التكتل والاستقلال لدى الارستقراطية الدرزية (بصفتها الطائفة الاقوى) الى مساندة الاقطاعيين ورجال الدين الموارنة (٦) .

وقد تحولت الكنيسة المارونية في بداية القرن التاسع عشر الى مالك اقطاعي ضخم للارض وانتشر نفوذها انتشارا كبيرا بين

---

٥ — يشكل الدروز فرقة من الفرق الاسلامية .

٦ — الموارنة مسيحيون ذو عقيدة خاصة قريبة من الكاثوليكية .

الاهالي الموارنة الذين يفوقون الدروز عددا . بيد ان دورها السياسي في البلاد لم يكن يتناسب مع وضعها . فالرتبة الدينية العليا لم تكن تعطي حقا في الملكية الاقطاعية المشروطة ولم يكن رجال الدين (باستثناء الحالات التي يكونون فيها من الارستقراطيين) يتمتعون بامتيازات اصحاب المقاطعات : السلطة الادارية على السكان والحق في جباية الضرائب . وغالبا ما كان رجال الدين انفسهم في تبعية لصاحب المقاطعة تجعلهم يضيقون ذرعا بهذا الوضع مما دفعهم لتأييد سياسة بشير الثاني الرامية الى الحد من نفوذ الارستقراطية الضخمة .

وبما ان اقتصاد الاديرة كان عادة يرتبط بالسوق ارتباطا اوثق من ارتباط اراضي الاقطاعيين به فان رجال الدين كان من مصلحتهم خلق ظروف مناسبة لتطور التجارة دونما عائق ، الامر الذي لا يمكن تحقيقه الا عند جعل السلطة في البلاد مركزية .

وقد عمد الامير بشير لاعتناق المسيحية واعطاء امتيازات للسكان المسيحيين وذلك لتوطيد الكسب الذي حققه في نوال تأييد رجال الدين والسكان الموارنة . وقد دفعه الى هذا ايضا العلاقات الاقتصادية والسياسية المتنامية بين لبنان واوروبا . وكان من نتيجة هذا ازدياد الوزن السياسي لرجال الدين والاقطاعيين الموارنة في البلاد مما اثار صراعا حادا بين فئتي الدروز والموارنة داخل الطبقة الاقطاعية . وقد لعب هذا دورا في استفحال الصدام بين الدروز والموارنة وخلق الوضع السياسي الذي تطور فيه النضال المناهض للاقطاعية ما بين السنوات الاربعين والخمسين من القرن التاسع عشر .

وقد كان المسبب المباشر للتحركات الفلاحية الاولى هو السياسة المالية التي كان يتبعها البشوات الاتراك والامراء الحاكمون في وقت ساءت فيه حالة الفلاحين الاقتصادية من جراء ازدياد الاستثمار الربوي — التجاري والحرمان من الارض .

ومنذ الربع الاخير من القرن الثامن عشر تتواتر بكثرة انباء حركات فلاحي لبنان ضد الاقطاعية .

فضمن حوادث عام ١٧٨٢ يكتب طنوس الشدياق ما يلي :

« وفيها « اي في هذه السنة — المعرب » احدث الامير الحاكم (يوسف شهاب — المؤلفة) مالا على التوت فجعل على كل مطعم اوقية بذر من القز خمسة غروش فهيج أخواه الجنبلاطية ضده

فحضر الجنبلاطية الى السمقانية (قرية قرب دير القمر — المؤلفة) واجتمع اليهم جماعة واظهروا عدم القبول بذلك . ثم حضروا اتجاه دير القمر عازمين على طرد الامير من الولاية وقتل مدبره الشيخ سعد فجعلوا يطلقون البارود ويكثرون العجيج والضجيج — فأرسل إليهم الامير يعدهم بابطال هذا الطلب ويسكن هياجهم فخمدت نارهم وانفضوا كل الى مكانه » (٧) .

وفي عام ١٧٨٤ فرض الامير يوسف على كل رجل غرشين كضريبة على شاشية العمامة (ووجه لجبايتها الامير مراد منصور فأنفت الناس من دفعها واجتمعوا في خان الحصين واتفقوا على عدم دفعها وطردوا الامير مرادا من الشويفات (قرية كبيرة — المؤلفة) (*) واهانوا خدمه (٨) .

وقد كان عام ١٧٩٠ عام صدامات جديدة بين الشعب والاقطاعيين . وتحدثنا كتب الاخبار عن طرد جباة الضرائب من القرى وعن المعارك بين الشعب وعساكر الجزار باشا المدعوم من قبل الامير الحاكم (٩) . وقد حدثت حوادث مشابهة في اواخر العقد العاشر من القرن الثامن عشر .

ولكن العصيان الفلاحي الذي يفوق ما سبقه اهمية هو الذي اندلعت شرارته في عام ١٨٢٠ (١٠) . ومنذ بداية القرن التاسع عشر خيم الاستقرار بعض الشيء على لبنان ضمن الامبراطورية العثمانية وتوطدت السلطة المركزية داخل البلاد .

وقد بنى الامير بشير قصرا فخما في بتدين (بيت الدين) وشق طريقا الى هناك واحاط نفسه بحاشية كبيرة وأخذ يجتذب

٧ — طنوس الشدياق كتاب صفحة ٤٠٥ . الاوقية : ١٠٢ درهما أو ٣٧،٤٤ غراما .

(*) وهي تقع جنوب شرقي بيروت (ملاحظة من المعرّب) .

٨ — المصدر نفسه ، صفحة ٤١٠.

٩ — يكتب الشدياق في « كتاب أخباره » أما أهل المتن فاتفقوا برأي واحد مع باقي أهل البلاد على قتال عساكر الجزار . (صفحة ٤٢٩) .

١٠ — راجع بهذا الصدد « كتاب أخبار ... » لطنوس الشدياق ٤٩٨ — ٥١٢ . ونبذة تاريخية لمنصور الحتوني صفحة ١٩٩ — ٢٠٤ . والعاميات الشعبية في ابنان ليوسف خطار الحلو ، بيروت ١٩٥٥ .

الى بلاطه الشعراء المداحين والادباء والمؤرخين وينعم عليهم (١١) .

وقد كان بناء القصر والاحتفاظ بفرق مسلحة وحاشية يحتاج الى اموال كثيرة . ولهذا بدأ الامير باستغلال عمل الفلاحين الاكراهي على اوسع نطاق وبزيادة الضرائب . وقد تعززت في زمانه جباية ضريبة المال **الاميري** (*) عدة مرات في العام .

وفي عام ١٨٢٠ فرض الباشا التركي حقيعبد الله على **لبنان** جزية اضافية بمقدار الفي كيس . ووجه جيشا الى حدود لبنان وأمره بالقبض على **اللبنانيين** الذين جاؤوا لبيع خامات الحرير وشراء الاغذية في المدن الساحلية وابقائهم كرهائن . وبعد المحادثات والمفاوضات الفاشلة اضطر الامير بشير لارسال جباة الضرائب الى المناطق المسيحية الوسطى (المتن) والشمالية من البلاد لجمع المال **الاميري** مرة ثانية .

فرفض أهالي المتن دفع الضريبة وأرسلوا الخيالة الى كسروان لدعوة أهله الى أن يحذوا حذوهم . وانعقد في انطلياس اجتماع فلاحي أقسم حاضروه على أنهم لن يدفعوا الجزية والمال **الاميري** سوى مرة واحدة في العام (مال واحد وجزية واحدة) .

وقد انتخبت كل قرية وكيلا لتنسيق الاعمال ، وتوجه الخيالة الى جميع المقاطعات لدعوة الفلاحين الى رفض دفع الضرائب والى ارسال وكلاء منهم الى انطلياس . وقد استجاب للدعوة اهالي كافة المناطق الشمالية تقريبا واجتمع في انطلياس ما يقارب الستة الاف شخص . وقد اختار العاصون الشيخ فضل البدوي الخازن ليكون شيخا عليهم ولكنه سرعان ما غادر معسكر المتمردين .

وكتب الفلاحون الى عبدالله باشا يخبرونه ان سبب عصيانهم هو ظلم الامير بشير اياهم بطلب المال منهم دون غيرهم (اذ انه في هذه المرة لم يطالب المقاطعات الدرزية بالضرائب) وتوسل الفلاحون الى الباشا كي يحميهم من تعسف الامير .

وقد كان عبدالله باشا يرغب في التخلص من هذا التابع الذي

١١ — ففي بلاط الامير بشير كتب الشاعر والمؤرخ نقولا الترك (مات عام ١٨٢٨) مؤلفاته التاريخية . وألف الشيخ ناصيف اليازجي بواكير قصائد مديحه (١٨٠٠ — ١٨٧١) في بلاط الامير بشير منذ عام (١٨٢٨) .

(*) — والمعروف باسم الميري . (ملاحظة من المعرّب) .

يتمتع باستقلال اكثر من اللازم فاستغل استياء الفلاحين وأجاب المجتمعين في انطلياس بأنه ، تمشيا مع العادات اللبنانية ، لن يطالب الفلاحين سوى بمال واحد . ولكنه مع ذلك لم يلغ الجزية الاضافية .

وعندما لم يتلق الامير بشير اي تأييد له لا من طرف باشا صيدا ولا من طرف الفئات الاقطاعية (اذ ان القسم الاعظم من الامراء والمشايخ الموارنة والدروز كان في تلك الفترة يقف موقف المعارض لبشير بسبب سياسته المركزية) فر هاربا من لبنان . فأنعم عبدالله باشا بخلعة ولاية لبنان على أميرين من الشهابيين هما الامير حسن والامير سلمان وأرسل اليهما بعميله الشيخ المسلم محمود الدسوقي .

وقد رضى فلاحو لبنان بجواب الباشا وتنحي بشير عن الحكم وتفرقوا الى بيوتهم . ولكن ما ان ارسل حسن وسلمان جباة الضرائب الى جبيل وكسروان حتى طردهم الفلاحون وسرت نار التمرد من جديد في كافة لبنان الشمالي وعندها نحى عبدالله باشا الاميرين حسن وسلمان عن السلطة لانهما لم يقدرا على اطفاء جذوة العصيان وعين الامير بشير من جديد واليا على لبنان .

فوجه الامير بشير ابنه الامير قاسم الى منطقة جبيل لجباية الضرائب بعد ان وثق هذه المرة من تأييد باشا صيدا والاقطاعيين اللبنانيين له . كما ارسل جباة الى منطقة كسروان وقد اصطدم الامير قاسم بمقاومة الفلاحين المسلحة في لحفد وبعث الى ابيه برسالة مع خيال يقول له فيها « ان الرعايا اظهروا العصيان » (١٢) فأمر الامير مشايخ وأمراء لبنان بالحضور مع رجالهم والتوجه بسرعة لنجدة ولده . وقد حاولت الفرق الفلاحية ان تقطع الطريق على الامير بشير ولكنه اخذ ينثر الوعود تارة ويلجأ الى التهديد تارة اخرى حتى استطاع النفوذ الى لحفد .

ولم يقر رأي الامير بشير على مهاجمة المتمردين بسبب وصول فرق فلاحية من كسروان والبترون وجبة بشري الى لحفد . وبينما كان في انتظار وصول فرق اخرى تقوي صفوف عساكره دخل في مفاوضات مع المتمردين فقدم الفلاحون له مطالبهم وعلى رأسها دفع « ميريا واحدا » و « جزية واحدة » .

١٢ — طنوس الشدياق — كتاب ... صفحة ٥١١ .

وما ان وصل رجال الاقطاعيين لمساعدة الامير ، حتى أوقف هذه المفاوضات وشتت شمل المتمردين .

ان استعراض بواكير الحركات الفلاحية ، حتى عندما يكون هذا الاستعراض سطحيا ، يرينا انها كانت تتصف بسمات عامة : فقد كانت تنشأ بشكل احتجاج عفوي على الارهاق بالضرائب (وهذا شكل مميز من أشكال نضال الفلاحين في العهد الاقطاعي) . وكان الذين يترأسون الحركات هم الاقطاعيون المعارضون للحكومة لهذا السبب او ذاك .

وبالرغم من شدة التشابه بين هذه الحركات فان هناك فرقا جوهريا بينها : فاذا كانت حوادث ١٧٨٢ و ١٧٨٤ يمكن أن توصف بالتمرد فان عصيان ١٨٢٠ قد تميز بظهور عناصر التنظيم فيه . فعقد اجتمعات فلاحية غفيرة وكتابة العريضة الى الباشا واختيار الوكلاء وتشكيل قوى مسلحة من العاصين ، كل هذا كان دليلا على درجة النضج الكبير التي كانت عليها هذه الحركة ، وعلى سمات التنظيم التي كانت معدومة في حوادث السنوات الثمانين والتسعين من القرن الثامن عشر والتي كانت الحركة الشعبية في سنوات ٤٠ — ٥٠ من القرن التاسع عشر تطويرا لها .

بعد مضي عشرين عاما من التطور الاقتصادي والسياسي السريع على عصيان عام ١٨٢٠ قامت في لبنان حركة مناهضة للاقطاعية في السنوات الاربعين من القرن التاسع عشر وخلال هذه الاعوام العشرين انجر الاقتصاد اللبناني بسرعة الى السوق الاقتصادية العالمية مما ساعد على نفوذ الاخبار الى لبنان وانتشار الافكار السياسية الجديدة فيه . كما حدثت خلال هذه الاعوام انتفاضة التحرر الوطني في اليونان (١٨٢١ — ١٨٢٩) التي هزت شرق البحر الابيض المتوسط ووجدت صدى لها في لبنان وسوريا ، وحدثت ازمات سياسية في الامبراطورية العثمانية كان سببها الصدام الذي وقع بين السلطان محمود الثاني وواليه المصري محمد علي ، كما جرى كذلك احتلال سوريا من قبل المصريين . وقد انتهت هذه الفترة بالعصيان الناهض للمصريين في لبنان والذي كان بمثابة « خميرة » عملت على تقوية الغليان الشعبي حسب تعبير د. شيفاليه .

قبيل استيلاء جيوش محمد علي على سوريا كان الهياج يعم مختلف المناطق في سوريا وفلسطين . ويقول ك.م. بازيلي انه كان يجري « تخريب تدريجي للسلطة القانونية » ولهذا فقد استقبلت مناطق عديدة من فلسطين وسوريا « المصريين كمخلصين » (١٣) .

وقد اقترن تثبيت سلطة المصريين في سوريا بعدد من التغييرات الجوهرية داخل البلاد .

فقد كانت سوريا في ظل حكم الاتراك مقسمة الى ثلاث ولايات ، وكان البشوات الذين تعينهم اسطنبول حكاما مطلقي السلطة ، لا يخضعون الا لحكومة السلطان وليس عليهم اية رقابة فعلية . وقد ركزت السلطات المصرية السلطة العليا في سوريا بيد واحدة وهي يد ابراهيم باشا ابن محمد علي . وكانت الادارة العسكرية والمالية منفصلتين عن الادارة المدنية ، مما ساعد على جعل جهار الادارة مركزيا . وقد كان الموظفون المصريون يختلفون عن موظفي الامبراطورية العثمانية بأنهم كانوا يستلمون رواتب ، ومنعت حوادث الرشوة والاغتصاب . وقامت الحكومة المصرية ببعض المحاولات للحد من تعسف وجور الحكام الاقطاعيين المحليين . ومع ان محمد علي لم يمس الاسس الاقتصادية التي ترتكز عليها سطوة الارستقراطية الاقطاعية في سوريا ولبنان وفلسطين ، فانه كان في بعض الحالات يلغي بعض الامتيازات السياسية التي يتمتع بها ممثلو الطبقة الاقطاعية الاكثر نفوذا .

وقد ظل لبنان بعيدا عن التغييرات المصرية ، ولكن الامير بشير استفاد من سياسة محمد علي واستولى نهائيا على اراضي خصومه السياسيين .

وقد اتخذت الحكومة المصرية بعض التدابير التي ساعدت على تطور التجارة ، مما أفسح المجال امام تجار الولايات السورية للوصول الى الادارة البلدية . وقد تشكلت في المدن التي يزيد عدد سكانها على الالفين مجالس بلدية مؤلفة من أغنى سكان المدينة من المسلمين والمسيحيين ، وكانت هذه المجالس تفصل في الدعاوى التجارية وتناقش قضايا الادارة البلدية . وقد ساوت الحكومة

١٣ ـــ ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ٩٦ .

المصرية بين حقوق المسلمين والمسيحيين لمصلحة التجار في الدرجة الاولى (فالقسم الاعظم من التجار السوريين كانوا يعتنقون المسيحية .) وفتح الطريق امام المسيحيين لاشغال المناصب الحكومية والمشاركة في المجالس والغيت شتى القيود التي كانت تحط من قدرهم (ولكن الخراج لم يلغ) . وقد أثرت كل هذا التدابير تأثيرا حسنا على تطور التجارة . وقد كتب ك.م. بازيلي يقول « مهما كانت السيطرة المصرية مرهقة لسوريا ، فقد تضاعفت تجارتها بمقدار عشر مرات في خلال بضع سنوات من هذه السيطرة » (١٤) . وتسارعت نتيجة هذا عملية تفسيخ العلاقات الاقطاعية ونشوء الراسمالية .

وقد ادخلت السلطات المصرية بعض التغييرات على نظام الضرائب ونظمت جبايتها والغت نظام الالتزام جزئيا . ولكن احجام الضرائب ظلت كما كانت عليه ، بل وفرضت رسوممرهقة جديدة : كالفردة وهي ضريبة تجبى من كل السكان الذكور بغض النظر عن دينهم (من سن السادسة عشرة وحتى الستين ، اما في الواقع فمن سن الثانية عشرة ـــ الخامسة عشرة) (١٥) وبما يتناسب مع مداخيلهم . ثم « الشونة » وهو ضريبة عينية من أجل الجيش . وكانت الضرائب تجبى بكل صرامة ويطبق مبدأ الكفالة المتبادلة على نطاق واسع . وقد أعيد احصاء السكان الذكور من اجل تدقيق قوائم دافعي الضرائب (١٦) وخفف القضاء على تعسف الاتراك في جباية الضرائب من مشقة وضع الفلاحين في البداية . كما ساعد على هذا ايضا حماية الدولة المصرية للقرى السورية من غارات البدو . وأعلن عن تخفيض الضرائب المفروضة على الفلاحين الذين يعملون في الاراضي المهملة او الذين يزرعون في مزارع جديدة . وكانت النتيجة زيادة مساحة الاراضيالمزروعة

١٤ ـــ أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٥ ـــ F. Perrier, La Syrie sous le gouvernement de Mehemet-Ali jusqu'en 1840, Paris, 1842, pp. 99-100.

كانت الفرضة تشكل جزءا من اثني عشر جزءا من المدخول تقريبا . وكان الموظفون والضباط معفيين من هذه الضريبة . كانت أمور جباية الضرائب تفوض الى أشخاص عن طريق المزايدة ويسمى هؤلاء بالملتزمين لالتزامهم بدفع مقدار معين من المال للدولة .

١٦ ـــ ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٢٧ .

زيادة ملموسة .

وقد تميزت كل هذه التدابير تميزا كبيرا عن سياسة الاتراك مما ساعد على ايقاظ الوعي السياسي لدى اهالي سوريا ولبنان .

بيد ان الحكومة المصرية بدأت بعد عام ١٨٣٣ تشدد من الاضطهاد الضرائبي بسبب استعدادتها الحربية . وأصبحت الضريبة على الاشخاص تجبى من اسر الاموات او المقتولين ، وغالبا ما كانت السلطات تطالب المزارع المضمحلة او التي لم تكد تأتي اكلها بعد بدفع ضريبة الميري . وقد طبق مبدأ الجندية الاجبارية لاول مرة على الاهالي المسلمين (بلغ عدد الجنود من الذكور ما بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٣٨ خمسة وثلاثين الف جندي من أصل تسعمئة الف شخص من الاهالي) (١٧) .

وقد اثر تجنيد العمال الاكثر قدرة على العمل تأثيرا سيئا على اقتصاد الفلاحين واعمالهم الحرفية . وكان الرجال الذين بلغوا السن القانونية يهربون الى الجبال والصحاري في كل مرة يجري فيها السوق الى الجندية . وأغلقت الورشات والدكاكين واقفرت أسواق البيع والشراء . وكانت فصائل ابراهيم باشا تضرب الحصار على الناس في الشوارع والاسواق وحتى في المساجد . وانقلب التجنيد الى كارثة مفزعة لدى الاهالي واصبحوا يسمونه « سفح الدم » لقلة عدد الذين كانوا يعودون من الجيش الى منازلهم وكانت غالبية الجنود تموت في مصر لعدم اعتيادها على مناخها الغريب .

كما كان الفلاحون السوريون يعانون الويلات من بناء المنشآت العسكرية التي كان يبنيها الفلاحون بصورة رئيسية ، ومن نقل المشحونات للجيش المصري مما كان يضطر الفلاحين للانقطاع عن العمل في استثماراتهم لمدة شهرين او ثلاثة (١٨) .

وكان عبء الاتاوات والتجنيد يرهق أكثر ما يرهق كاهل

---

١٧ — المصدر نفسه ، صفحة ١٣٦ .

١٨ — أ.س.ر.غ. « السفارة في القسطنطينية » . كانت أعمال البناء تجري بشروط شبه قنية : فقد كانوا يدفعون للعامل ربع آجرته فقط ، وكان اللبنانيون ملزمين بتقديم الجير اللازم للبناء بأسعار مخفضة .

الفلاحين والفئات الدنيا في المدينة ، وكان سببا في قيام عدد من العصيانات .

وفي ربيع عام ١٨٣٤ نشب العصيان الاول في فلسطين كردة فعل لطلب الاسلحة والجنود ، واستلزم لاخماده استدعاء الجيوش في مصر (١٩) وفي السنة نفسها أعلن العصيان متاولة (اي الشيعة — المعرب) المناطق الشرقية الشمالية في لبنان ، ثم جرى عصيان النصيرية في خريف العام نفسه . وقد أخمدت هذه العصيانات بعنف شديد . وفي خريف عام ١٨٣٧ أعلن دروز حوران عصيانهم الذي كلف الجيوش المصرية جهودا كبيرة الى ان قضت عليه اخيرا في صيف العام التالي . وقد اثر النجاح الذي احرزه الدروز تأثيرا كبيرا على مجرى حوادث عام ١٨٤٠ .

ففي ربيع هذا العام نشب العصيان في لبنان (٢١) .

---

١٩ — Asad I. Rustum, The royal archives of Egypt and the disturbaces in Palestine, Beirut, 1938.

٢٠ — ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... من الصفحة ١٣٣ الى الصفحة ١٣٦ .

٢١ — لدراسة هذا العصيان يمكن أن نرجع الى الوثائق التي جمعها البارون اي. تيستا في « مجموعة معاهدات الباب العثماني مع الدول الاجنبية » .
(Recueil des traites de la Porte Ottomane avec les Puissances étrangers »), t. III, Paris, 1868.

وقد نشر أسد رستم الوثائق المصرية عن العصيان ، ولكننا للاسف لم تتح لنا امكانية الاطلاع عليها . ان الوثائق العربية المنشورة « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠ جونية ١٩١٣ » هي بشكل رئيسي ترجمة عربية للوثائق التي نشرها اي. تيستا والكتب الانكليزية الزرقاء . ومن أهم المصادر بهذا الصدد « كتاب أخبار الاعيان في جبل لبنان » لطنوس الشدياق الذي كان ينتمي للفئة الاجتماعية التي دعمت العصيان وكان ذا اطلاع واسع على حوادث النضال الشعبي . ولكن انعدام التواريخ في الكتاب انعداما تاما يجعل من الصعب الاستفادة منه . وليس من المستبعد أن يخطىء الشدياق نتيجة لهذا في تسلسل بعض الحوادث . وقد حاولت في هذا الكتاب أن أعيد تأريخ حوادث العصيان على أساس التواريخ المذكورة في محررات ك. م. بازيلي ومقارنة هذه المعطيات مع محررات بوريه : القنصل الفرنسي في بيروت .

وفي عام ١٨٤٠ لعبت الاحداث السياسية دورا كبيرا في توتر الوضع في الولايات السورية ، ولم تكن معاهدة كوتاهية التي عقدت بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي في عام ١٨٣٣ لترضي أيا من الطرفين (٢٢) . وقد استطاع محمد علي الحصول على حق الحكم المتوارث لا في مصر فحسب بل وفي سورية ايضا . ولم يستطع محمود الثاني ان يرضى بفقدان سورية من يده . **وبالاضافة** الى هذا فان تمرد الوالي المصري انزل ضربة بسياسة محمود الثاني الداخلية التي كانت ترمي الى مركزة الحكم في ارجاء الامبراطورية . وقد حرضت انكلترا محمود الثاني على الحرب مع محمد علي ، لانها كانت ترى في حكومة علي القوية عائقا امام خططها التوسعية في الشرق الادنى ، وقد أخذت تبحث عن السبل

كما يستحق الاهتمام كذلك كتاب خليل همام فايز « أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني » وقد استعمل خليل فايز أرشيف أسرة أبو سمرا والقصص المؤلفة عنه . بيد اننا يجب أن ننظر الى معلومات خليل فايز بحذر ، اذ أنه يهول دور أبي سمرا في الحوادث وينظر الى الحوادث نفسها في أغلب الاحيان بعين أبي سمرا وجماعته. وهناك شك كبير في دقة العديد من تفاصيل الحياة اليومية واقوال المشاركين في الحوادث التي وصلتنا عن طريق القصص الشفوية أو الكتب .

واخيرا فان تحت تصرفنا شهادات الاوروبيين الذين كانوا انذاك في بيروت . وهي عبارة عن المحررات القنصلية وكتاب ك. م. بازيلي ومواد من محررات القنصل الافرنسي بوريه المذكورة في كتاب عادل اسماعيل
(Adel Ismail, Histore du Liban..., t. IV).

وقد اعتمدت المؤلفة في وضع كتابها على أرشيفات القنصلية الفرنسية .

٢٢ — كانت معاهدة كوتاهية التي وقعت في الرابع من أيار عام ١٨٣٣ خاتمة لازمة المصريين الاولى التي هزموا خلالها الجيش التركي واحتلوا فلسطين وسوريا وقسما كبيرا من اسيا الصغرى واقتربوا من القسطنطينية . وقد عقدت المعاهدة بين محمد علي والسلطان محمود الثاني بوساطة من الدول الكبرى بعد انزال الجيوش الروسية في القسطنطينية بهدف مساعدة محمود الثاني (وكانت روسيا تخاف من ازدياد نفوذ الفرنسيين في الامبراطورية العثمانية فيما اذا استولت جيوش محمد علي على القسطنطينية) . وقد تولى الباشا نتيجة المعاهدة ادارة فلسطين وسوريا وكيليكيا وسحب جيوشه من اسيا الصغرى . ؟

(*) يشير أسد رستم في كتابه « بشير بين العزيز والسلطان » الى أنه لم تكن هناك معاهدة بالمعنى الدقيق ، بل كان ذلك « اعلان » من السلطان باعطاء محمد علي ادارة المناطق المشار اليها بالاضافة الى مصر . (ملاحظة من المعرب)

التي تمكنها من اكراه محمد علي على التخلي عن نظام الاحتكارات المطبق في مصر والذي يعرقل نفوذ انكلترا الى هذه البلاد . وربما كان العامل الرئيسي المحدد لخطوات انكلترا السياسية تجاه محمد علي هو عدم الرضى عن تأثير فرنسا على الحاكم المصري .

وكانت الحكومة الانكليزية تهدف من وراء تأييدها لمحمود الثاني الى افساح المجال امامها لتؤثر بشكل فعال على سياسة السلطان ، وكانت ترى في هزيمة محمد علي السبيل الى وضع حد للتغلغل الفرنسي في مصر وسوريا او الى تضييق ابعاده .

وفي ربيع عام ١٨٣٩ بدأت على الحدود السورية صدامات مسلحة بين جيوش السلطان ومحمد علي . وزادت حدة الهيجان داخل سوريا . وكانت دمشق وحلب وطرابلس وغيرها من مدن الولايات السورية حسب رأي ك.م. بازيلي في وضع يمكن ان يؤدي الى العصيان فيما لو انهزم الجيش المصري . (٢٣) ولكن المصريين استطاعوا ان يحرزوا النصر الحاسم في موقعة نصيبين . وفي تموز عام ١٨٣٩ سلم امير البحر التركي الذي شارك في العمليات الحربية أسطوله الى محمد علي .

وتدخلت الدولة الاوروبية علانية في الخلاف القائم بين الباب العالي وحاكم مصر وأصدرت انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا في ٢٧ تموز من عام ١٨٣٩ بيانا مشتركا يطالب الباب العالي بعدم اتخاذ اية تدابير مستقلة بخصوص القضية المصرية الا بعد ان تقدم هذه الدول حلولها .

وقد أخذ محمد علي يستعد بقوة للحرب محاولا الاستفادة من التناقضات الواقعة بين الدول الاجنبية وكسب تأييد فرنسا له. وأكره المعمارين (المعمرجية — المعرب) من كافة المدن السورية على العمل لتعزيز اسوار عكا . وأصبح التجنيد يشمل اعدادا كبيرة من الرجال (٢٤) . وانتشرت اشاعة تفيد بأن المسيحيين سيساقون الى الجيش فكف هؤلاء عن الذهاب الى الكنائس خوف الوقوع ضمن طوق الحصار .

واخذت السلطات المصرية التي تعاني من وطأة المشقات المالية تتشدد جدا في تحصيل الضرائب . وقد كتب ك.م. بازيلي في محرراته في كانون الثاني عام ١٨٤٠ ما يلي : «واخيرا اقفر العديد

٢٣ — ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٧٠ .

٢٤ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

من القرى في نواحي اورشليم وعكا ويافا وغزة بعد ان فر منها فلاحوها الى الجبال وقد استولى عليهم اليأس بالرغم من اقتراب موسم الاعمال الزراعية . اذ انهم لم يعودوا يصدقون وعود السلطات المحلية التي تحاول ان تعيدهم الى قراهم » (٢٥) .

وفي شتاء عام ١٨٤٠ نشبت العصيانات في شتى اجزاء سورية في منطقة انطاكية ومقاطعة عكار (شمالي لبنان) وقرب طرابلس وفي بعلبك ومنطقة صور وجبال الجليل والخليل وحوران (٢٦) . وقد لاقت الجيوش المصرية مشقة كبيرة في اخماد هذه الانتفاضات .

وفي شهري نيسان وايار من عام ١٨٤٠ الحق المسيحيون اللبنانيون الذين يدرسون الطب في المدرسة التي افتتحها المصريون بالجيش اسوة بالمسلمين مما اثار اشاعة فرض الجندية على المسيحيين . ووصلت الى بيروت باخرة تحمل ملابس عسكرية ودار الحديث عن انها مخصصة لاهالي لبنان . فازداد (المسيحيون اضطرابا وتقمقعوا ودار بينهم وبين الدروز لسان العصيان على ابراهيم باشا » كما يقول طنوس الشدياق . وكان الدروز يهيجونهم بايراد اخبار ظفر طائفتهم في عصيان حوران (٢٧) .

وقد كتب الامير بشير حاكم لبنان الى قائد الجيش المصري سليمان باشا بتاريخ ٣١ ايار ١٨٤٠ : « كان اهالي لبنان أشبه بالنار تحت الرماد : فما ان تلمسها حتى يندلع من هذه الشعلة حريق عام » (٢٨) وكان الامر الذي اصدره ابراهيم باشا بجمع الاسلحة بمثابة الشرارة التي اشعلت نار العصيان (٢٩) .) كان

---

٢٥ ــ المصدر نفسه .

٢٦ ــ المصدر نفسه .

٢٧ ــ طنوس الشدياق ، « كتاب اخبار الاعيان ... » صفحة ٥٨٩ .

٢٨ ــ Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 42.

٢٩ ــ كانت هذه الاسلحة قد وزعت على المسيحيين اثناء عصيان حوران في عامي ١٨٣٧ ــ ١٨٣٨ عندما كان المصريون يأملون بكسب تأييد الموارنة لسحق العصيان . ويفسر بولك قرار ابراهيم باشا الذي اصدره عام ١٨٤٠ بحاجة الحكومة الى أسلحة اضافية بمناسبة الاعداد للحرب .
(W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 199).

ويرى طنوس الشدياق ان الهيجانات في لبنان قد أقلقت ابراهيم باشا ولذلك قرر اللجوء الى تجريد هذا الاقليم من السلاح . والارجح ان القيادة المصرية قد قدرت هذين الامرين معا عندما امرت بجمع الاسلحة .

السكان ينظرون الى جمع الاسلحة كبداية لسوق الناس الى الجيش) .

وقد وجه طلب جمع الاسلحة اول الامر الى دير القمر والمناطق القريبة . ويقول طنوس الشدياق في كتابه « فلما سمع اهل دير القمر بذلك (الامر) كتبوا الى (مختلف) مقاطعات البلاد يسألونهم (أي سكان المقاطعة ــ ملاحظة من المؤلفة) في أمر تسليم السلاح فاجابوهم « لا نسلم » (٣٠) . بيد ان بعض القرى بدأت بجمع الاسلحة مما جعل اهالي دير القمر يعجلون في القيام بحركتهم . ويرجح انهم ارسلوا بتاريخ ٢٤ ايار فرقة من مئة رجل الى قرى مقاطعتي المناصف والشحار (لبنان المتوسط) لعرقلة نزع السلاح . فاستولى الهلع على قلوب جامعي السلاح ولاذوا بالفرار ، واعيدت الاسلحة الى اصحابها وانزلت العقوبة بمشايخ القرى الذين قاموا بالجمع (٣١) .

وفي غضون ذلك انتشر نبأ دخول فصيلة مصرية بقيادة سليمان باشا من صيدا الى دير القمر . فاتخذ اهالي دير القمر قرارا فوريا يقضي بارسال مئتي انسان لصد القوى المصرية . وسرعان ما تحركت الفرقة الى صيدا لكي تقطع الطريق على سليمان باشا عبر الجبال . بيد ان اهالي دير القمر لم يشتبكوا في صدامات مسلحة بل اقتصروا على القيام بأعمال الاستخبارات ، مع ذلك فقد حرضوا بظهورهم اهالي قرية معلقة الدامور وصاحب الخان في جسر الذين اجبروا طلائع الفرق المصرية المتمركزة في جسر الاولي على الفرار .

وفي الصباح وصلت فرق من الجيوش المصرية تضم الفين

---

٣٠ ــ طنوس الشدياق « كتاب أخبار الاعيان ... » صفحة ٥٨٩ . وقد أورد عادل اسماعيل في كتابه جزءا من رسالة أهالي دير القمر يقولون فيه : « هذه هي المرة الثانية التي يطلب منا محمد علي فيها السلاح . كما انه يريد أيضا جمع الاتاوات قبل موعدها لكي يسهل عليه بعد تجريدنا من المال والسلاح أخذ دمائنا وأولادنا دون جزاء ولهذا يجب علينا أن نتحد ونرفض طلبه الجائر ... وليقاتل الشعب الدرزي والشعب المسيحي من أجل هدف واحد في هذه المرة » .
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 55).

٣١ ــ راجع :
W. Polk, The opening of South Lebanon 1788-1840, pp. 200, 201.

حسب قول (طنوس الشدياق) الى جسر الاولي ونهبت الخان ثم عادت بسرعة الى المدينة لشعورها بعدم الاطمئنان خارج اسوارها. اما الفصائل اللبنانية فقد انسحبت بدورها آلى الجبال .

وقد ظهر في الوقت نفسه مركز اخر للمقاومة في مقاطعة المتن قرب بعبدا . وهاجم الفلاحون اللبنانيون جماعة من الجنود المصريين المتقدمين في طريق دمشق وسلبوهم اسلحتهم . وظلت مسألة تسليح المتمردين (بالرغم من توفر السلاح المصري الموزع على المسيحيين والذي كان يعد سبعة الاف بندقية حسب تقدير ك . م . بازيلي) (٣٢) . مطروحة بالحاح طوال مدة العصيان . وكان المتمردون يحصلون على السلاح اثناء المعارك ويجمعون الاموال لشراء البنادق والمتفجرات (٣٣) .

وقد تشكل مركز ثالث للعصيان في سهل بيروت وفي احراش المدينة وبساتينها الكثيفة الاشجار (حيث تمركزت في شهر حزيران قوى المتمردين الرئيسية) (٣٤) . وكان على رأس الحركة في أحاش بيروت ابو سمرا غانم وهو ماروني ومدير أحد المقربين من الامير بشير الثاني وسليل اسرة عامل في قطع الاحجار ، واحمد داغر وهو متوالي (شيعي — المغرب) وسليل أسرة غير أرستقراطية على الارجح . وبعد فترة قليلة وقف على رأس الحركة الشيخ فرنسيس الخازن . ويذكر خليل فايز ان نبأ اشتباك اللبنانيين في معركة في منطقة صيدا دفع أبو سمرا غانم للعمل فطفق يجول في

---

٣٢ — ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٠ وكان باقي الاسلحة محفوظا في مستودعات الامير بشير .

٣٣ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 57.

٣٤ — يعدد عادل اسماعيل مراكز خمسة هي اهم مراكز العصيان معتمدا في ذلك على معطيات القنصل الفرنسي بوريه : ١ — دير القمر حيث تمركز متمردو الشوف والغرب الاعلى والجرد والشحّار والمناصف . ٢ — جزين ولبنان الجنوبي مع معسكر منطقة صيدا . ٣ — بيروت وهي أهم مراكز العصيان وتضم متمردي سهل بيروت والغرب السفلي والمتن وبيت شباب وكسروان . ٤ — الاقاع مع معسكري بعلبك وزحلة . ٥ — لبنان الشمالي ومركزه قرب طرابلس . ان معطيات بوريه في جملتها تتطابق مع ما يذكره طنوس الشدياق الا فيما يتعلق ببعلبك حيث كانت تتمركز الجيوش المصرية منذ بدء العصيان حسب رأي الشدياق .

(Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 60, 61.

القرى الساحلية محرضا السكان على شق عصا الطاعة (٣٥) . فالتف حوله سكان القرى الواقعة في منطقة سهل بيروت كما انضم اليه فلاحون من المتن وبيت مري وبرمانا وغيرها من القرى الجبلية التي يعمل اهلوها في تربية دودة القز في سهل بيروت . (وهم على الارجح من الشركاء الجبليين الذين يعملون في اراضي الشهابيين اصحاب الاراضي الواسعة في سهل بيروت) . فاختار ابو سمرا قرية الطيونة معسكرا لفرقته وبدأ بنهب الاغذية الموجهة الى الفرق المصرية في بيروت . وحاول ان يضرب الحصار حول المطاحن المبنية على نهر الكلب ونهر ابراهيم حيث كانوا يطحنون القمح من اجل الجيش .

وقد عقدت في الوقت نفسه الاجتماعات في كافة قرى لبنان وكان المجتمعون يقسمون على عدم التخلي عن اسلحتهم (٣٦) .

وقد اشتهر بهذا الصدد نص القسم الذي اداه المسيحيون والدروز والمتاولة والمسلمون في كنيسة القديس مار الياس في محلة انطلياس حيث تعاهدوا على العمل كيد واحدة وصف واحد (٣٧) .

ومع ان العمليات الحربية كانت موجهة ضد المصريين الا ان الحوادث أخذت تبعث القلق المشروع في نفس الامير بشير فبعث الى دير القمر بعملائه الذين اقترحوا على اهالي المدينة ايقاف القتال وذلك في محاولة منه لايقاف تطور الحوادث . ولكن متمردي دير القمر ظلوا بعد تردد قصير مخلصين للانتفاضة .

وفي تلك الاثناء انتقل مركز الحركة التي شملت عددا من مناطق جبل لبنان الى سهل بيروت ، وحاول الامير بشير ان يتفاوض مع قادة الحركة فارسل الى محلة سن الفيل الامراء اللمعيين ثم

---

٣٥ — خليل فايز ، أبو سمرا غانم ، صفحة ٤٤ .

٣٦ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 56.

٣٧ — ورد النص في كتاب خليل همام فايز « أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني » ، صفحة ٤٠ ، وهو يؤرخه بالسابع من حزيران فاذا قبلنا هذا التاريخ وجب علينا أن نوافق على أن سكان لبنان قد انجروا الى الحركة شيئا فشيئا . فقد انتفضت بعض المناطق في أيار ، ثم انضمت مناطق أخرى الى الحركة في حزيران عندما جرت الاصطدامات المسلحة في سهل بيروت .

أتبعهم بابنه أمين . وكان المفاوضون من طرف المتمردين هم وجوه العامية .

وقد استعمل الشدياق اصطلاح « عامية » (جماعة المتمردين) (٣٨) في معرض حديثه عن المحلات والمناطق التي اشتركت في العصيان . وكتب عن عامية حرش بيروت وعامية دير القمر والمتن وغزير .

ويبدو ان نظام انتخاب وكيل عن كل قرية قد طبق ايضا في عصيان ١٨٤٠ كما كان الامر في عام ١٨٢٠ ، وكان الوكيل فلاحا يقوم بدور حلقة الوصل بين القرية ومركز العامية . وكانت العامية تأخذ قراراتها في الاجتماعات العامة التي كانت تتسع لبضعة الاف انسان (كالاجتماع الذي عقد في انطلياس عام ١٨٣٠) .

ويفرز طنوس الشدياق من بين صفوف العامية جماعة القادة ويكتب عن « وجوه » العامية و « قادتها » الذين يؤلفون مجلس المتمردين (٣٩) . ويذكر خليل فايز ان هذا المجلس كان يتألف من الشعب فقط ولم يكن يضم اي شيخ او امير . وكان يعقد جلساته في دكان في محلة الطيونة (٤٠) . وقد تشكلت مجالس مشابهة لمجلس بيروت في مراكز اخرى للعصيان ، ويمكن ان نجد وصفا

٣٨ — طنوس الشدياق « كتاب أخبار ... » الصفحات : ٥٩٠ — ٥٩٢ — ٥٩٤ — ٥٩٥ — ٥٩٧ — ٥٩٨ وغيرها . أما عادل اسماعيل فيستعمل بدل هذا الاصطلاح التعبير الفرنسي « Le rassemblement » بمعنى اجتماع أو حشد
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 60, 61).

وتجد كلمة عامية تأويلا أوسع لها لدى يوسف خطار الحلو الذي يكتب قائلا : ان كلمة عامية تعني كل حركة شعبية يذود الشعب بواسطتها عن حقوقه من الاضطهاد والاستغلال . وهي تقابل كلمة « كومونة » الفرنسية التي أطلقوها على الحركة الثورية في فرنسا ١٨٧١ ، يوسف خطار الحلو العامية ... صفحة ٩ . كما أن م. كي يترجم اصطلاح عامية بكلمة « كومونة » وتعبير « ثورة العامية — الكومونة الثورية » .
(« Lebanon in the last years of feudalism 1840-1868 », p. 33).

٣٩ — يعرف خليل فايز اصطلاح « عامية » تعريفا ضيقا ومحددا فيطلق عليها اسم « مجلس شورى الشعب » مما يتناقض مع تفسير طنوس الشدياق ولا شك أن أقوال طنوس الشدياق هي المرجحة عندنا بصفته معاصرا للحوادث .

٤٠ — خليل فايز « أبو سمرا غانم » .

لاحدها — وربما كان مجلس دير القمر — في كتاب عادل اسماعيل لقد كان هذا المجلس يتألف من اثني عشر عضوا من المسلمين والمسيحيين . وقد قام هذا المجلس بتجنيد المتطوعين وانشأ صندوقا عاما لشراء البارود والرصاص ومن الجدير بالذكر انه اتخذ قرارا بتحويل العجلات الرصاصية في ورشات فتل الحرير الى طلقات نارية ، وعين موعدا شهريا لجمع الاموال من السكان بما يتراوح بين ٢٠ باره وثلاثة قروش . وهكذا نرى ان مثل هذا المجلس كان يقوم في منطقة العصيان بوظائف الحكومة .

وفي بداية حزيران انتشر في منطقة العصيان بيان يقول فيه ناشروه :

« لكي نعمل بشمم وقوة لائقين بمثل هذه الاحداث الجليلة ولكي تكون قراراتنا موضوعة على ضوء حكمة وتأني اناس احرار، لا بد من ايجاد اتحاد يضم ابرز الناس واكثرهم ثقافة من بيننا . وسيتألف هذا الاتحاد من خمسة زعماء تنتخبهم الاكثرية في كل منطقة انتخابية . ثم يشكل كلهم او بعضهم مجلسا يقام في المكان الملائم للتوصل الى تنظيم رائع » (٤٢) .

وتدل هذه الدعوة على ميل المتمردين لتوحيد قواهم وتشكيل مركز موحد للقيادة . وليس لدينا اية معلومات عن تشكيل مجلس لكافة لبنان . ويرجح ان مثل هذا المجلس لم يقدر له أن يوجد .

وفي نهاية ايار أصبح سهل بيروت اكثر مناطق العصيان نشاطا ، وكان الامير بشير يجري مفاوضاته مع مجلس هذه المنطقة بالذات وقد استمرت المفاوضات لمدة اسبوع ولعب فيها الامراء اللمعيون دورين مختلفين ، فهم من ناحية هددوا المتمردين علانية وامروهم بالتوزع الى قراهم والقاء السلاح ، ومن ناحية اخرى كانوا يدعمونهم بغية استقلال العصيان لتنفيذ مآربهم . وقد قدم المتمردون الشروط التالية : « اولا اننا لا ندفع الا مالا واحدا فقط ثانيا — وأن يرفع (بشير — المؤلفة) بطرس كرامة من ديوانه . ثالثا — أن يضع في ديوانه من الطوائف (الدينية) . من كل طائفة اثنين . رابعا — ان يرفع عنهم السخرة وحفر المعدن ، خامسا — ان

٤٢ — I. de Testa, Recueil des traités, t. III, p. 75.

يبقي لهم السلاح » (٤٣) .

وقد أيد الاقطاعيون هذه المطالب وسرعان ما انضمت الى معسكر المتمردين فئة كبيرة من الاقطاعيين ومن بينهم الامراء اللمعيون والشهابيون (اقرباء الامير الحاكم) ومشايخ الخوري ، وآل عيد المشتركون في المفاوضات . وكانت غالبيتهم من الاحفاد الصغار للعائلات الاقطاعية اللبنانية . وعلى الارجح ان التفاهم قد جرى بين العامية والامراء اللمعيين ، عندما كان هؤلاء في سن الفيل بصفتهم ممثلين للامير بشير بينما كان هو يتفاوض مع المتمردين .

لا شك ان مطالب المتمردين الاساسية وهي : الغاء السخرة وجمع السلاح وكل الضرائب ما عدا المال الواحد كانت تعكس مصالح الجماهير الشعبية الواسعة .

اما ازاحة كرامه فقد كانت من مصلحة الاقطاعيين اللبنانيين . فقد كان بطرس كرامه ، سكرتير الامير بشير ويؤثر عليه تأثيرا كبيرا ، وكان يحارب بحزم وقسوة ضد معارضي توطيد سلطة الامير (٤٤) . اما البند الذي يطالب بادخال ممثلين عن الجماعات الدينية الى الديوان فهو على الارجح من املاء رجال الدين المسيحيين المؤيدين للعصيان .

ولم يضع المتمردون هدفا لهم ازاحة بشير عن الحكم فقد ورد في رسالة موجهة الى الامير امين (في ١٢ حزيران) ما يلي : « اذا اتجهت السلطات نحو جادة العدل وخلصتنا من الطغيان فاننا مستعدون لاداء السمع والطاعة ، لان عصياننا لا يهدف الى اقامة

٤٣ — طنوس الشدياق : كتاب اخبار ... صفحة ٥٩١ . يورد عادل اسماعيل في كتابه نصا أكثر تفصيلا لمطالب المتمردين معتمدا في هذا على محررات القنصل بوريه ومواد الارشيفات المصرية التي نشرها أسد رستم . والفقرتان الاوليتان من هذه المطالب تتطابقان مع معطيات طنوس الشدياق وهما : ١ — الغاء الفردة والعودة الى النظام المالي الذي كان ساريا قبل الاستيلاء . ٢ — دفع الضرائب مرة في السنة بعد جمع الحرير . ثم يذكر عادل اسماعيل الغاء الكفالة المتبادلة بين الاقارب في دفع الضرائب ، ورفع مصاريف رجال الامير عن السكان .
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 57-58).

٤٤ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

حكم بل الى التخلص من هذا الطغيان المرهق فقط » (٤٥) .

وفعلا لم يقف المتمردون ضد الامير بشير طوال مدة العصيان ولم يتخذ الامير بشير بدوره اية خطوات حاسمة ، بل كان يترقب الموقف ولم يبدأ بالعمل الفعلي الا عندما دخلت الجيوش المصرية الى لبنان .

وقد خلق موقف الامير بشير في البدء وهما بين صفوف المتمردين بأن الامير يمكن ان يؤيدهم في نضالهم ضد محمد علي . حتى ان ك . م . بازيلي كان يفترض ان الامير كان ينفخ في نار العصيان عمدا كي يستغله في علاقاته المعقدة مع محمد علي (٤٦) . ولكن ك . م . بازيلي لم ينتبه الى ان برنامج المتمردين كان يمس مصالح بشير بالذات . ومهما كان الامر فان الامير لم يكن في ظروفه تلك بقادر على جمع فرقة متطوعين اقطاعية وكان مضطرا للركون الى الهدوء .

وسرعان ما جمعت الحكومة المصرية قواتها حول لبنان وارسلت من حلب الى بعلبك فرقة ضخمة تعد ثمانية الاف انسان . فاتخذ الامراء المنضمون الى معسكر المتمردين والمعتادون على قيادة العمليات الحربية قرارا مشتركا مع العامية بالتوزع الى فرق واحتلال المنافذ الى لبنان في منطقتي صيدا وسهل البقاع للحؤول دون نفاذ المصريين الى جبل لبنان . وكان على أبي سمرا أن يتوجه الى منطقة طرابلس لدعم العصيان في شمالي لبنان .

وفي التاسع والعشرين من ايار ضربت السلطات المصرية حول بيروت حجرا صحيا خوفا من انتشار وباء الطاعون الذي تفشى في دمشق حسب زعمها (٤٧) . ولكنها على الارجح كانت تهدف من وراء هذا التدبير عرقلة نقل القمح الى البلاد التي اعلنت العصيان . وقد اصدرت في اوائل حزيران امرا بمنع نقل القمح الى الجبال عموما (٤٨) .

وقد تلقى سكان الجبال نبأ الحجر الصحي على أنه تنكيل بهم من جانب المصريين . وفي الاول من حزيران هاجمت فصيلة ابي

٤٥ — I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 80.

٤٦ — ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... ، صفحة ١٩٠ ، ١٩١ .

٤٧ — أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٤٨ — ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... ، صفحة ١٩٠ .

سمرا مكان الحجر ، وبعد مضي اربع ساعات من البدء بتبادل اطلاق النار ، حسب قول القنصل الفرنسي بوريه « وصل خمسة الاف نسمة الى اشجار الصنوبر (الحرش ــ المؤلفة) قرب بيروت ... وقد جاءت النساء هائجات ليأخذن الرجال من اعمالهم وحملن اليهم الاسلحة والفؤوس والاوتاد » (٤٩) محرضات اياهم على القتال .

ومنذ ذلك الوقت اخذ نطاق النضال في لبنان بالاتساع وقد كتب ك . م بازيلي بعد شهر : « لقد وقعت عدة اصطدامات بين المتمردين في الجبال والجيوش المصرية ، وكانت هذه الاخيرة تتقهقر باستمرار . ولا تزال ضواحي مدينتنا (بيروت ــ المؤلفة) مسرحا لاقتتال الاعداء . وقد انهزمت افواج كاملة من الجيوش النظامية بشكل مخز أكثر من مرة أمام أعيننا من قبل خمسين انسان من الجبليين » (٥٠) .

وقد توزعت عامية بيروت الى خمس فرق ، بقيت احداها في حرش بيروت وتوجهت الفرق الاخرى بقيادة الامراء الشهابيين واللمعيين وابي سمرا غانم نحو صيدا والبقاع وطرابلس ومزرعة الحازمية . وكان من نتيجة هذا تفتت قوى العامية الشعبية وانتقال القيادة الى أيدي الاقطاعيين .

وفي العاشر من تموز بدأ الجيش المصري المؤلف من ثلاثين الف جندي بالهجوم على البقاع من جهة الساحل وكانت فرق المتنيين المسلحة اول من تلقى الضربة من الجيش النظامي الذي انزل بهم الهزيمة وقتل منهم حوالي مئتي نسمة وقد تغلغل المصريون في لبنان بالرغم من مقاومة المتمردين ، واخذت القيادة المصرية تجري مفاوضات مع عامية بيروت بغية اشاعة الفوضى بين صفوف اللبنانيين دون ان تتوقف عن الهجوم . واستطاع الامير بشير ان يبذر بذور الشقاق في صفوف المتمردين . وقد خانت غالبية المشايخ والامراء العصيان عند اول فشل واستسلمت للامير . وظلت بعض فرق الفلاحين تقاوم المصريين دون ان يكون لديها قيادة عسكرية . وقد حاربت فرقة ابي سمرا بعناد في شمالي لبنان ولكن الحركة ككل كانت محكوما عليها بالفشل .

٤٩ ــ Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 59.

٥٠ ــ أسرخ « السفارة في القسطنطينية » (*)

وكان المتمردون اللبنانيون في بدء العصيان قد أرسلوا ممثلين عنهم الى حوران ونابلس والخليل والى مناطق فلسطين حتى الاردن داعين الاهالي للاتحاد معهم . وقد هب المتاولة في بعلبك بقيادة الامير خنجر حرفوش ، ودب الهياج في صفوف حوران . واخذ المستاؤون ينصبون من الجليل والسامره الى الكرك عبر نهر الاردن ، حيث كان الوكر الدائم للتمرد » . ولكن لم تظهر حركة على شيء من الجدية في اي مكان: فقد كانت مناطق الخليل وحوران ونابلس وشمالي لبنان في حالة ترقب وانتظار (٥١) . وقد أتت أكلها سياسة شق اهالي سوريا التي اتبعتها السلطات المصرية : حتى ان اكثر من خمسة آلاف شخص من سكان نابلس مدوا يد العون للجيوش المصرية لسحق العصيان في لبنان وانتقموا من اللبنانيين الذين شاركوا في اخماد العصيانات الفلاحية في نابلس .

وفي هذه الاونة الحرجة كان العملاء الانكليز الذين نزلوا في معسكر متمردي حرش بيروت منذ بدء العصيان يحرضون قادة العصيان للتوجه الى الباب العالي والدول الكبرى في طلب المساعدة . ولم يكن هذا سوى تمهيد دبلوماسي من نوع خاص للتدخل الانكليزي العثماني المقبل في سوريا . وفي بداية حزيران بعث المتمردون برسائل مناسبة الى السلطان عبد الحميد والسفراء الانكليز والفرنسيين . بيد ان مساعدة الانكليز لم تتعد ارسال بضعة صناديق من الذخائر الحربية . ولم تتخذ الدول الكبرى قراراً بمطالبة محمد علي بسحب جيورشه من سوريا الا في الخامس عشر من تموز « اي عندما كان قد قضي على العصيان » .

وقد نكلت فرق الامير بشير وجيوش محمد علي تنكيلا قاسيا بالمتمردين : وكانت فرق القمع تنهب وتحرق اي مكان نزلت فيه وارسل الامير بشير على الفور رجاله لجمع السلاح من القرى(٥٢). والقي القبض على بعض الاهالي في العديد من المقاطعات . وكتب ك . م . بازيلي وهو أحد مشاهدي هذه الحوادث :

« لقد عم الذعر سوريا بأجمعها عندما شاع نبأ اخماد التمرد اللبناني . واصبح الحكم المصري مخيفا في فترة انتصاره الاخير

٥١ ــ المصدر نفسه ، ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٣ .

٥٢ ــ طنوس الشدياق « كتاب أخبار ... » صفحة ٦٠٠ ، ٦٠١ .

اكثر من اي وقت مضى . وبالمقابل فان قلوب السوريين لم تمتلىء قبل الان بمثل تلك الكراهية التي اصبحوا يضمرونها للباشا المنتصر ، ولم تحتدم العواطف الشعبية قبل الان بمثل هذه القوة وهي مكرهة على الهدوء والسكون » (٥٣) .

لقد كان للعصيان اللبناني (من ايار الى تموز ١٨٤٠) اهمية كبيرة بالنسبة للتطور التاريخي في لبنان وسائر الولايات السورية . فقد كان هذا العصيان أول عصيان يشمل البلاد بأسرها . وهو من ناحية تركيبه الاجتماعي فلاحي بقسمه الرئيسي وتتشكل نواته من افقر الفئات الاجتماعية : الشركاء ، والمياومين ، والفلاحين ذوي الاراضي الصغيرة المتسلحين بالاوتاد والعصي والفؤوس . ولم يكن جيش المتمردين يتصف بقوام دائم بحكم طابعه الفلاحي . فقد كان الفلاحون مضطرين في فترة زخمة الاعمال الزراعية في شهري حزيران وتموز للعودة الى اعمالهم في الحقول .

وقد اشترك في العمليات الحربية عدد من المتمردين يتراوح بين خمسة وسبعة الاف نسمة (٥٤) وبالتالي يكون عدد سكان المناطق المشتركة في العصيان بين الخمسة عشر والعشرين الف نسمة على الاقل ، يتوزعون اثناء القتال الى جماعات تتألف الواحدة منها من خمسين او مئتي مقاتل ، باستثناء الفرق التي كانت تقاتل في ضواحي بيروت وسهل البقاع حيث كانت تتمركز اضخم فرق المتمردين التي يزيد افرادها عن الالف مقاتل .

ومما يستحق قدرا كبيرا من الاهتمام بهذا الصدد كيفية تكوين القوى المسلحة من المتمردين .

---

٥٣ — ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ١٩٥ .

٥٤ — يذكر طنوس الشدياق في معرض تعداده لاشتباكات المتمردين بالمصريين ان عدد المشتركين في هذه الصدامات يصل الى الالفي شخص . وقد قدر القنصل الفرنسي عدد المتمردين في سهل بيروت فقط بخمسة الاف متمرد تقريبا . ويكتب ك. م. بازيلي عن بضعة الاف من الجبليين المشتركين في معارك سهل بيروت . وحسب اقوال بوريه فان النساء قد اشتركن اشتراكا فعالا في العصيان مع انهن لم يدخلن في صفوف الفرق المسلحة . (طنوس الشدياق ، كتاب ... الصفحات ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٥ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩) ؛ ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩١ .
Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. IV, 59.

من المعروف ان فرقة مدينة دير القمر كانت تتألف من فئات التجار والحرفيين والفلاحين من سكان المدينة . اما فرق سهل بيروت فقد تشكلت بشكل عفوي كما كان الحال اثناء عصيان عام ١٨٢٠ وكانت تتألف من فلاحي وحرفيي وتجار بيروت الذين جاؤوا الى مركز العصيان .

بيد ان هذه الفرق كانت قليلة العدد نسبيا . ومما له دلالته في هذا المجال ان سكان دير القمر كانوا يشتكون من عدم تأييد اناس المقاطعة (اي الفلاحين) لهم (٥٥) . وقد اضطر ابو سمرا الى دعوة اقطاعيي شمالي لبنان لجمع فرق مسلحة من المتطوعين من اجل النضال ضد المصريين . وكان نفوذ الفئات الاقطاعية والاساليب التقليدية في تنظيم القوى المسلحة لا يزال قويا في المجتمع اللبناني انذاك . مما جعل امراء ابي اللمع وآل شهاب المنضمين الى العصيان يجمعون فرق المتطوعين في مقاطعاتهم (٥٦) ولكن مما له دلالته كذلك واقع ظهور فرق من المتمردين الى جانب فرق المتطوعين الشعبية (٥٧) .

---

٥٥ — طنوس الشدياق : كتاب ... صفحة ٥٩٠ .

٥٦ — المصدر نفسه ، الصفحتان ٥٩٣ ، ٥٩٤ .

٥٧ — يورد خليل فايز في كتابه ، الحديث الذي جرى ، على حد زعمه ، بين الامير امين وابي سمرا غانم . فقد عير الامير في سورة غضبه ابا غانم بوضاعة نسبه وقال له ان هؤلاء الذين تراهم حولك من امراء ومشايخ لهم نفوذ بين الناس فيحاربون باموالهم ومزارعهم وخدمهم واما انت يا ابا سمرا فباي شيء تحارب الدولة المصرية « ابرجالك ، ام باموالك ؟ » ان خليل فايز يكتب هذا وكأنه يشاطر الامير الاراء الملازمة للنفسية الاقطاعية التي ترى ان معارضة الدولة مقتصرة على الاقطاعيين مع فرق من الفلاحين . فاجابه ابو سمرا غانم : اني لست بناكر اصلي وفصلي ولكن اما تعلم ان « البارود يصطنع من الزبل ولكنه يحطم الصخور » . ثم يصف خليل فايز بعد ذلك كيف دعا ابو سمرا المتمردين الى القتال ضد المصريين فاستجاب هؤلاء لدعوته . وبهذا اشار خليل فايز الى القوى الجديدة التي دخلت الحياة السياسية في البلاد والتي هدمت الصلات والتصورات القديمة . (خليل فايز ، أبو سمرا غانم ، صفحة ٥٢) .

وتجدر الاشارة هنا الى الدور المتناقض الذي لعبه ابو سمرا غانم في الحوادث اللاحقة ، عندما ساعد على توتر العلاقات بين الدروز والموارنة في سنوات ١٨٤١ و ١٨٤٥ .

واذا كان عصيان عام ١٨٢٠ يتيح لنا امكانية تعيين المراحل الاولى من عملية تحرر الفلاحين من نفوذ الفئات الاقطاعية فان عصيان عام ١٨٤٠ يعتبر تطورا لتلك العملية التي هي نتيجة لحركة مناهضة الاقطاعيين الصاعدة والتي ساعدت بدورها على تطوير وتعميق النضال ضد الاقطاعية .

واذا كانت بعض الفئات الاقطاعية قد شاركت في عصيان ١٨٤٠ فان ايا من هذه الفئات لم تكن المبادرة الى العصيان ولم تكن تقوم بكل ما يترتب على القائد السياسي للنضال . وليس من قبيل الصدف ان يكون عدد المشايخ والامراء الذين اعتقلوا بسبب مشاركتهم النشيطة في العصيان اثني عشر شخصا فقط من اصل سبعة وخمسين معتقلا . فالى اي الفئات كان ينتمي الخمسة والاربعون شخصا الباقون ؟

ان ما يمكننا فعله في هذا المجال هو للاسف تقديم الافتراضات فقط .

من المعروف ان المبادرين الى العصيان هم سكان دير القمر الذين دعوا سكان المقاطعات المجاورة الى حمل السلاح وضغطوا على مشايخ القرى . وليس من قبيل الصدف ان يحتوي بيان الثامن من حزيران على الكلمات التالية : « ان سكان دير القمر هم اول من حمل السلاح في سبيل هدفنا العادل المقدس ، فتلقدو دعوتهم الوطنية في كل مكان » (٥٨) . وقد تشكلت في المدينة اثناء ذلك قوى من اوساط الحرفيين التجار (من تجار وحرفيين وملاكين وعمال مانيفاكتورات) وبدأت بعد بضعة اشهر بالنضال ضد اسيادها ــ المشايخ النكدية . وربما كان قواد العصيان في المدينة والضواحي قد خرجوا في صيف ١٨٤٠ من هذه الاوساط بالذات .

اما المركز الرئيسي الثاني للعصيان فقد كان الاقليم القريب من بيروت . ومما يدل على صلة تجار بيروت بالمتمردين هو انهم كانوا يسألون القنصليات الاوروبية عن موقف دولها من العصيان بايعاز من المتمردين انفسهم (٥٩) .

ومن المعروف ان نعيم طراد وهو احد بورجوازيي بيروت كان

---

٥٨ ــ I. de Testa Recueil destraités..., t. p. 76.

٥٩ ــ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » د. ٧٠١ ، ل ٣٦ .

من المساهمين في العصيان (٦٠) . وكان مجلس متمردي سهل بيروت المؤلف من افراد الشعب يتمتع بتأييد التاجر الريفي (وكان المجلس يعقد جلساته في دكانه) ثم ان احد القادة العسكريين في هذا الاقليم كان ابو سمرا غانم وهو ابن حجار ومن ممتهني التجارة سابقا .

كان هذا يجعلنا نرجح مشاركة العناصر البورجوازية في العصيان وفي قيادته . وربما كان يوجد الى جانبهم في قيادة العصيان اقطاعيون صغار من اتباع المشايخ والامراء وفلاحون اغنياء ورجال من مختلف الفئات الاجتماعية اتخذوا من الخدمة العسكرية مهنة لهم (مثل يوسف الشنتيري) .

ويحوز دارسو عصيان ١٨٤٠ في لبنان على وثائق تمكنهم من تكوين فكرة عن ايديولوجية قادة العصيان وتعطيهم مواد اضافية لتحديد وجه هؤلاء القادة الاجتماعي . ونقصد بهذا تلك الرسائل التي وجهها المتمردون للاهالي والامير امين والدول الاوروبية (٦١)

---

٦٠ ــ Adel, Ismail, Histoire du Liban..., p. 158.

يقول ب. اوسبينسكي عن نعيم طراد ، المترجم الرسمي في القنصلية الانكليزية انه « وكيل الارثونكس في جبل لبنان : يدبر لهم أعمالهم ويتلقى منهم الهدايا مقابل ذلك » . وقد كان ياخذ لنفسه مداخيل الاديرة بتفويض من الحكومة (ب. اوسبينسكي : كتاب « حياتي » . الجزء الثالث بطرسبرغ ١٨٩٦ الصفحات: ١٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٤٠ ، ٥٩٨) . وقد كانت أسرة طراد مشهورة في بيروت « بغناها وتجارتها وكذلك بادبائها وشعرائها » جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، الجزء الثاني الصفحة ٢٢٢ .

٦١ ــ لقد وصلنا النص الكامل لنداء الثامن من حزيران ، ثم ان هناك عرضا موجزا لرسالة أخرى في كتاب ك. م. بازيلي (« سوريا وفلسطين » ... صفحة ١٩١) ويورد عادل اسماعيل فقرة من منشور أهالي دير القمر كما يتحدث عن نشرات دورية كان يصدرها سكان المدينة .
Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 55, 58).

ان توجه المتمردين برسائل الى الدول الاوروبية كان بتحريض من عملاء هذه الدول لاستخدام العصيان لمصلحتهم . ومن المعلوم أن ملحق السفارة البريطانية في استامبول اللورد بونسونبي قد جاء سرا الى معسكر المتمردين في سهل بيروت . اما ريتشارد ود الذي كان يقوم بدور رجل الاستخبارات الانكليزية في لبنان (أسرخ « السفارة في القسطنطينية » فقد كان يقوم بالدعاية الى جانب العصيان

ولكن اسماء مؤلفي هذه المنشورات والرسائل غير معروفة لدينا ، وكل ما نعرفه بهذا الصدد هو ان اكثرية هؤلاء كانت موجودة في عامية بيروت (٦٢) .

وقد كتب ك . م . بازيلي وعادل اسماعيل عن مساهمة المبشرين الكاثوليكيين في الدعاية للعصيان وصياغة المناشير (٦٣). بيد آن تحليل منشور الثامن من حزيران ، المفعم بالروح الوطنية يجعلنا نشك في صحة هذه الاراء .

ومن جملة ما جاء في هذا المنشور : « يا ابناء وطننا الاعزاء. لقد بدأت الحكومة بتطبيق سياسة شريرة ومحقرة لبلدنا بتفريقها ايانا عن طريق الكذب والوعود الفارغة ... فلنعلن العصيان دون خوف لان الطغيان الذي دفعنا الى التطرف يريد ان يهدم وطننا.. واعلموا سلفا ان الندم لن ينفعنا بعد ذلك اذا نحن انقسمنا على بعضنا لا سمح الله في اي وقت كان أو فوتنا فرصة جمع قوانا من اجل انتزاع حريتنا » .

وقد كان التوجه للاله في المنشور عملا تقليديا قبل اي شيء اخر . اذ آن مؤلفيه لم يلجأوا الى العقائد اللاهوتية لاقامة الحجة على سلامة موقفهم ، مما ينسجم تماما مع آراء الثوريين السوريين في نهاية السنوات الاربعين . وقد ورد في مقدمة اعمال الجمعية

واعدا المتمردين بدعم مسلح من انكلترا) .

وبالرغم من التعليمات الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة الفرنسية (حليفة محمد علي) الى قنصلها بان يعمل على تهدئة البلاد ، فان القنصل الفرنسي كان أيضا « في علاقات وثيقة ومشبوهة مع المتمردين وكان يساعدهم بشتى الوسائل » (أسرخ « السفارة في القسطنطينية ») .

٦٢ ــ لقد كتبت الرسائل الموجهة الى الباب العالي والدول الاوروبية ، حسب اقوال طنوس الشدياق ، في مجلس عامية بيروت (كتاب ... صفحة ٥٩٥) وهناك، على الارجح ، كتبت كذلك الرسالة الموجهة الى الامير أمين والتي كانت تحتوي على الاسباب الداعية لوضع المطالب التي قدمتها العامية للامير بشير اثناء المفاوضات . ان العلاقة الوثيقة بين هذه الرسالة ومنشور ٨ حزيران وطابع المطالب والاستشهاد بموقف دير القمر تجعلنا نميل الى الرأي القائل بان هذا المنشور قد صدر من بين صفوف المتمردين البيروتيين .

٦٣ ــ ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٢ .
— Adel Ismail, Histoire du Liban..., 87.

السورية ان « المسائل الخلافية في الاديان والاحكام لا تتعلق بهذه الجمعية (٦٤) .

ان الاستشهاد بما جرى في اليونان هو وحده ما يجعلنا نخمن ان المنشور قد كتب في وسط مسيحي . بيد آن المنشور يحتوي ايضا على فقرة مكتوبة تحت تأثير الدين الاسلامي وايمانه بالقدر المكتوب ، وهي : « ان الموت يصيب الجميع على السواء :من ينتظره بجبن في منزله ومن يتمرد في سبيل التحرير من نير الاضطهاد ». وتدل كل الشواهد على آن مؤلفي المنشور من الناس المثقفين ثقافة شرقية ومن اللبنانيين الذين لديهم تصورات ضبابية عن تاريخ اوروبا (وخصوصا فرنسا) . فالمفاهيم المأخوذة من قاموس اوروبا السياسي يضفي عليها معنى ضيق جيدا بتطبيقها على الواقع السوري ، ولهذا نجد ان مفهوم الحرية مثلا يمكن أن ينطبق برأيهم سواء على حالة فرنسا المعاصرة او على وضع سوريا السياسي قبل الغزو المصري ، والمنشور مفعم بروح العداء للظلم وبشجب نزعة انعزال الطوائف الدينية وانغلاقها . كما ان هذه الافكار منتشرة في نداءات المتمردين الاخرى .

« وقد جاء في الرسالة الموجهة الى الامير امين :

لقد وصل الاضطهاد بنا الى الحد الاقصى ونحن مضطرون للتمرد كي نتحرر من الظلم وننال الطمأنينة والحرية (٦٥) كما جاء في الرسالة الموجهة الى السفير الفرنسي :

« ان ابشع اشكال الظلم قد اجبرتنا على حمل السلاح للذود عن حياتنا وشرف آسرنا ضد قسوة الجنود المصريين ... ان قضيتنا عادلة » (٦٦) .

بيد آن البرنامج السياسي في وثائق المتمردين متناقض وغير محدد . فقد جاء في منشور ٨ حزيران « اما من جهتنا فقد عزمنا على نيل استقلالنا او الموت دون ذلك » . ويقسم المتمردون في منشورات اخرى « على الاخلاص للسلطان ويشرحون شكاواهم ضد المصريين ويصورون بعبارات توراتية محمد علي وابراهيم كخلفاء اكفاء للفراعنة مضطهدي رعايا الله (٦٧) . وفي تموز كتب افراد

٦٤ ــ أعمال الجمعية السورية ببيروت (١٨٥٢) .

٦٥ ــ I. de Testa, Recueil des traites..., t. III, pp. 79, 80.

٦٦ ــ Ibid., p. 83.

٦٧ ــ ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ، صفحة ١٩١ .

عامية بيروت رسالة للسلطان يلتمسون منه العون وجاء في الرسالة الموجهة لسفير فرنسا « انا نرغب في ان يسمح لنا بالعودة الى حظيرة سلطاننا » (٦٨) ان كل هذا يدل على وجود شتى الاراء والنزعات السياسية بين قادة العصيان وعلى عدم نضج نظراتهم السياسية .

ان الشعور الوطني وشجب الانعزال الطائفي ومناهضة الظلم هي من الامور المميزة لدى الثوريين السوريين ـ اللبنانيين . ومن المعروف ان المثقفين اللبنانيين الوثيقي الصلة بالوسط البورجوازي الناشيء كانوا ينشرون ويطورون افكار ومثل التنوير . ثم ان هناك شاهداً ثالثا يقنعنا بأن كاتبي الوثائق كانوا من ممثلي الفئة الثالثة (*) في المجتمع ، فقد عرض اصحاب الرسالة الموجهة الى السفير الفرنسي شروطهم لعودة سلطة الباب العالي الى سوريا كالتالي : « اننا نطالب فقط بامتيازات وحقوق الخط ـ الشريف الذي منحه حاكمنا العالي الهمة الى جميع اتباعه الامناء دون استثناء او تمييز » (٦٩) .

لا شك في ان مثل هذا الطلب يمكن ان يصدر بالدرجة الاولى من الاوساط التجارية ـ الصناعية المسيحية .

ان كل هذا يؤكد الفرض القائل باقتراب العناصر البورجوازية من مركز قيادة العصيان . وقد ادى اشتراك هذه العناصر اشتراكا نشيطا في حياة لبنان السياسية الى تعميق الحركة المناهضة للاقطاعية والى ولادة التنوير في المجال الايديولوجي . وكان هذا هو الحصيلة الهامة التي اسفر عنها عصيان عام ١٨٤٠ .

اعادة الحكم التركي الى سوريا

في الخامس عشر من تموز عام ١٨٤٠ عقدت بريطانيا العظمى وروسيا والنمسا وبروسيا في لندن معاهدة مع تركيا تضمن لمحمد

---

٦٨ ـ I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 82.

(*) نسبة الى التقسيم التقليدي للمجتمع الاوروبي ما قبل الثورة الفرنسية حيث يمثل النبلاء الفئة الاولى والاكليروس الفئة الثانية وبقية المجتمع الفئة الثالثة « البرجوازية فيما بعد » (ملاحظة من المعرب) .

٦٩ ـ Ibid., p. 83.

علي الحكم المتوارث في مصر وولاية فلسطين طوال مدة حياته ، وتلزمه بسحب جيشه من سوريا وشبه الجزيرة العربية خلال عشرة ايام وارجاع الاسطول الذي استولى عليه الى الاتراك ، والا فانه يحرم من حقه في فلسطين بعد عشرة ايام من فوات الموعد الاول . وقد أعلنت الدول الكبرى عن انها ستعمل على تنفيذ المعاهدة بالقوة اذا اقتضى الامر .

ولقد كانت معاهدة لندن نصرا دبلوماسيا كبيرا لانكلترا التي استطاعت ان تعزل سياسيا منافستها فرنسا عن الشرق الادنى وان تحصل كذلك على امتناع روسيا عن الانفراد بأي خطوة تجاه تركيا وذلك خلافا لما كانت تنص عليه معاهدة (خنكيار اسكله سي) .

وكانت انكلترا تتمتع بملء الحرية في القيام بأي عمل في سوريا في حالة وقوع الحرب . ولم تكن حكومة بريطانيا العظمى لتتورع عن استعمال هذا الحق .

وفي الرابع عشر من اب عام ١٨٤٠ وصلت الى بيروت طليعة اسطول الحلفاء بقيادة (الادميرال) الانكليزي نيبير ، « فارتجت البلاد » (٧٠) لهذه الحادثة حسب تعبير طنوس الشدياق . وبما ان نجاح العمليات الحربية كان يتوقف على دعم سكان سوريا ولبنان لجيش الحلفاء فقد توجه نيبير بدعوة للجنود الاتراك والسوريين الخادمين في الجيش المصري ولاهالي لبنان واخبرهم ان الدول الاوروبية تنوي البدء بالحرب ضد محمد علي ودعا الجنود الى الانضواء تحت لواء « والي السلطان الشرعي » (٧١) ودعا الاهالي الى النهوض ضد الحكومة المصرية . وقد جاء في النداء « يا سكان لبنان ... انهضوا والقوا ، فقد آن الاوان ، بالنير الذي ترزحون تحته » (٧٢) .

وقد رفض محمد علي الاعتراف بالمعاهدة لانه كان يعلق الآمال على مساعدة فرنسا له . فحاصرت المراكب الانكليزية الساحل السوري واعلنت الحكومة المصرية في السادس والعشرين من اب عام ١٨٤٠ حالة الحرب في سوريا .

---

٧٠ ـ طنوس الشدياق ، كتاب ... صفحة ٦٠٢ .

٧١ ـ ك . م . بازيلي : سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٦ .

٧٢ ـ M. Jouplain, la question du Liban, Paris, 1908, p. 227.

وقد ارسل الامير بشير فرقا من رجاله الى المناطق الشمالية والمركزية في الساحل اللبناني ليمنع السكان من الاتصال برجال الاسطول . فأخذت هذه الفرق تنتقم من الرعايا بجمع السلاح والخيل والغرايم (٧٣) . وفي السادس والعشرين من اب اصدر قائد الجيش المصري سليمان باشا امرا يقضي باعدام كل من يحمل الى سوريا او يوزع فيها « مؤلفات أو مناشير هدفها التحريض على شق عصا الطاعة والعصيان » . وكان الاحتفاظ بمثل هذه المؤلفات يودي بصاحبه الى السجن . ووجهت السلطات دعوة الى كافة السكان لتسليم « جميع المؤلفات او المناشير التي يوزعها المحرضون على العصيان » (٧٤) الى السلطات المحلية . ان هذا كله يدلنا على انتشار المطبوعات المعادية للحكم انتشارا واسعا في البلاد .

وقد توجه الامير بشير كذلك بأمر مشابه لسكان لبنان (٧٥). وكان المرسومان يمنعان ايضا توزيع الاسلحة تحت طائلة الاعدام .

وفي العاشر من ايلول وصلت الى ميناء بيروت مفرزة بحرية متحدة اشتركت فيها انكلترا بأحد عشر مركبا وست فرقاطات وخمس سفن شراعية حربية وخمس بواخر وبطاريتين من مدفعية الانزال والنمسا بفرقاطتين وثلاثة سفن اخرى وتركيا ببضعة سفن بقيادة الانكليزي فوكر المجند في الجيش التركي . وقد اوكلت مهمة قيادة المفرزة البحرية وكل العمليات البرية للادميرال الانكليزي ستوبفورد (٧٦) . وكانت القوى المتحدة البرية ضئيلة جدا وتتألف من لواء تركي يضم خمسة الاف واربعمئة انسان ، وفصيلة انكليزية للانزال تضم الفي شخص وسرية نمسوية تتألف من خمسمئة انسان . واما جيش الباشا فقد كان يتألف من خمسة وسبعين الف

---

٧٣ ـ طنوس الشدياق ، كتاب ... صفحة ٦٠٣ .

٧٤ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية وقد جاء نص الامر كذلك في كتاب عادل اسماعيل .

٧٥ ـ Histoire du Liban..., p. 92.
I. de Testa, Recueil destraite..., t. III, p. 83.

٧٦ ـ ك . م . بازيلي ـ سوريا ولبنان ... صفحة ١٩٩ .

جندي مما جعل توازن القوى بعيدا كل البعد عن التساوي .

بيد ان الدفاع عن سوريا كان امرا صعبا وشاقا بالنسبة للجيش المصري اذ أن قطع الاسطول كانت تستطيع المناورة بسهولة على طول الساحل السوري واختيار مكان وزمان انزال الجنود من البحر .

وفي صباح الحادي عشر من ايلول عام ١٨٤٠ نزل الجنود الاتراك والانكليز الى جونية وهي بلدة ساحلية صغيرة واقعة في سفوح جبال لبنان شمالي بيروت . وقدجعلها موقعها مكانا مناسبا للاتصال برجال الجبال . وفي غضون بضعة ايام تم تشكيل معسكر محصن (٧٧) واطلقت المراكب قذائفها من البحر فخربت الطريق المؤدي الى بيروت كما صبت نيرانها على المدينة نفسها .

وفي الشهر التالي انزل الحلفاء الى البر جنودا جددا واستولوا على منطقتي البترون وجبيل الساحليتين وعلى مدينة صيدا . ولكنهم لم يقوموا بأية عمليات برية للتوغل الى داخل البلاد ، واقتصروا على تسليح السكان .

وقد كان ظهور المفرزة البحرية الاتحادية عند شواطىء سوريا سببا في هياج الكسروانيين على اعوان الامير المامورين بردع الناس عن أخذ السلاح فولى هؤلاء هاربين (٧٨) . واخذ الفلاحون يأتون الى معسكر جونية جماعات ووحدانا . وقد أبلغ ك . م . بازيلي في ايلول « ان اكثر من خمسة الاف جبلي قد اتى الى المعسكر هذا اليوم طلبا للسلاح . ولكن هؤلاء الناس يخافون من وجود الجيش المصري » (٧٩) . وفي تلك الاثناء بلغ عدد الجيش المصري في لبنان آثني عشر الف جندي .

وقد اتى الى جونية كذلك الاقطاعيون المنحازون الى جانب الاتراك . وظهر ابو سمرا غانم من جديد على مسرح السياسة بعد ان حصل على اربعة الاف بندقية لتسليح رجاله .

وبلغ عدد الاسلحة التي وزعت حتى منتصف تشرين الاول

---

٧٧ ـ ك . م . بازيلي كان في المعسكر بعد عشرة ايام من نزول الجنود وقد ذكر ان المعسكر كان محصنا تحصينا جيدا .

٧٨ ـ طنوس الشدياق في كتاب ... (٦٠٣) .

٧٩ ـ ا س د خ « السفارة في القسطنطينية » د . ٧٠١ ، ل ٦٤ .

حدود الثلاثين الف بندقية (٨٠) . وكانت فرق الفلاحين المسلحة تهجم على فرق الجيش الامامية وعلى قوافل العربات وتقطع الطريق على المراسلات وتلقي الذعر في صفوف الجيش المصري باستمرار، مما أدى الى لجم نشاط الجيوش المصرية .

وكان الوضع الداخلي في لبنان يقلق القيادة المصرية اشد القلق . وقد اقترح الامير بشير والمقربون من ابراهيم باشا في الاجتماع الذي دعا اليه هذا الاخير ان ينزلوا عند مطالب الاهالي، ولكن الباشا أصر على اتخاذ تدابير قمع قاسية . وقال ، حسب تعبير طنوس الشدياق ، « الرأي عندي اخراب السواحل لمنع الناس عن الافرنج » (٨١) واخذ جيش ابراهيم باشا يعمل لاخماد العصيان والحؤول دون اتصال السكان بمعسكر جونية . وتحقيقا لهذا الهدف وزع قائد الجيش المصري جنوده الموجودين في لبنان الى أجزاء وبعث جزءا منها الى الشمال الغربي لمنع اللبنانيين من الاتصال بجونية ، وامسك الجزء الاخر بمفتاح الساحل اللبناني- مدينة بيروت ، وشرع الجزء الثالث بعمليات القمع . وظل ابراهيم باشا في محاولات مستمرة لاخماد العصيان حتى بداية تشرين الاول دون ان تسفر جهوده عن نتيجة .

وفي الرابع من تشرين الاول هاجم الكسروانيون بدعم من فصائل الجيش التركي جيوش ابراهيم باشا . فاعلن السر عسكر انه ينعم عليهم « لبسالتهم وثبوتهم » بترك مال كسروان على ثلاث سنين (٨٢) وذلك لكي يشدد من نشاط اهالي لبنان .

وانتشر مرض الزحار بين جنود ابراهيم باشا حتى انهم اصبحوا يشكون من قلة الاطباء والمعدات الطبية والاغذية ،وانتشر

---

٨٠ – M. Jouplain, la question du Liban, p. 233.
قامت فرقة الجنود النازلين على شواطىء لبنان بتوزيع الاسلحة في ولاية صيدا ومعلقة الدامور بهدف نشر العصيان الى جنوب ووسط لبنان . ويذكر طنوس الشدياق ان القيادة التركية ارسلت الى مقاطعة الشحار الامراء الشهابيين من عبيه « لتشديد الرعايا » . (طنوس الشدياق كتاب ... صفحة ٦٠٨) .

٨١ – طنوس الشدياق . كتاب ... صفحة (٦٠٥) .

٨٢ – طنوس الشدياق صفحة ٦٠٦ . راجع أيضا (British and Foreign state papers, 1846-1847), vol. XXXV, London 1860, p. 869.

الفرار من الجندية على نطاق واسع . واضطر ابراهيم باشا للتراجع الى بعلبك وما لبث هذا التراجع ان تحول الى فرار مشحون بالذعر والفزع . وترك الجيش المصري كل ما معه من عربات في ضواحي بيروت .

وفي التاسع من تشرين الاول سقطت بيروت . واضاع المصريون حكمهم في لبنان .

وقد ظلت فرنسا حتى شهر تشرين الاول تقعقع بالسلاح وتبعث الامل بتدخلها المسلح في نفس محمد علي في مصر والامير بشير في لبنان . ولكن لم يكن هناك ميل لدى لويس فيليب او البورجوازية الفرنسية الكبيرة باشعال نار حرب اوروبية . وفي الثامن من تشرين الاول ارسل تير بضغط من الملك مذكرة الى لندن أعلن فيها ان فرنسا لن تجعل من القضية السورية Casus belli واعقبت هذا استقالة تير ، واوكل منصب وزير الخارجية في حكومة المارشال سولت الجديدة الى ف . غيزو وهو من انصار الاتحاد الوثيق مع انكلترا . وفي التاسع والعشرين من تشرين الاول عام ١٨٤٠ اعلنت الحكومة الفرنسية في بيانها للبرلمان عن املها بحل المشكلة حلا سلميا (٨٣) .

وقد اجبرت هزيمة الجيش المصري في لبنان وموقف فرنسا الامير بشير على الكف عن المقاومة . وفي الرابع عشر من تشرين الاول قدم الامير بشير الى صيدا بصحبة العديد من أعوانه ، ثم غادر لبنان باذن من القائد التركي الى منفاه في جزيرة مالطا .

وقد حاول ابراهيم باشا أن يعيد تنظيم جيشه في بعلبك . ولكن سكان الجبال كانوا يعرقلون تحقيق هذا الهدف بهجماتهم المستمرة . واصبح لبنان يملك فرقة منظمة من المتطوعين بقيادة احد اقرباء الامير بشير الثاني البعيدين وهو الامير بشير قاسم ملحم الذي دعاه الاتراك الى جونية واعلنوه حاكما للبنان في الثالث من ايلول بعد أن رفض الامير بشير الانحياز الى جانب الحلفاء .

وفي الايام الاولى من تشرين الثاني استولى الحلفاء على عكا بعد ضربها بالقنابل فادى هذا الى نشوب العصيان في فلسطين ثم في لبنان الشرقي وحاصر الفلاحون والبدو يافا والرملة واللد

---

٨٣ – راجع M. Jouplain, La question du Liban, pp. 231, 232.

والقدس وانتقموا من بقايا الحامية في عكا (٨٤) .

وفي نهاية تشرين الثاني تراجع ابراهيم باشا من بعلبك الى دمشق ، وسرعان ما غادر الجيش المصري شمال سوريا . وفي التاسع والعشرين من كانون الاول غادر المصريون دمشق ، ولم تحل الايام الاخيرة من كانون الثاني عام ١٨٤١ حتى نظفت البلاد من القوى المسلحة المصرية (٨٥) . ودخل الجيش التركي الى سوريا دون ان يجد امامه اية مقاومة .

ولم تمر الاشهر الاربعة الاخيرة من عام ١٨٤٠ على لبنان دون ان تترك اثراً فيه . فاذاً كان عدد المشتركين في عصيان صيف ١٨٤٠ بلغ ما بين السبعة الاف والثمانية الاف انسان فان عدد البنادق التي وزعت في هذه المرة بلغ ما بين العشرين الف والثلاثين الف بندقية . مما يجعلنا نستنتج ان عدد المشتركين الفعالين في العصيان المناهض للمصريين قد اصبح اكثر بمرتين مما كان عليه على أقل تقدير . فقد تسلح ثلث الفلاحين القادرين على حمل السلاح تقريبا ، مما يمكن ان يسفر عن عواقب جدية في ظروف احتداد التناقضات الاجتماعية .

ان دعاية الحلفاء لصالح العصيان وانتشار المطبوعات المعادية للحكومة ساعدا على تطور التفكير السياسي عند اهالي لبنان . وخلق الدور الذي لعبه اللبنانيون في العمليات الحربية ثقة لديهم في قوتهم . وليس من قبيل الصدفة ان يكتب الجبليون للسلطان في عام ١٨٤١ ان اللبنانيين ليسوا بحاجة لحماية الباب العالي فهم قادرون على الذود عن انفسهم بأنفسهم .

ان التقدم الذي حدث في الوعي الاجتماعي للسكان خلال عام ١٨٤٠ والنصف الاول من عام ١٨٤١ قد جعل ك . م . بازيلي يكتب عن حق « ليس من الممكن بعد تقييم طابع الثورة المعنوية التي عمت البلاد بقوة ، فقد اندثرت العادات القديمة المتوارثة عن العهد

---

٨٤ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » د . ٧٠١ ل ٩٩ .

٨٥ ـ خسر المصريون خسائر عظيمة في غضون العمليات الحربية الممتدة من ١٠ ايلول ١٨٤٠ وحتى ٣١ كانون الثاني ١٨٤١ : فقد عاد الى مصر من جيش يعد خمسة وثمانين الف جندي ما يزيد قليلا عن عشرين الف جندي ا س د خ «السفارة القسطنطينية » .

الابوي » (٨٦) .

واسفرت حوادث خريف عام ١٨٤٠ عن نتائج هامة في السياسة الخارجية . فحتى السنوات الثلاثين لم يكن يلاحظ في لبنان سوى سيطرة التأثير الفرنسي وحده تقريبا .

اما الآن فقد تغير الوضع وامتلأت البلاد بالعملاء والضباط والرحالة الانكليز . وازداد وزن انكلترا السياسي في لبنان الى حد بعيد نتيجة اشتراكها في العمليات الحربية ، مما زاد في حدة التنافس الفرنسي ـ الانكليزي .

---

٨٦ ـ ا س د خ « السفارة القسطنطينية » .

الفصل الثالث

الصّدامات بين الدّروز والموارنة عامي ١٨٤١ و١٨٤٥ وجوهرها الاجتماعي

* حول تاريخ القضيّة
* الوضع السّياسي في سوريا عام ١٨٤١
* الصّدامات بين الدروز والموارنة عام ١٨٤١
* اصلاحات الحكم السّياسي في لبنان واستفحال أمر الرّجعيّة الإقطاعيّة
* الصدامات بين الدروز والموارنة عام ١٨٤٥

الصدامات بين الدروز والموارنة
عامي ١٨٤١ و ١٨٤٥ وجوهرها الاجتماعي

حول تاريخ القضية

جرت التقاليد في كتب التاريخ على النظر الى السنوات العشرين التالية من تاريخ لبنان كفترة للصدامات بين الدروز والموارنة اي الاشتباكات المسلحة بين طائفتي الدروز والموارنة الدينيتين اللتين تشكلان الجمهور الاساسي من سكان البلاد .

وكانت الصدامات قد لاقت صدى واسعا لها في الصحافة الاوروبية وكتب عنها الكثير من المؤلفات . ولا تزال العلاقات المتبادلة بين هاتين الطائفتين من السكان موضع الاهتمام حتى ايامنا هذه بدليل صدور كتاب عادل اسماعيل في سنة ١٩٥٨ ، المكرس لتاريخ لبنان منذ عام ١٨٤٠ وحتى عام ١٨٦٠ (١) . ويعود السبب في هذا الاهتمام الى ان مسألة العلاقات بين الدروز والموارنة لا تزال تؤثر في حياة البلاد السياسية حتى وقتنا هذا. فلا يزال يعمد حتى الان في فترات احتداد الازمات السياسية والاجتماعية الى محاولة تأجيج نار العداوة بين الدروز والموارنة، كما جرى ابان الانتفاضة الشعبية عام ١٩٥٨ .

وكان السؤال الاول الذي عالجه باحثو القضية الدرزية ــ المارونية يطرح كالتالي : هل هناك عداوة بين الدروز والموارنة قبل

1 — Adel Ismail Histoire du Liban...

احداث الاعوام الاربعين من القرن التاسع عشر ؟

يسود بين المؤرخين الفرنسيين الرأي القائل بوجود عداوة اصيلة بين « العروق والديانات » في لبنان ، كما يأخذ عادل اسماعيل بهذا الرأي كذلك (٢) . ومن الامور المميزة لانصار هذا الرأي التأكيد على الفروق الجنسية بين الدروز والموارنة . ان الدوافع الاصيلة لمثل هذه النظرة تعود الى اسباب سياسية محضة وهي على وجه التحديد : محاولة وضع أساس فكري لتدخل فرنسا في شؤون لبنان ولسياسة الوصاية على الموارنة الذين يكابدون من التزمت العقائدي الدرزي منذ القدم ، حسب زعم اصحاب هذه النظرية .

اما المؤرخون العرب ، فهم على العكس يؤكدون وحدة الطائفتين وينفون وجود العداوة بين الدروز والموارنة حتى بداية القرن التاسع عشر . وقد وجدت هذه النظرية تعبيرا عنها في دعاية الثوريين السوريين عام ١٨٦٠ (٣) ، ولدى معاصري الاصطدامات الدرزية ـ المارونية مثل حسين ابو شقرا (٤) واسكندر ابكاريوس (٥) .

كما يأخذ بمثل هذا الري ايضا بعض الكتاب الاوروبيين كالمحرر الاجتماعي الدبلوماسي ورجل السياسة الانكليزي د . اوركهارت (٦) الذي زار لبنان فيما بين السنوات الاربعين

---

٢ ـ Ibid., p. 105.

(*) ملاحظة من مقدم الكتاب : لا نعتقد ان المؤلفة على حق في اعتبار عادل اسماعيل من هذا الرأي ، والجملة التي استندت اليها لا تكفي لهذا الاطلاق في راينا خاصة وان الاتجاه العام لكتاب عادل اسماعيل لا يسمح به . اما الجملة التي تظن المؤلفة قد اشارت اليها في الصفحة ١٠٥ فهي : « ان العداوات العرقية والدينية واختلاف المصالح التي احتوتها شدة الامير بشير ، قد عادت وانفجرت بشدة في ظل حكم خلفه الضعيف » .

٣ ـ ز . ا ي . ليفين : عن نشاط بعض الجمعيات التنويرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ « الانباء الوجيزة لمعهد الاستشراق » الاصدار ٧١. موسكو ١٩٥٨ .

٤ ـ ابو شقرا : الحركة

٥ ـ Iskandar Abkarius, The Lebanon in turmoil..., p. 60.

٦ ـ Durquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 48.

والخمسين والكولونيل الانكليزي تش تشيرشيل (٧) الذي اقام في لبنان حوالي العشرين عاما منذ سنة ١٨٤١ ، والكاتب الاجتماعي الفرنسي ادوارد (٨) . والقنصلان الروسيان ك . م . بازيلي (٩) و ك . د بتكوفتش (١٠) والكاتب الروسي ن . بيرغ الذي عاش في لبنان عام ١٨٦٠ (١١) .

والواقع أن مؤرخي الاخبار العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يذكروا شيئا عن العداوة بين الدروز والموارنة ، شأنهم شأن الرحالة الاوروبيين في القرن الثامن عشر بمن فيهم ك . ف فولني (١٢) ، شاهد العيان الموثوق الذي قضى في لبنان شهورا عديدة .

وهم يرون أسباب ظهور هذه العداوة منذ بدء القرن التاسع عشر في تغير نسبة القوى السياسية داخل الطبقة الاقطاعية لصالح الاقطاعيين الموارنة ، هذا التغيير الناتج عن سياسة بشير (١٣) « المعادية للدروز » .

ولا شك ان سياسة الامير بشير « المعادية للدروز » والتي هي نتيجة النزعة نحو مركزة السلطة في البلاد ، قد لعبت دورها في اضعاف مواقع الاقطاعيين الدروز السياسية .

ثم أن اعتناق البيت الحاكم للمسيحية وتعاظم نفوذ الاقطاعيين المسيحيين ورجال الدين الموارنة في سياسة لبنان الداخلية ، والحوادث المرتبطة باحتلال المصريين لسوريا ، عملت كلها على تعزيز

---

٧ ـ Ch. Churchill, The Druzes...

٨ ـ R. Edwards, La Syrie 1840-1862..., p. 79, 50 etc.

٩ ـ ك . م بازيلي سوريا وفلسطين ... اوديسا ١٨٦٢ صفحة ١٧٦ .

١٠ ـ ك . د بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . صفحة ١١١ .

١١ ـ ن . بيرغ : الحوادث الاخيرة في سوريا ـ « مكتبة للقراءة » ١٨٦٣ تشرين الاول .

١٢ ـ C.-F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie.

١٣ ـ وهذه هي وجهة نظر ابي شقرا (الحركة من صفحة ٢٥ الى صفحة ٣٠) وعادل اسماعيل (Adel Ismail, Histoir du Liban..., p. 128). وتش . تشيرشيل (Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 41-42). وو . بولك (W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 123).

مواقع الارستقراطية المسيحية في المجال السياسي . ان الجماعات الاقطاعية المختلفة التي شاركت في كافة الحوادث السياسية في لبنان حتى في ١٨٣٢ قد تشكلت بمعزل عن تأثير ديانات المشتركين فيها (فقد كان بين اليمنيين والقيسيين مثلا في عام (١٧١١) دروز ومسيحيون الى جانب بعض) . وكان احتلال الجيش المصري لسوريا من عام ١٨٣٢ الى ١٨٤٠ سببا في خلق اتجاهات سياسية مختلفة لدى الاقطاعيين الدروز والموارنة (١٤) .

فالامير بشير ، حليف محمد علي ، والمشايخ المسيحيون الراضون عن سياسة ابراهيم الباشا المتسامحة تجاه الاديان هللوا لدخول الجيش المصري الى سوريا . اما الاقطاعيون الدروز الكبار فقد اتخذوا موقفا معاكسا وانضموا الى معسكر جيوش السلطان . ثم تراجعوا مع الجيش التركي الى الاناضول ، وبعد هزيمة الاتراك قرب نيزيب في عام ١٨٣٩ تحول مشايخ الدروز لخدمة محمد علي (١٥) . بينما اصبحت الارستقراطية المسيحية في ذلك الوقت تقف موقف المعارضة من السلطات المصرية .

كما اختلف موقف الطائفتين كذلك من الانتفاضات المعادية للمصريين في لبنان عام ١٨٤٠ . ولم يشارك في عصيان صيف ١٨٤٠ سوى الاقطاعيون الدروز الصفار . كما ان الارستقراطية الدرزية الكبيرة لم تشارك في العمليات الحربية ضد المصريين في خريف ١٨٤٠ الا في المرحلة الاخيرة ، بينما كان الاقطاعيون المسيحيون يقوون سمعتهم السياسية بمشاركتهم الفعالة في العصيان وخاصة في العمليات الحربية الى جانب الحلفاء .

ويلاحظ مشاهدو حوادث الاعوام الاربعين الى جانب هذا اسبابا اقتصادية لظهور العداوة بين الدروز والموارنة ، وهي على وجه التحديد : احتلال الموارنة المتزايد لجنوب ووسط لبنان واثراء المسيحيين (١٦) . والتدهور الاقتصادي الذي اصاب الفلاحين الدروز . وقد كتب عن هذا ابو شقرا و ك . م . بازيلي

---

١٤ ـ وقد اشار الى هذا ابو شقرا (الحركة صفحة ٣٢) ابكاريوس (Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoil..., pp. 51, 59).

١٥ ـ ومن بينهم كبير عائلة النكديين وهو الشيخ ناصيف النكدي ، وكبير تلحوق والمشايخ خطار الهاد وفارس العيد واحمد جنبلاط وغيرهم .

١٦ ـ المقصود هنا تكاثر الفئة المسيحية التي تزاول التجارة والربا .

كما اولاه ف . بولك (١٧) اهتماما كبيرا .

وكان الامير بشير يشجع انتقال الفلاحين الموارنة الى الاراضي الحرة في وسط لبنان هادفا من هذا الى غايات سياسية واقتصادية .

وقد اشار ابو شقرا و ك . م بازيلي وانيس فريحة و ن . بولك الى ان الاهالي المسيحيين كانوا اكثر نشاطا في المجال الاقتصادي (١٨) .

وكان الدروز يعتبرون ان الحرفة والتجارة من الاعمال غير اللائقة بينما كانت البسالة في الحرب تتمتع بتقدير عظيم لديهم . ولهذا فان الاقطاعيين الدروز خلافا للمسيحيين لم يشاركوا في العمليات التجارية وكان الفلاحون لا يعملون الا في الزراعة . وقد كان اعمار الموارنة لجنوب ووسط لبنان يساعد على تطوير الحرفة والزراعة في هذه المناطق وعلى حراثة الاراضي الحرة . وكان بشير يشجع على شراء اراضي الدروز والاستيلاء عليها من قبل المسيحيين الاغنياء والكنيسة المارونية (١٩) .

---

١٧ ـ ابو شقرا ، « الحركة » ، صفحة ٣٢ . ك . م . بازيلي : سوريا وفلسطين ، ١٨٦٢ ، صفحة ١٦٨ .

W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, pp. 127, 130, 137.

١٨ ـ ابو شقرا : الحركة صفحة ٢٥ ، و يكتب ك. م. بازيلي في كتابه سوريا وفلسطين ... (صفحة ١٦٨) « ان العشيرة (الدروز ـ المؤلفة) تقتصر في كل مكان على الاعمال الزراعية والرعي . ولا تجد في سوريا مدينة واحدة فيها درزي واحد من السكان . وحتى في قراهم الخاصة فان المسيحيين هم الذين يعملون بالتجارة والحرفة دائما .

ويذكر انيس فريحة ان الدروز كانوا يعتبرون ان من المحرم عليهم الحصول على وسائل المعيشة عن طريق غير طريق الزراعة .

(١٩) أبلغ القنصل الانكليزي الكولونيل روز من بيروت ان « مسيحيي دير القمر أغنياء واوضاعهم في ازدهار ، ويجمع الكثيرون منهم بين ملكية المنازل والاراضي التي كانت سابقا في حوزة الدروز ثم اخذها منهم الحاكم السابق الامير بشير .

(W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 280).

ومن الملاحظات الهامة التي تساعد على فهم الدوافع السياسية التي جعلت الامير بشير يتصرف على هذه الشاكلة ما ذكره اي. بوركهاردت من أن الضرائب المفروضة على فلاحي لبنان غير متساوية « فالدروز يشكلون الفئة الاغنى من السكان ولكنهم لا يدفعون سوى جزءا قليلا من مجموع الرسوم بفضل حماية الشيخ بشير جنبلاط لهم. ويفضل الشيخ أن يقف في المجال السياسي موقف المدافع لا موقف السيد » (٢٠) . وبتعبير اخر فقد كان الشيخ الدرزي ذو النفوذ الواسع يخلق عن وعي وضعا متحيزا للفلاحين الدروز ، ويقدس العلاقات المتوارثة من العهد الابوي بين الفلاحين والاقطاعيين الدروز مما كان يعود بالضرر على الفلاحين المسيحيين . وقد أتت هذه السياسة أكلها في عام ١٨٤١ عندما أيد الفلاحون الدروز اقطاعييهم أثناء نضالهم ضد الفلاحين الموارنة .

وقد حاول الامير بشير وأعوانه على ما يبدو نسف الدعامة السياسية التي يعتمد عليها الاقطاعيون الدروز بهدف توطيد مواقع الاهالي المسيحيين الاقتصادية في لبنان المتوسط .

وحوالي منتصف القرن التاسع عشر ازداد عدد السكان المسيحيين على عدد الدروز الى حد كبير . وقد أورد طنوس الشدياق معلومات عن تركيب سكان لبنان من حيث دياناتهم (أنظر الجدول) . (وهو لا يتحدث سوى عن الرجال دافعي الضرائب الذين يشكلون نصف مجموع السكان تقريبا) .

ويتوضح من هذه المعطيات ان الديانة المسيحية (المارونية) كانت تعم سائر جبل لبنان الشمالي تقريبا . كما ان المسيحيين كانوا يفوقون المسلمين (الدروز) عددا الى حد كبير في الجنوب . وكانت المنطقة الوحيدة التي يشكل فيها الدروز نصف السكان هي منطقة لبنان المتوسط . وكان ملاك الارض الاقطاعيون في جنوب ووسط لبنان من المشايخ الدروز (باستثناء الامراء اللمعيين) . وكان هذا التوزيع ينطوي على خطر وقوع اصطدامات بين الفلاحين الموارنة والمشايخ الدروز في حالة حدوث اضطرابات في البلاد .

٢٠ — J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 197.

جدول
التركيب الديني لسكان لبنان في أواسط القرن التاسع عشر

لبنان الشمالي

المقاطعة	المالكون	المسيحيون	الدروز	الاسلام
الزاوية	مشايخ آل الضاهر	١٧٣١	—	٦٠
الكورة	آل العازار (آلملكية)	٢٥٠٠	—	١٢٦
القويطع	مشايخ ابي صعب (موارنة)	١٤٥٨	—	١٣٩
جبة بشري		١٠٢٠٠	—	—
بلاد البترون		٦٨٠٣	—	١٨٨
جبيل		٥٠٠٠	—	١٠٠٠
جبة المنيطرة		٢٤٧٠	—	٢١٩٦
الفتوح	المشايخ الدحادحة	٢٠٩٩	—	—
كسروان	مشايخ بيت الخازن وبيت حبيش (موارنة)	١٠٠٤٤	—	١٩
القاطع		٤١٨١	—	—

لبنان المتوسط

المتن	آلامراء آللمعيون (موارنة)	٦٦٩٩	٢١٥٤	١٠٥
ساحل بيروت	الامراء الشهابيون (مسيحيون واسلام	٣٠٠٠	—	٣٠٠
الغرب الاسفل	الامراء الارسلانيون (دروز)	١٤٥١	١٠٨١	—
الغرب الاعلى	المشايخ التلاحقة (دروز)	١٥٦٣	٧٧١	١٠٠
الشحار	المشايخ النكدية (دروز)	١٦٣١	٩٩٠	—
الجرد	مشايخ بني عبد الملك (دروز)	٢٠١٦	٨٩١	—
المناصف	المشايخ النكدية (دروز)	٣٨٩٤	١١٣٨	١٠
العرقوب	المشايخ العمادية (دروز)	١٣٠٥	١١٥٣	—
الشوف	المشايخ الجنبلاطية (دروز)	١٣٢٥	٣٥١٧	—

لبنان الجنوبي

أقليم جزين	المشايخ الجنبلاطية (دروز)	٣٢٧١	٩٧	—
الشوف البياضي	الامراء اللمعيون (مسيحيون)	١١٤٧٣	—	١٠٠٠
أقليم التفاح	المشايخ الجنبلاطية (دروز)	١٧٨٤	٣١	—
أقليم الخروب	المشايخ الجنبلاطية (دروز)	١٥٠٢	٢٠٠	٨١٥
جبل الريحان	المشايخ الجنبلاطية (دروز)	٣٢٧	—	٦٨٦
	المجمـــوع	٨٧٧٢٧	١٢٠٢٣	٦٧٤٤

في السنوات العشر الاخيرة من حكم الامير بشير ساء جـدا وضع الفلاحين الدروز الذين جردوا من امتيازاتهم وقد نكل بأكابر الارستقراطية الاقطاعية الدرزية وأضاعوا نفوذهم السياسي . وقد ساعدت دورات التجنيـد في فتـرة الاحتلال المصري على التدهـور الاقتصادي للفلاحين الدروز وتقوية تبعيتهم للمرابـين والتجـار المسيحيين مما كان يؤدي بدوره الى نشوء العداوة بين الفلاحـين الدروز والمرابين المسيحيين .

هذه هي الجذور الاقتصادية والسياسية الداخلية لنشـوء العداوة بين الدروز والموارنة .

والى جانب هذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ان الامـير بشير وحاكم سوريا المصري ابراهيم باشا كانا يؤججان هذه العداوة عمدا في فترات استياء فئات السكان الواسعة . وقد أشار أبو شقـرا الى أن فرق الجنود المؤلفة من المسيحيين كانت تعيث فسادا في القرى وتهزأ من مقدسات الدروز (٢١) . وقد استخدم الامير بشير فـرق المتطوعين المسيحيين لاخماد عصيان المسلمين في نابلس ، وعصيان الدروز في حوران ولبنان الشرقي . فابان العصيان الدرزي في حوران في عامي ١٨٣٧ ــ ١٨٣٨ سلحت الحكومة المصريـــة المسيحيـين اللبنانيين الذين كانت تأمل باستخدامهم ضد الدروز .

وبالرغم من سياسة تفريق السكان في لبنان ووجود النزاعات الداخلية بين الدروز والموارنة قبيل عام ١٨٤٠ فقد هب كافة السكان هبة رجل واحد ابان العصيانين الصيفي والخريفي ضد الامير بشير والمصريين . وقد تجلت نزعة توحيد الاعمال في القسم الشهير الذي اداه ممثلو مختلف الطوائف الدينية اللبنانيـة في كنيسة القديس مار الياس في انطلياس .

فلماذا اذن عادت العلاقات بعد أقل من عام فتوترت بين الدروز والموارنة الى درجة وقوع الصدام المسلح بينهما لاول مرة في تاريخ لبنـــان ؟

اننا للأسف لا نستطيع القول بأن هذا السؤال قد وجـد حله النهائي .

فحوادث عام ١٨٤١ والصدامات المفاجئة المتشابكـة الفروع بين الدروز والموارنة لم تتح للعديد من المعاصرين بمن فيهم طنوس

---

٢١ ــ ابو شقرا « الحركة » صفحة ٢٦ » .

الشدياق الا رؤية الاسباب الطائفية على سطح الظواهر وهي على وجه التحديد : دوافع الثأر الشخصي لدى الاقطاعيين الدروز من الامير بشير قاسم ورغبتهم في ازاحة الامير الحاكم من منصبه (ويفسر طنوس الشدياق استياء الاقطاعيين الدروز من الامير بشير قاسم برفض الامير اعادة حقوقهم في المقاطعات) أما الاسباب التي دفعت بقية الدروز للاشتراك في الصدامات فيراها طنوس الشدياق في أنهم كانوا ينتقمون من الموارنة لقتل بعض أهالي بعقلين أثناء المشادة التي وقعت بين ماروني من دير القمر ودرزي من بعقلين . ويجد هذا التفسير قبولا له الى هذه الدرجة أو تلك لدى كافة من جاء بعد طنوس الشدياق من الباحثين المعتمدين على مراجع عربية .

وقد كشفت الصدامات التي وقعت في عام ١٨٦٠ بين الدروز والموارنة بسطوع الدور الاستفزازي الذي لعبته الدول الاوربية والسلطات التركية في الحوادث اللبنانية ، والذي لم يتوان اسكندر ابكاريوس عن الاشارة اليه (٢٢) . فقد أخذت الصحافة الفرنسية والانكليزية في السنوات الستين تتراشقان التهم وتفضح احداها الاخرى ، كما نشر عدد كاف من الاخبار المثيرة عن الاعمال الاستفزازية التيكانت تقوم بها السلطات التركية في لبنان . (لا ينبغي أن ننسى ان القضية اللبنانية أصبحت جزءا من المسألة الشرقية مما أثار اهتماما خاصا بسياسة تركيا في لبنان .) وهكذا أصبحت آفاق الصدام بين الدروز والموارنة في السياسة الخارجية محط أنظار الباحثين في تاريخ لبنان . ولهذا أصبح تأويل أسباب الصدامات بين هاتين الطائفتين يتطلب قبل كل شيء بحث السياسة الاستفزازية التي كانت تنهجها السلطات التركية والدول الاوربية الغربية . ويأخذ بهذه النظرة (مع اختلاف في تقييم سياسة كل واحدة من هذه الدول) الدبلوماسي الفرنسي أوجين بوجاد واللبناني بولس نجيم الذي أصدر في باريس عام ١٩٠٨ رسالة لنوال الدكتوراه بعنوان « المسألة اللبنانية » تحت الاسم المستعار « جوبلان » واللبناني ادمون بليبل مؤلف كتاب تاريخ لبنان الذي يدرس في المدرس . وناشر مخطوطات اسكندر ابكاريوس ج. شيلتيم وغيرهم . كما ينطلق من هذه النقطة كذلك الكتاب الاجتماعيون الفرنسيون أنصار البعثة الافرنسية الى سوريا في عام ١٨٦٠ ب. بوجولا و ل. بوديكور و ف. لينورمان

٢٢ — Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoil..., p. 18.

واي. لوي (٢٣) .

ولم يستطع أحد من راصدي حوادث الاعوام الاربعين الا أكثرهم نفاذ بصيرة وبعد نظر أن يروا في الصدام الماروني — الدرزي مظهرا من مظاهر النضال الذي بدأه الفلاحون في عام ١٨٤٠ ضد العسف الاقطاعي وذلك دون أن يغمطوا كل الابعاد الاخرى لهذه المسألة . وربما كان ك. م بازيلي وهو أول من أشار الى هذا (٢٤). ثم كتب عن هذا فيما بعد كل من بولس نجيم ، و ر. ادوارد والقنصل الفرنسي رينيه ريستيلوبير (٢٥) — كما ان المستعربين السوفيات يأخذون بهذه النظرة كذلك .

ولا يمكن تجاهل هذه النظرية في الوقت الحاضر عند تحديد السبب الاساسي والمعنى الاجتماعي للصدامات بين الدروز والموارنة . ومن الآخذين بها الان ع. اسماعيل و م. كيروش عيساوي (٢٦) . ولكنهم يقتصرون على التصريح بها فقط ، فمالكولم كير مثلا ، كاتب مقدمة وثائقه المترجمة عن العصيان الفلاحي في كسروان (١٨٥٩ — ١٨٦١) التي نشرها يوسف يزبك لا يمكنه أن يدعم نظراته بالبراهين الدقيقة المفصلة. أما عادل اسماعيل، فيقتصر أثناء بحثه مواد القنصلية الفرنسية العامة في بيروت على بحث الخطط والافكار الدبلوماسية حول قضية الدروز والموارنة .

٢٣ — E. Poujade, Le Liban et la Syrie. 1845-1860. Paris, 1860. M. Jouplain, La question du Liban. ادمون بليبل ، تاريخ لبنان العام . Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoil...; B. Poujoulat, La verite sur la Syrie..., L. Baudicourt, La France en Syrie, Paris, 1860; F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860; E. Louet, Expedition de Syrie..., 1860-1861.

٢٤ — راجع اى .م سميليا نسكايا ، « ك.م بازيلي الدبلوماسي الروسي ومؤرخ سوريا» مجموعة : « حول تاريخ الاستشراق الروسي» الجزء الرابع،موسكو، الصفحة ٦٧ — ٦٩ .

٢٥ — Rene Ristelhueber, Les traditions françaises au Liban, Paris, 1918, pp. 32-33.

٢٦ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., Lebanon in the last years of feudalism 1840-1868 », pp. X, 3; Ch. Issawi, Economic development and Liberalism in Lebanon, p. 283.

وهكذا فان المسألة كما تطرح في الوقت الحاضر تجعل قضية الدروز والموارنة تدخل كجزء أساسي في بحث الحركات الشعبية المناهضة للاقطاعية في الشرق الادنى .

الوضع السياسي في سوريا عام ١٨٤١

في نهاية عام ١٨٤٠ انتهت العمليات الحربية في سوريا ، وقد رحلت اخر القطعات المصرية عن البلاد في آذار ١٨٤١ . وحلت فرق المتطوعين التي يترأسها الامير بشير قاسم قرب يافا (٢٧) . ولكن الوضع في سوريا بقي على تعقيده السابق .

وقد بدأت الجيوش التركية دخولها الى سوريا بالسلب والنهب وخاصة في قرى حمص وحماه وبلدة البترون ومحلة الدامور في لبنان . ولم تتخذ السلطات الحاكمة تدابير حازمة ضد البدو ، فاستغل هؤلاء تغير الحكم وأخذوا يغيرون على السكان الحضر . وقام الجنرال حسن والي القدس برمي الفتنة بين بعض الطوائف الاقطاعية في فلسطين فثارت بينها الصدامات المسلحة التي كان ضحيتها الفلاحون بالدرجة الاولى (٢٨) .

ومن جديد عاد الشعور بالعداوة لتركيا ينتشر ويقوى بين أهالي سوريا ولبنان وفلسطين . وأخذ فلاحو نابلس يجمعون الاسلحة التي كان الجيش المصري يخلفها أثناء تقهقره . وكانوا يقايضون خبزهم على البنادق في لبنان حيث كان الناس يعانون من نقص كبير في الاغذية (٢٩) . ولم يقدم الاتراك على المباشرة بجمع الضرائب حتى أيار عام ١٨٤١ .

كان بعض الموظفين الاتراك يرون ان التوتر السياسي داخل سوريا يمكن اضعافه بنشر القوانين الجديدة المسنونة على أساس خط كلخانه ، الذي وصلت أخباره الى سورية وبعثت الامل لدى جميع الفئات باجراء تغييرات جوهرية في البلاد (٣٠) .

٢٧ — طنوس الشدياق ، كتاب .... صفحة ٦١٥ .

٢٨ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٩ — ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين .... صفحة ٢٦٦ .

٣٠ — يذكر هنري غيز ان بعض هذه الاوهام ظل منتشرا حتى منتصف السنوات الاربعين .
(H. Guys, Voyage en Syrie, Paris, 1855, p. 69.)

وفي نهاية نيسان جمع باشا دمشق الارستقراطية الاقطاعية السورية وقرأ أمام الحفل التعليمات الجديدة في ادارة البلاد ، القائمة على أساس مبادىء الخط الشريف في كلخانة (٣١) . ثم شرع الاتراك بعد هذا باجراء الاصلاحات في الجهاز الاداري ونظام الضرائب .

فأصبحت الادارة في البلاد مركزية : وتم توزيع السلطة المدنية والعسكرية ، وتشكل جيش عربي متحد بقيادة السرعسكر الخاضع لوزارة الحربية وأصبح الموظفون الاتراك يقبضون رواتب منتظمة .

وبالرغم من ان هذه الاصلاحات أضعفتمن تعسف البشوات الاتراك ولكنها لم تقض على سرقة الخزنة والرشوة المتفشيتين بين الموظفين الاتراك ، وعلى الوشايات والابتزاز بالتهديد ، والدسائس. واستمر الباب العالي في تغيير البشوات بسرعة حتى بلغ عدد البشوات الذين حكموا بيروت في غضون سبع سنوات (من ١٨٤١ — ١٨٤٧) ثمانية بشوات ، كان يتغير معهم عادة جهاز الموظفين .

وقد بقي نظام الضرائب من حيث جوهره كما كان في السابق بالرغم من الوعود السخية التي كانت تمنحها الدولة ابان العمليات الحربية . حتى ان الدولة احتفظت بضريبة الفردة التي فرضها المصريون وأصبح اسمها الآن « فيرغي (*) » . ولم يلغ سوى نظام الالتزام في جباية الضرائب (بعد سنتين أعادت السلطات التركية فعليا نظام الالتزام) (٣٢) .

كما حاولت الحكومة التركية الحد من نفوذ الاقطاعيين السوريين فأدخلت قسما منهم في خدمتها كموظفين حكوميين .

وظلت المساواة التي أعلنها الاتراك بين جميع الرعايا مجرد كلمة جوفاء . فلم يكن الفلاحون وفقراء المدينة هما الفئتان الوحيدتان اللتان لم تستطيعا التمتع بحقوق متساوية مع الطبقات العليا . بل ولم تكن الفئات العليا من المسيحيين كذلك متساوية في الحقوق مع المسلمين . نعم ، لقد استطاعت فئة التجار المسيحيين الوصول الى مجلس الولاية في صيدا ولكن دورها كان معدوما تقريبا . ولم تتشكل غرف تجارية خاصة تتمتع فيها فئة التجار السورية بالنفوذ الا بعد اضطرابات السنوات الخمسين في بيروت ودمشق وحلب .

٣١ — اسرخ ، ف « السفارة في القسطنطينية »

(*) المقصود بها ضريبة الويركو (ملاحظة من المعرب) .

٣٢ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

ومع أن النتائج العملية للاصلاحات في سوريا لم تكن بالكبيرة فان الاثر السياسي الذي أحدثه اعلان خط كلخانة كان ذا أهمية كبيرة . وقد كتب ك.م. بازيلي يقول « ان النظرية .... عن حقوق الرعايا تنتشر مع كل سنة أكثر فأكثر وتحس بها كافة الفئات شيئا فشيئا » (٣٣) . وليس من قبيل الصدفة أن يأتي الى بيروت في صيف عام ١٨٤١ مئتا فلاح من الناصرة ليشكوا من تعسف السلطات « ويحصلوا على تنفيذ مبادىء التنظيمات » (٣٤) .

وقد أحدثت الاصلاحات المحدودة خيبة أمل في نفوس غالبية فئات السكان ، وخاصة بين الجماهير الشعبية الواسعة التي كانت تأمل في تخفيض الضرائب . وقد شدد هذا من حركة المقاومة التي نهضت ضد المطالبة الاولى بالضرائب من قبل السلطات التركية . وفي تموز من عام ١٨٤١ هدد سكان حلب أمام الملأ « بالتشنيع بالدفتردار عند أول طلب لضريبة العشر مما اضطر هذا الموظف في اليوم ذاته الى تأجيل الامر الذي كان قد أصدره قبل قليل والقاضي بجباية هذه الضريبة » . وفي كانون الاول قامت من جديد « بعض القلاقل في حلب بمناسبة جباية ضريبة « الفيرغي » كما كانت فلسطين بدورها « في حالة أقرب الى الفوضى ، فقد أبى الفلاحون دفع الضرائب ، وأخذ القنصل الفرنسي في دمشق على عاتقه ارسال توسلات بعض القرى التي تطالب برفع كافة الضرائب الى الباب العالي » (٣٥) .

ولم تستطع السلطات التركية أن تنهي جباية الضرائب في عدد من مناطق البلاد الا في وقت متأخر من خريف عام ١٨٤١ . ولكن سكان جبال النصيرية ظلوا حتى عام ١٨٤٢ يرفضون دفع الاتاوات (٣٦) .

٣٣ — ك.م بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٤٦ .

٣٤ — اسورخ « السفارة في القسطينية » .

٣٥ — المصدر نفسه .

٣٦ — المصدر نفسه .

لبنان قبيل الاصطدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١

كان الوضع في لبنان أعقد مما هو عليه في سوريا . فقد كان الاضطهاد الضرائبي من جانب الامير بشير والسلطات المصرية ، ثم بعثات القمع الموجهة ضد المتمردين اللبنانيين والعمليات الحربية ، على أرض لبنان سببا في نسف الاقتصاد الفلاحي . وكان عام ١٨٤٠ عام قحط في البلاد وقد كتب ك. م بازيلي يقول : « كان سكان القرى التي حكم عليها ابراهيم بالاعدام أثناء العمليات الحربية يموتون من الجوع وقسوة الشتاء » (٣٧) .

وقد أخذ الاقطاعيون الدروز العائدون من المنفى يسعون للحصول على حقوقهم وأراضيهم المتوارثة . وقد كان الامير بشير قد وزع مقاطعاتهم في فترة غيابهم على أصحاب المقاطعات المسيحيين ووضع حدا لتعسف المالكين الجدد . وانتقل قسم من الاراضي الشاسعة الى أيدي التجار والاديرة والفلاحين الاثرياء . ولكن اعادة الانظمة القديمة كانت تهدد هذه الممتلكات وتنذر باعادة العسف الاقطاعي ولهذا رفض السكان المسيحيون بسخط الطلبات الاقطاعية التي أبداها أسيادهم السابقون (٣٨) . وكان سكان دير القمر من الد خصوم أصحاب المقاطعات الدروز .

أما الفلاحون الدروز فعلى العكس ، استقبلوا عودة الارستقراطية الدرزية بود (٣٩) لانهم كانوا يأملون اعادة امتيازاتهم اليهم .

وقد حاول حاكم لبنان الجديد الامير بشير قاسم الوقوف كذلك في وجه نزعات الاقطاعيين الدروز . ولكن لم يكن لديه كسابقه طائفة اجتماعية قوية يستطيع أن يعتمد عليها لانجاح سياسته ولم تكن لديه صلات مع مختلف فئات السكان . وبالاضافة الى هذا فقد كانت سياسته تصطدم بدسائس القناصل الاوربيين ، الذين كان أمر صلتهم بالطوائف الاقطاعية ، معروفا جيدا . ففي مقر الامير بشير قاسم في محلة بعبدا كان يعيش مترجم القنصلية البريطانية الرسمي

٣٧ — ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين .

٣٨ — المصدر نفسه صفحة ٢٦ .

٣٩ — المصدر نفسه ، طنوس الشدياق كتاب ... صفحة ٦١٤ .

في بيروت وهو من عائلة « مسك » . ويكتب عادل اسماعيل :
« يؤكدون ان الامير لم يكن يتخذ أي قرار بدون أن يأخذ أولا راي مستشار جلالتها البريطانية الجديد » (٤٠) . وكان القنصل الفرنسي يحاول بدوره التأثير على الامير بواسطة البطرك الماروني ولكنه سرعان ما شرع بعد فشل مسعاه بالدس ضد الامير بشير قاسم ، محاولا أن يحصل على اقالته من قبل السلطات التركية (٤١) وأوغر صدر الارستقراطية الدرزية ضد الامير الحاكم (٤٢) .

وقد أخذت الحكومة التركية تعارض سياسة الامير بشير قاسم لعدم وجود مصلحة لها في تعزيز حكمه . وأصدرت بشكل خاص أمرا باعادة الاراضي الى أصحابها من الاقطاعيين الدروز (٤٣) .

ولكي يكسب الامير الحاكم تأييد الاقطاعيين الصغار والمتوسطين أعلن عن تشكيل ديوان لمعالجة الدعاوى القضائية ولتوزيع الضرائب. وكان جزء من امتيازات أصحاب المقاطعات يجب أن ينتقل الى هذا الديوان . وقد عين الشيخ المسيحي بشارة الخوري خصم الدروز اللدود رئيسا له (٤٤) . وقد رفضت الارستقراطية الدرزية بحزم الاشتراك في الديوان أو الاعتراف بتعليماته لان الديوان « يوقفهم عن اطلاق حريتهم بسياسة رعاياهم » (٤٥) . وقد رد الامير على هذا مهددا بالاستيلاء على المقاطعات واعطائها الى المقربين منه . وأصدر

٤٠ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 108.

٤١ — Ibid., pp. 113-115.

٤٢ — من الامور المميزة انه عندما كان القنصل افرنسي يحاول مفاوضة المشايخ الدروز في ربيع عام ١٨٤١ ، كان العملاء الانكليز يحاولون اقامة العلاقات مع الاقطاعيين ورجال الدين الموارنة . وظل الامر هكذا حتى خريف عام ١٨٤١ حيث وزعت مناطق النفوذ بين الدبلوماسيتين الانكليزية والفرنسية ، وعندها اقتصر العملاء الانكليز نهائيا على دعم الارستقراطية الاقطاعية الدرزية بعد ان اعرضت عنهم الاوساط المارونية المخلصة لفرنسا . وقد عجل هذا الانقسام في وقوع الاصطدام بين الدروز والموارنة .

٤٣ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 110.

٤٤ — M. Jouplain, la question du Liban, p. 257.

٤٥ — طنوس الشدياق : كتاب .... صفحة ٦١٩ .

أمرا باعتقال بعض المشايخ الدروز ومصادرة أراضي بعضهم. (٤٦)
وأخذ الامير يفتش عن سبل أخرى لتوطيد حكمه ، فسهل ايصال الطحين الى لبنان وبيعه فيه ليتفادى الهيجان الداخلي بسبب الجوع ، وكان هذا الامر سببا في تلقيبه بأبي الطحين ولكنه لم يلعب أي دور في توطيد حكمه . وقد حاول الغاء نظام الخوالي (الجباة من رجال الامير) — (المعرب) التي كانت ترهق كاهل الفلاحين. (٤٧)

فأثارت هذه المحاولة احتجاج التجار الاوربيين ، لان هذه الفرق كانت تساعدهم في تحصيل الديون من الفلاحين . واضطر الامير للتنازل عند ارادة التجار .

في آذار عام ١٨٤١ أصبحت تلاحظ في البلاد سمات « الاستياء العام » فقد اضطربت الاحوال في الطرق وكثر السلب والنهب (٤٨). وانعدمت السلطة المستقرة في البلاد عمليا .

وكان رجال الدين الموارنة وزعيمهم البطرك الماروني يوسف حبيش سليل عائلة مشايخ حبيش المارونية الكبيرة يقفون في هذه الظروف موقفا خاصا ، اذ أن هذا البطرك كان يشارك الامير رغبته في الحد من امتيازات الارستقراطية الدرزية ولكنه لم يكن يدعمه دعما فعالا لأمله في عودة الامير بشير الثاني .

وفي تلك الاثناء ازداد وزن رجال الدين الموارنة السياسي في البلاد ، حتى ان الحكومة التركية أصبحت مضطرة لان تحسب حساب نفوذ البطرك ، وساوت وضعه بأوضاع غيره من زعماء الكنائس

٤٦ — وقد حاول الاقطاعيون الدروز ان يردوا على اعمال بشير قاسم باتحادهم مع الفئة الكبيرة من الارستقراطية الاقطاعية المارونية التي يترأسها الشيخان خازن وحبيش بهدف تنحية الامير عن سدة الحكم والمحافظة على الملكية التقليدية للمقاطعات (طنوس شدياق كتاب .... صفحة ٦١٦) .

٤٧ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » وقد كتب ك.م بازيلي يقول ان « الامير كان يرى استحالة الاستمرار في النظام التعسفي الذي كان يطبقه سابقه» وتدل هذه الملاحظة على ان مثل هذا الراصد النافذ البصر كان يشعر ببوادر الازمة الاجتماعية التي يعيشها لبنان وما يصاحبها من تعبير في وعي السكان .

٤٨ — المصدر نفسه .
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 111, 112).

المسيحية في ربيع عام ١٨٤١ (٤٩) .

وكانت الكنيسة المارونية تلاقي كل الدعم من قبل الحكومة الفرنسية التي لم تدخر جهدا في شتاء وربيع عام ١٨٤١ لاعادة نفوذها المتزعزع بعد ابعاد المصريين عن سوريا . فقد وزع الافرنسيون تبرعات ضخمة للموارنة بواسطة رجال الدين (فساعدوا بهذا على تقوية الانعزال الديني بين أهالي البلاد) .

وكان مما يقلق رجال الدين الموارنة المؤامرات الانكليزية في لبنان وقوة دعاية المبشرين البروتستانت الذين يتمتعون بدعم الدبلوماسية الانكليزية (٥٠) .

وقد نما النفوذ الانكليزي في سوريا ولبنان بشكل ملحوظ أثناء العمليات الحربية التي جرت في شتاء عام ١٨٤٠ . فقد غصت البلاد بالعملاء الانكليز الذين كانوا يؤيدون المبشرين البروتستانت .

ولايقاف نفوذ الانكليز وحملة المبشرين بدأ العملاء الفرنسيون ورجال الدين الموارنة يذكون نار التعصب الديني بين الموارنة غير متورعين عن ملاحقة معتنقي البروتستانتية بوحشية ، وعن حرق الكتب الدينية التي يصدرها البروتستانت باللغة العربية أمام الملأ . كما حدث في مدينة دير القمر مثلا (٥١) . وقد أدى هذا أيضا الى عزلة الموارنة وجعلهم جبهة مقابلة لبقية سكان لبنان وبالتالي الى اذكاء نار العداوة بين الدروز والموارنة .

وكان مما يقلق رجال الدين الموارنة أيضا ذلك الهيجان المتزايد بين الفئات الواسعة من أبناء العقيدة الواحدة . وقد اتخذوا في غضون

٤٩ — « انعم السلطان على البطرك بشارة ماسية تساويه بغيره من الرؤساء الدينيين للشعوب الخاضعة ومنحه الحق بان يكون له أمين سر لدى الباب العالي لقضاء شؤونه . » (ك.م بازيلي ، سوريا وفلسطين ص ٢٦١) .

٥٠ — بدأ انتشار البروتستانتية في لبنان منذ الاعوام العشرين من القرن التاسع عشر ، وبعد ان استقرت هناك بعثة المبشرين البروتستانت الامريكان في عام ١٨٢١ . وكانت هذه البعثة تلاقي النجاح في اوساط التجار والمثقفين بالدرجة الاولى . وقد اصبحت البعثة في عام ١٨٤٠ تملك فروعا لها في بيروت وصيدا وحمص وطرابلس ودير القمر وعبية . وكان المبشرون البروتستانت يتمتعون بحماية ودعم القنصلية الانكليزية وعملائها .

٥١ — ك.م بازيلي : سوريا وفلسطين .... صفحة ٢٦٢ .

ربيع وصيف عام ١٨٤١ تدابير موجهة لاضعاف هذا الهيجان واخماده ، وكانوا يمزجون الدعوة الى الحب والطاعة بالتأييد الديماغوجي لمطالب الفلاحين ، ويجمعون بين اثارة التعصب الديني والدعوة لوحدة مصالح الموارنة أبناء العقيدة الواحدة . وكان البطرك الماروني قد توجه في آذار الى رعايا الكنيسة طالبا منهم اعادة الاسلحة التي وزعها الانكليز . ويرى ك. م بازيلي ان هذا الطلب قد تأتى عن أسباب دينية (٥٢) ، بيد اننا نظن ان الهدف من هذا الطلب كان تجريد بعض السكان الهائجين من أسلحتهم . ولكن « لم يكن هناك أحد يفكر باعادة سلاحه » .

هكذا كان توزع القوى الاساسية في لبنان في ربيع عام ١٨٤١ .

وكان الباب العالي يعاني أشد المعاناة من الضيق المالي مما جعله يطالب بالاتاوات رغم وعوده بتأجيل جباية الضرائب والامتيازات .

وبدأت السلطات التركية بأن أعلنت مبادىء خط كلخانة على الملأ . ثم أصدر باشا بيروت في نيسان عام ١٨٤١ أمرا يقضي بحضور الامير والارستقراطية الاقطاعية الى حرش بيروت . كما اقترح على البطرك يوسف حبيش أن يرسل وكلاء شخصيين عنه لهذا الاجتماع الذي سيحضره ريتشار وود أيضا .

ويكتب طنوس الشدياق بصدد هذا الاجتماع : « فتوجه الامير ومعه بعض المناصب ووكلاء البطرك وقدم الوزير الى هناك وصحبته ريتشار وود وقاضي بيروت . وانعقد حينئذ مجمع حافل وتلي عليهم فرمان يتضمن الترتيبات والراحة والمساواة بالحق » (٥٣) .

ثم اقترح الاتراك على الامير والارستقراطية اللبنانية الحضور الى بيروت للتفاوض حول المطالب الجديدة فيما يتعلق بالضرائب . ولكن المعلومات عن المطالب التركية للأسف متناقضة . ويتلخص مغزاها على الارجح بما يلي : كان الاتراك يريدون اخضاع لبنان لنظام الضرائب العام بالنسبة لسائر الامبراطورية ، وذلك بفرض ضريبة العشر على المنتجات الزراعية الى جانب ضريبة الارض وجباية

٥٢ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » . « لقد اصبحوا يناقشون في السنودس الماروني القضية التالية : هل يأثم الشعب الكاثوليكي اذا قبل الاسلحة من يد الزنادقة ؟ » (ك.م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٦١) .

٥٣ — طنوس الشدياق « اخبار الاعيان » صفحة ٦١٦ .

الخراج من المسيحيين وهي ضريبة لم تكن تجبى قبل القرن التاسع عشر في جبل لبنان ، ثم ضريبة الفيرغي المفروضة على كافة السكان .

وفي شهر نيسان من العام نفسه طبق الاتراك على الولايات السورية مفعول المعاهدة التجارية المعقودة في عام ١٨٣٨ مع انكلترا وبقية الدول . (من المعروف ان محمد علي رفض الاعتراف بهـذه المعاهدة) . وقد رفعت المعاهدة نسبة رسوم الاستيراد من ٣ ٪ الى ١٢ ٪ ورفعت رسوم التصدير حتى نسبة ١٠ ٪ . وبالاضافة الى هذه التغييرات فقد خفض التجار أسعار البضائع الصادرة بنسبة ١٠ ٪ ورفعوا أسعار البضائع المستوردة بالنسبة نفسها .

وكان من المفروض حسب حسابات (دي ميلو ايز) أن يزيد هذا مقدار الاتاوات المجبية من لبنان على عشرة أضعاف اذ أن الرسوم التي كانت تؤخذ من الفلاحين الذين يبيعون الحرير ويشترون الحبوب كانت تصل وحدها الى نسبة اربعين بالمئة من أصل المدخول (٥٤) .

وقد أثارت المطالب التركية احتجاجا عاصفا وعمت الاجتماعات كل مكان وكان يشارك فيها كل فئات الشعب المعبرة عن استيائها من الادارة التركية . وقد حدث في طرابلس مثلا ان رفض أكابر المدينة المجتمعون اقامة الصلاة التقليدية من أجل السلطان (٥٥) تعبيرا عن احتجاجهم .

واستمرت المفاوضات بين السلطات التركية وبين الامير بشير قاسم وأعوانه مدة أسبوعين وانتهت برفض الجانب اللبناني التعريفات الجديدة والضرائب .

وعندئذ توجه البطرك يوسف حبيش الى الموارنة برسالة يوصي بها رعاياه « أن يكونوا سالكين بالمحبة والطاعة حسب مقتضى الديانة » وأن « يكونوا مطيعين للسلطان ومن يوليه منهم عليهم ، وأن « يكونوا متيقظين على صالحهم العمومي دائما و « أن يحفظ مقام كل حسب مرتبته و « ان كلا منهم يجري العدل والرحمة على من يختص به » . كما اقترح البطرك « أن يقام من جميع المقاطعات وكلاء أمناء » (٥٦) .

---

٥٤ — راجع : I. de Testa, Recueil des traites, t. III, p. 111.

٥٥ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 170.

٥٦ — طنوس الشدياق كتاب .... صفحة ٦١٧ .

فما هي الاهداف التي كان يرمي اليها البطرك بهذا الصك ؟

تدل هذه الوصية الدينية على ميل البطرك لتفادي خطر الصدام الاجتماعي والوطني العلني . لقد توجه البطرك الى وعي الموارنة الديني داعيا اياهم الى السير في طريق الحب المسيحي والطاعة للسلطان وحاكم لبنان الخ ....

واقترح حلا وسطا لقضية الملكية الاقطاعية المشروطة للارض، وهو بالذات : الاعتراف بحقوق ملاك المقاطعات السابقين(٥٧) بشرط أن يكونوا « عادلين ورحماء مع الفلاحين » . ولكي يحد من تعسف الاقطاعيين أصحاب المقاطعات طلب تعيين وكلاء عن السكان ليراقبوا أعمال هؤلاء .

وأخيرا فقد كان البطرك ينوي استبدال الاتحاد اللبناني السياسي والطبقي العام بالوحدة الطائفية الدينية واستبدال المصالح الطبقية بالمصالح الطائفية . ومن الممكن وضع مختلف الفرضيات بصدد المقدمات والدوافع السياسية لمثل هذه النية . ويبدو أن مساعي البطرك الانانية الى أن يصبح الزعيم السياسي للموارنة ورغبته في الحؤول دون الاتحاد الذي ظهرت بوادره بين الارستقراطية المارونية والاقطاعيين الدروز قد لعبا دورا في هذا المجال . ان انعدام الوثائق تجعل من العبث أن نتكهن : هل كانت لدى البطرك رغبة واعية في استغلال احتدام العداوة بين الدروز والموارنة أم لا ؟ ولكن ما جرى موضوعيا هو ان الصك قد أذكى نار هذه العداوة (٥٨) .

ومن الجدير بالذكر ان الصك قد تجاهل أمر الضرائب ،بينما كان البطرك كما هو معروف يؤيد الاحتجاج ضد المطالبة بالضرائب من قبل الاتراك وقد لعب دورا له أهميته في وضع العريضة الموجهة للسلطان والتي كانت تتضمن المطالبة بالغاء عدد من

---

٥٧ — هكذا فقط يمكن ان نفهم تعبير « ان يحفظ مقام كل حسب مرتبته » .

٥٨ — طنوس الشدياق : كتاب صفحة ٦١٧ . يكاد تش. تشيرشل يعتبر في معرض تعداده للعوامل التي دفعت الدروز حسب رايه للهجوم على الموارنة ان العامل الرئيسي في هذا هو سياسة رجال الدين الموارنة التي وجدت اوضح تعبير عنها في الوثيقة الانفة الذكر . وكان تش. تشيرشل يعتبر ان الهدف من هذه الوثيقة هو الغاء الحقوق الاقطاعية التي يتمتع بها الاقطاعيون الدروز .
(Ch. Churchill, The Druzes..., p. 38).

الإتاوات . وكان البطرك ، على ما يظهر ، ينوي قبل المطالبةبتحديد نطاق الضرائب ان يخفف من حدة الهيجانا في صفوف مختلف فئات الاهالي الموارنة ولو عن طريق احتداد العداوة بين الطوائف الدينية .

وقد تحدث ك . م بازيلي عن الهيجان آلانف الذكر بقوله :

كان اهالي لبنان يتحدثون في اجتماعاتهم عن منطقة في بلاد الافرنج تسمى سويسرا وهي منطقة جبلية شبيهة بلبنان ولا تدفع الاتاوات لاحد » (٥٩) ومن الامور المميزة ان الاساطير عن الفلاحين السويسريين كانت منتشرة بين الفلاحين المتمردين في اوروبا .وقد تسربت هذه الاساطير الان بطريقة ما الى لبنان .

وكانت السلطات التركية تشعر بضعفها الزائد في الولايات السورية ولهذا فهي لم تحاول ان تضغط على لبنان بقوة السلاح وكانت مضطرة لاجراء مفاوضات جديدة . وفي حزيران من عام ١٨٤١ اجتمع فيقرية عين-عنوب اللبنانيةالصغيرةالارستقراطيون الدينيون والعلمانيون مع الامير الحاكم وممثل عن باشا بيروت ، واحتدم النقاش حول مجموع الضرائب العام،فقد كان البابالعالي يطالب بثلاثة عشر الف كيس بينما لم يوافق اللبنانيون الا علىدفع الف ومئتي كيس فقط الى الخزنة.وعلاوة علىهذا فقد اصرالمشتركون في الاجتماع على الغاء التعريفة الجديدة وتأجيل موعد دفع الضرائب (٦٠) .

ولكن السلطات التركية لم تتنازل عن ارائها وظهرت في الاجتماع اراء معارضة عاصفة ضد الباب العالي . ويتجلى جو النقاش الذي جرى اثناء الاجتماع في الخطاب الذي القاه الممثل الشخصي للبطرك الماروني، الاسقف طوبياالذي «لم يقترحرفض دفع الاتاوات فقط بل وطالب الحكومة كذلك بالجوائز والمكافات لقاء الخدمات التي قدمها الجبليون اثناء الحرب مع ابراهيم ولقاء كل الخسائر التي نزلت بهم » (٦١) .

وكان المطران طوبيا يتمتع بنفوذ لا بأس به ويعبر عن اراءكبار رجال الدين الذين يهتمون بتخفيض الاتاوات . وكانت المنتجات الزراعية تصل من المقاطعات الكبيرة واستثمارات الاديرة الى

---

٥٩ — ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين .... صفحة ٢٦٤ .

٦٠ — طنوس الشدياق . كتاب .... صفحة ٦١٨ .

٦١ — ك.م. بازيلي سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٦٣ .

اسواق المدن السلحلية ، وقد نقصت المداخيل من بيع هذه المنتجات نقصا ملحوظا بسبب الرسوم الجديدة التي لم تستطع الا ان تثير معارضة رجال الدين . آذ آن الكنيسة لم تكن تستطيع جمع الضرائب وهي بالتالي لم تكن تستفد منها شيئا . وفضلا عن هذا فقد كانت بعض اراضي الكنائس مثقلة بالاتاوات ولكن أكابر رجال الدين كانوا بحكم منشئهم الاجتماعي مرتبطين بأعيان الاقطاعيين المسيحيين اصحاب المقاطعات وبالتالي فقد كانتمصالح الطرفين متقاربة . وكان كل هذا يجعل الكنيسة لا تطالب بالغاء الضرائب على العموم بل بتخفيض الاتاوات العائدة للباب العالي . ويشهد على هذا بوجه خاص قول البطرك الماروني : « اننا لن ندفع الا ما هو عدل » (٦٢) .

ويبدو أن المقصود من اقتراح طوبيا برفض دفع الاتاوةعموما الى الباب العالي هو استغلال عواطف الفلاحين ديماغوجيا .

وقد دعا الاسقف الماروني المجتمعين للتوسل الى فرنسا وانكلترا من اجل التوسط بين لبنان والباب العالي ، ولم تكن هذه الدعوة بريئة من تأثير القناصل ، فقد كتب ك . م . بازيلي عن « تعاطف » العملاء الفرنسيين مع موقف طوبيا (٦٣) . وفي الوقت نفسه انتشرت في لبنان اشاعات عن تجهيز « أوروبا الكاثوليكية لحملة صليبية جديدة » (٦٤) . من اجل تحرير المسيحيين من

---

٦٢ — كان البطرك يسأل : « لم كنا ندفع الاتاوات لابراهيم باشا ؟ » ويجيب نفسه . « في البدء لان ابراهيم باشا كان اقوى منا وكان يكرهنا على هذا، ثم بعد ذلك لاننا كنا نعرف ان البلاد تدار على الاقل ويحفظ فيها امن طرقاتنا ، واذا استدعى الامر حمايتنا فان جيش الباشا قوي بما فيه الكفاية لحمايتنا . ولكن لم نحن ندفع الاموال للباب العالي؟ ربما كانت هذه تصرف لاذكاء نار الفتن بيننا ... وعلى كل فان السلطان لم يستطع ان يحمينا . انه اضعف من ذلك ونحن لن ندفع الا ما هو عدل » . (Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 171).

ان كلمات البطرك هذه تتفق مع ما جاء في العريضة التي كتبت في اجتماع عين — عنوب الى السلطان ، وهي بالتالي تدل على اشتراك البطرك في وضعها بشكل مباشر او غير مباشر . كما انها علاوة على هذا تعبر عن ميل رجال الدين لاقامة حكم مستقر وضمان الامن في الطرق .

٦٣ — ك.م. بازيلي ، سوريا وفلسطين صفحة ٢٦٣ .

٦٤ — المصدر نفسه صفحة ٢٦٤ .

السيطرة التركية . واخذت قطعات من آلاسطولين الفرنسي والانكليزي تزور شواطيء البلاد .

كان آلهدف من كل هذه آلدعوات والاشاعات والزيارات جعل الرأي العام ينحاز الى جانب تدخل الدول الاوروبية في شؤون لبنان . وقد انتهى كل هذا فيما بعد نهاية منطقية ، باحتلال فرنسا للبنان في عام ١٨٦٠ . اما في عام ١٨٤١ فقد عمل هذا على توتر الوضع السياسي وساعد على انعزال المسيحيين وعمق العداوة بين الطوآئف الدينيه .

وقد لاقى اقتراح طوبيا بطلب المساعدة من الدول الكبرى معارضة من جانب رجال الدين الارثوذوكس المدعومين من قبل الارستقراطية الدرزية (٦٥) .

ولكن هذه الارستقراطية لم تكن تشاطر رجال الدين موقفهم تجاه قضية الضرآئب لانها كانت تستفيد من عائداتها وتدرك الخطر الذي تنطوي عليه حركة الفلاحين ضد دفع الضرائب التي يطالب بها الاتراك .

ومن جديد فشل اجتماع عين عنوب في التوصل الى اتفاق مع الاتراك ووجه المشتركون فيه عريضة الى آلسلطان (٦٦) . وقد تضمنت العريضة طلبا بالغاء التعريفة المفروضة على الحرير الخام والقمح على اساس آن الاقتصاد اللبناني لا يمكن ان يتحمل عبء الرسوم . كما حاول واضعوها ان يثبتوا قانونيا عدم شرعية العشر والخراج المفروضين على الرعايا اللبنانيين .

وجاء في العريضة ان « العشر لم يفرض ابدا من قبل في جبالنا التي لا تحتوي آلا على مساحات صغيرة من الاراضي الجرداء

---

٦٥ — ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٦٣ .

٦٦ — ان نص هذه العريضة منشور في « مجموعة وثائق » اي تيستا .
(I. de Iesta, Recueil des traites..., t. III, pp. 110-113).

ونظن ان تيستا قد ارخ العريضة خطا بالثاني والعشرين من ايار سنة ١٨٤٢ مما لا يتفق مع التاريخ الهجري الذي يورده هو نفسه (الاول من ربيع الاخر ١٢٥٧).

ان محتوى هذه الوثيقة ومقارنته مع النص الموجز جدا في كتاب ك.م. بازيلي يقنعاننا بان الوثيقة المذكورة التي نشرها تيستا تحت تاريخ ١٨٤٢ هي عريضة عين عنوب . وياخذ بهذا الراي ايضا نجيم وعادل اسماعيل ولكن بدون ان يناقشاه بشكل خاص .

الصخرية التي نملكها منذ ابعد الازمان . فلا يجب ان تعامل معاملة السهول الخصبة الموجودة ضمن حدود الامبراطورية والعائدة للحكومة التي يمكنها أن تفرض عليها آلرسوم كما تريد ، في حين آن هذه الجبال تدفع الميري فقط ... اما فيما يتعلق بالخراج ، فانه يفرض على مسيحيي الامبراطورية العثمانية لقاء حماية حياتهم وشرفهم واملاكهم ، اما فيما يتعلق بنا في لبنان فاننا لم نزعج حكومة الباب العالي ابدا بطلب حماية ما ذكرناه انفا ، بل ، على العكس ، فقد اعتدنا باستمرار على حماية آنفسنا من الضرر والدفاع عن بلادنا وعن الولايات المجاورة واخضاع اهالي هذه الاخيرة عندما يعصون امر السلطان ولهذا السبب لم يطلب الحكام العثمانيون منا ابدا دفع هذه الضريبة ، ويمكن الاقتناع بهذا بسهولة عند مراجعة ارشيفات الشؤون المالية » .

واذا كان رفض دفع العشر والخراج قد برر على اساس الشرع الاسلامي والتقاليد التاريخية فان طلب آلغاء ضريبة الفيرغي قد برره اللبنانيون بأن تمردهم الظافر ضد المصريين يمنحهم الحق في عدم دفع هذه الضريبة . « من المعروف جيدا ان تمرد جبل لبنان ضد الحكومة المصرية كان ضد الفرضة بشكل رئيسي... وغيرها من آلاتاوات المرهقة التي اذا اضيفت آلى جمع الجنود اصبحت عبئا لا يحتمل ، ولهذا فقد نهضنا ضد الحكومة الانفة الذكر » ...

ثم تذكر العريضة بالوعود « الشفوية والخطية » آلتي قطعها آلموظفون الاتراك والممثلون الانكليز على انفسهم ابان آلعمليات الحربية في لبنان . وكانت هذه آلوعود تقضي «بأن يبقى اللبنانيون عدة سنين بدون دفع اتاوآت مالية » ثم يطالبون بعد فترة معينة « بالميري فقط » وبأن تدفع الحكومة التركية مبلغ اربعمئة الف تالير لتعويض اللبنانيين عن الخسائر التي لحقت بهم اثناء العصيان ضد الحكومة المصرية .

وهكذآ فقد ظهرت في العريضة ميول نحو معارضة آلباب العالي وبوآدر الوعي الوطني لدى اللبنانيين . وتجلت هذه وتلك في انكار حق ملكية الاراضي اللبنانية على السلطان ، وفي التصريح بأن اللبنانيين قادرون على حماية انفسهم بأنفسهم وهم ليسوا في حاجة الى مساعدة السلطان ، وفي لوم آلحكومة التركية على عدم الوفاء بوعودها « نحن نعتقد انه ليس من عادة آلحكام ان لا يعوضوا

على رعاياهم الخسائر التي وقعت بأمر منهم في وقت الحرب » .

وليس من الممكن الا ان نوافق بأن مثل هذه الوثيقة لم يكن يمكنها الظهور آلا في وقت كان الهياج فيه يعم كافة الاهالي . ان عادل اسماعيل على حق حين يكتب آن العريضة كانت نتيجة لاجتماعات عديدة وقد عبرت عن الرأي العام لاوساط واسعة من اهالي البلاد بأسرها (٦٧) .

وفي حزيران من عام ١٨٤١ توجهت الارستقراطية الدرزية برسالة الى السلطان تنصلت فيها من هذه العريضة وتوسلت آليه ان يعتبر تواقيعها عليها ملغاة. واقسم المشايخ الدروز على الاخلاص للباب العالي وآبدوا آستعدادهم لدفع ضرائب جديدة حسبما ورد في خط كلخانة وكتبوا قائلين : « آننا مسلمون كما كنا دائما ولهذا فاننا لا نستطيع التملص من الخضوع لحكومة الباب العالي » . واكد الدروز للسلطان انهم يستطيعون عند الضرورة قهر المسيحيين بتأييد من الباب العالي (نعم آن المسيحيين اكثر عددا منا ولكننا بعون آلله والباب العالي سنكون نحن الظافرين دائما في كل المعارك التي ستقع) . ولكنهم استطردوا قائلين : « نحن لا نرغب في ان يصل الامر الى الصدام ونتجاسر على آن نأمل بأن جلالة السلطان سيتفضل بقبول التماسنا » (٦٨) بتعيين حاكم من ابناء عقيدتنا . وكانت الارستقراطية الدرزية تعتقد انها ستستطيع بمساعدة آلحاكم الدرزي اعادة حقوقها وامتيازاتها (كما حاولت ان تفعل فيما بين عامي ١٨٤٣ — و ١٨٤٥ عندما تشكلت القائمقامية الدرزية ») .

وقد الحق بهذه الرسالة ، على ما يبدو ، ملحق يتوسل فيه الدروز بمنحهم امتيازات ضرائبية . ان هذه الوثيقة تدل على تغير سياسة الارستقراطية الدرزية الذي قوبل برضى السلطات التركية .

فبم يمكن ان نفسر هذا النهج الجديد الذي انتهجته الارستقراطية الدرزية ؟ لقد حاولت الارستقراطية الدرزية في آجتماع عين عنوب ان تقيم علاقات مع الارستقراطية المسيحية العلمانية لتوحيد الجهود من اجل تنحية الامير بشير قاسم عن الحكم (٦٩) . ولكن خطط عزل الامير بشير

---

٦٧ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 172.

٦٨ — I. de Testa, Recueil des traites, t. III, p. 88.

٦٩ — طنوس الشدياق كتاب اخبار .... صفحة ٦١٨

قاسم اصطدمت بمقاومة البطرك المارروني . ثم ان المشايخ الدروز كانوا قلقين من جراء قيام حركة مناهضة لدفع الضرائب بين صفوف الفلاحين الدروز والموارنة على حد سواء ، وهذا ما دفع الدروز الى اتخاذ موقفهم الجديد .

وقد آستقبلت السلطات آلتركية رجاء الدروز برحابة صدر ومنحتهم امتيازات ضرائبية (٧٠) ، فعمقت بعملها هذا ، كما يبدو، هوة الشقاق بين الفلاحين آللبنانيين واتاحت للارستقراطية الدرزية المحافظة على نفوذها بين آلفلاحين الدروز .

وقد آدى تغيير الارستقراطية الدرزية لموقفها الى تقوية العداوة بين آلدروز والموارنة (٧١) . وكتب دي ميلويز يقول : « هناك خوف من آن تكون هذه آلحركة اشارة لحدوث صدام رهيب » (٧٢) بين آلدروز والموارنة . فاذا اضفنا الى هذا ما جاء في رسالة الدروز عن امكانية حدوث صدامات بين الدروز والموارنة في المستقبل ، آصبح من آلواضح ان المعاصرين كانوا يشعرون منذ صيف عام ١٨٤١ بجو الخطر الحقيقي آلذي يهدد بحدوث الصدام (٧٣) . وهذا في آلوقت الذي لم تكن فيه اية قوة سياسية انذاك لتفعل شيئا من اجل تفادي هذا الصدام ، ثم ان آلبطرك الماروني والارستقراطية الدرزية والاتراك والدول الاوروبية كانت تتابع عمليا تطبيق سياسة تفريق آلاهالي .

وفي اب من عام ١٨٤١ خفضت آلسلطات آلتركية آلاتاوات المفروضة على لبنان ودعا الامير بشير قاسم الارستقراطية الاقطاعية للاجتماع من جديد . فرفض الاقطاعيون ورجال الدين الموارنة هذه الدعوة متذرعين بعدم وصول جواب من آلسلطان على العريضة التي ارسلت في حزيران . (وكان البطرك الماروني في اثناء ذلك يبذل الجهود لعقد اجتماع مغلق للاقطاعيين المسيحيين بهدف

---

٧٠ — I. de Testa, Recueil des traites..., t. III, p. 89.

٧١ — اسرخ ، « آلسفارة في القسطنطينية » .

٧٢ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 118.

٧٣ — ويشهد على هذا احد الموظفين الاتراك البارزين آلذي يفسر اقتراح توزيع الحكم في لبنان بين بشير قاسم ونعمان جنبلاط بضرورة تفادي الحرب الاهلية بين الدروز والموارنة .
(British and Foreign state papers 1846-1847, vol. XXXV, p. 896).

اظهار « وحدة المسيحيين » (٧٤) .

وقد ثارت في الاجتماع الذي عقده بشير قاسم نقاشات حامية، جرى القسم الاعظم منها حول توزيع جزء المداخيل الباقي في لبنان بين الامير الحاكم واصحاب المقاطعات . وقد حاول الامير ان يؤثر على الدروز مستغلا استياء الشعب المتزايد فاصر على ضرورة الغاء القاعدة الفاسدة التي تمنح « اراضي المشايخ والامراء امتيازات تامة، بينما تلقى كل الاعباء على عاتق صغار الملاك الكادحين والمضطرين في الوقت نفسه الى تقديم عملهم بالمجان تقريبا لزراعة اراضي السادة » (٧٥) .

لما لم يسفر الاجتماع الجديد عن النتائج التي كان الاتراك يرجونها منه لجأ هؤلاء للتهديد والوعيد فوجهوا الى حدود جبل لبنان قطعات عسكرية مزودة بالمدافع ، ومنعوا تصدير القمح من موانىء فلسطين التي كانت تزود لبنان به (٧٦) .

ولم توافق الارستقراطية اللبنانية على شروط الاتراك الا في ايلول ، بعد ان خفض الباب العالي مقدار الاتاوات مرة أخرى . وقد عقد اجتماع في بيروت ووقعت فيه اتفاقية تحدد مقدار الميري المفروض على جبل لبنان بمليون وسبعمئة وخمسين الف قرش اي ما يعادل ثلاث الاف وخمسمئة كيس . ويزيد هذا المبلغ عن ضريبة الاعوام العشرين بأربعمئة وخمسة وعشرين الف قرش ولكنه يقل عما كان يجمعه ابراهيم باشا . وكان يخصص جزء منه للامير ولاعضاء المجلس الذي اوكل اليه امر تشكيله ، ولفرق الخوالي وللمقاطعجية . اما ما تبقى ، فكان يجب ان يدفع الى الخزنة على ثلاثة اقساط سنويا . وتتضمن الاتفاقية وعدا بجمع هذا المبلغ من الاهالي « مع مراعاة المساواة بواسطة الامير واعضاء مجلسه » .

وفي الخامس من اذار أوكل الى الامير تشكيل ديوان شبيه بمجالس البشوات المنتشرة في كل الامبراطورية العثمانية ، من مهامه ان يحل مسألة توزيع الضرائب وان يكون بمثابة المرجع القضائي الاعلى في لبنان .

وهكذا جاءت هذه الاتفاقية نتيجة تنازل الباب العالي عن بعض الضرائب وبعد نسج شبكة من الخطط السياسية التي ادت

٧٤ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٧٥ — المصدر نفسه .

٧٦ — المصدر نفسه .

الى بذر الشقاق في صفوف اكابر الاقطاعيين اللبنانيين . ولم ترض الاتفاقية الفلاحين فأخذوا يعبرون عن استيائهم صراحة وبشكل مكشوف .

فخاف الامير بشير قاسم واخبر الباشا التركي في السادس عشر من ايلول بأن الاتفاقية التي وقعها الامراء والمشايخ « لا تعجب الجبليين الذين أعلنوا عن انهم لا يقبلون بأي شيء،لان من المفروض عليهم ان يدفعوا التعريفة ، وتجري الان اجتماعات عديدة بين المسيحيين والدروز » . وقد عزا الامير هذه القلاقل الى دعاية بعض المشايخ الذين « يحرضون الشعب على عدم قبول اقتراحات واوامر الباب العالي » ولكن اقوال الامير اللاحقة تجعلنا نرى في هذه الاضطرابات تطورا لتلك الحركة التي كانت نتيجتها عريضة عين عنوب . ولم يكن بمقدور بشير قاسم ان يخفي او يتجاهل اثر هذه الحركة حتى على موقعي الاتفاقية . فكتب يقول ان الكثيرين من موقعي الاتفاقية يؤيدون الاحتجاجات الموجهة ضدها لخوفهم من لوم اهالي الجبل الاخرين لهم » (٧٧) .

وكان الامير قد استبعد فكرة المناورة مع هذه الحركة ، ولهذا كان ينظر الى جميع المحتجين على الضرائب كمتمردين ضد السلطان ويتوسل الى الاتراك ان يرسلوا الى الجبال سلاح فرسان غير نظامي وعساكر منظمين . وفي السابع والعشرين من ايلول كتب ك . م . بازيلي الى استانبول بأن « جماهير الاهالي في لبنان ، في هياج شديد ، ويبدو ان بنيتها مقاومة الاتفاقية » (٧٨) .

وهكذا فقد تخلصت الحركة الشعبية من تأثير مناورات بشير قاسم ورجال الدين والاقطاع . وقد كتب طنوس الشدياق يقول : « اما الموارنة فازدروا برؤسائهم وبباقي الطوايف وطمعوا بتنازل الدولة معهم في الاموال الاميرية (٧٩) .

وقد رفض حكام لبنان الشرقي وسهل البقاع الاقطاعيون الخضوع لسلطة أمير لبنان . وعندما أرسل بشير قاسم فرقة الى

٧٧ — I. de Testa, Recueil des traites..., t. III, p. 92.

٧٨ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٧٩ — طنوس الشدياق كتاب .... صفحة ٦١٩ .

راشيا لايقاف اعمال القرصنة على الطرق ، قوبلت هذه الفرقة بدرجة من العداء جعلت قائدها ابا سمرا غانم الشهير بعصيانه ضد المصريين ينسل عائدا الى لبنان (٨٠) .

الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١

يبدو ان المشايخ الدروز قد حاولوا ، أثناء الاجتماع الاخير في بيروت ان يتقدموا الى أعيان المسيحيين بصك يجابهون به الاتفاقية التي اقترحها البطرك ، وان يضمنوه ، كما ورد في اتفاق الموارنة ، الدعوة لطاعة السلطان والاتحاد بالمحبة الصادقة ومراعاة المصالح العامة والعدل في السياسة (٨١). دون ذكر شيء عن الديوان او الوكلاء المعينين من بين الاهالي . وكان هذا اخر مجهود يبذله ارستقراطيو الدروز قبل اصطدامهم مع الموارنة في تشرين الاول ١٨٤١ محاولين الاتحاد مع الاقطاعيين الموارنة في سياسة مشتركة ازاء الامير الحاكم والفلاحين المناهضين للاقطاعية .

وقد وقف أعيان الموارنة موقفا سلبيا وفشلت جهود البطرك في توحيد صفوفهم ، كما فشلت محاولاته لعقد اجتماع للاقطاعيين المسيحيين في شهر اب ووقع قسم من الاقطاعيين المسيحيين على اتفاقية الثالث من ايلول . أما القسم الاخر فقد وقف موقف المعارضة . ولم تكن مناورات رجال الدين الموارنة الهادفة لتخفيف حدة التناقضات الطبقية لتسفر عن اية نتيجة . وكان البطرك يفتش عن السبل المناسبة للحد من تعسف الاقطاعيين . بيد انه لم يكن يجد مبتغاه عند اعيان الدروز وحسب ، بل ولدى كبار الاقطاعيين المسيحيين ايضا . ان رغبة البطرك في اظهار « وحدة المسيحيين » تدل على ان زعيم الكنيسة المارونية لم يتخل عن عزمه على استغلال العداوة بين الموارنة والدروز . وقد ساعدت كل هذه العوامل على عدم توحيد جهود الفئات الاقطاعية .

وعندما لم يتلق أعيان الدروز اي جواب من الاقطاعيين

٨٠ — خليل فايز ، ابو سمرا غانم .

٨١ — طنوس الشدياق كتاب ..... صفحة ٦١٩ .

الموارنة اخذوا يقومون بأعمال مستقلة حازمة . وكانت هناك اسباب اخرى دفعتهم الى هذا وهي ان الديوان الذي صادق الباب العالي عليه كان في يد الامير بشير قاسم بمثابة رقيب على سياسة اصحاب المقاطعات الدروز . كما أن الامير قد شدد من مواقفه العدوانية ضد الاقطاعيين الدروز (٨٢) . وعمد بشكل خاص الى تشكيل الفرق المقاتلة من المسيحيين التابعين اقطاعيا الى المشايخ الدروز خارقا بهذا حقوقهم المتوارثة (٨٣) .

ولكن السبب الرئيسي لموقف الدروز هو تعاظم الحركة المناهضة للاقطاعية بين السكان الموارنة ، وكان من اكثرهم نشاطا اهالي دير القمر الذين كتب عنهم طنوس الشدياق بكلمات مشبعة بالروح الاقطاعية يقول : اما اهل دير القمر فتشامخوا على مشايخهم النكدية ونبذوا أوامرهم » (٨٤) .

ويعطينا نش تشرشل صورة ادق عن حالة الاهالي في دير القمر فيقول : « في مدينة دير القمر التي كانت في غضون القرون الماضية من حصة الاقطاعيين النكديين ، قوبل الـ « ارلام » (يبدو ان المقصود هو الاعلان او الرسالة التي وجهها البطرك الماروني في الربيع » — المؤلفة) بالاغاني المسيحية وباطلاق الرصاص وبشتى امارات النصر ، بينما كان المشايخ الدروز يراقبون من نوافذ قصرهم المظاهرة التي تجاسرت أن تعلن اليهم نهاية حكمهم » (٨٥) .

وقد اخذ الفلاحون — الشركاء يرفضون دفع الريع الاقطاعي، بدليل اقدام نصارى جزين على قتل الدروز الذين بعثهم آل جنبلاط لجباية الريع (٨٦) .

ونمت مشاعر العداء للاقطاعية لدى سكان لبنان المتوسط والجنوبي بسبب استيائهم من نظام الضرائب الجديد . واخذ الدروز والموارنة يعقدون الاجتماعات الكبيرة . اما اهالي دير القمر فقد شرعوا بارسال رجال منهم الى قرى لبنان للدعوة من اجل

٨٢ — طنوس الشدياق ، كتاب صفحة ٦٢٠ .

٨٣ — (خليل فايز) أبو سمرا غانم ، صفحة ١٠٠ .

٨٤ — طنوس الشدياق ، كتاب صفحة ٦٢١ .

٨٥ — راجع : Ch Churchill, The Druzes..., p. 39.

٨٦ — راجع بهذا الصدد محررات الكولونيل روزيه . Ibid., p. 46.
(W. Polk, The opening of South Lebanon 1787-1840, p. 218).

التأهب للحرب والتمون بالاغذية والذخائر (٨٧) .

وفي خريف عام ١٨٤١ انتشرت الحركة المناهضة للاقطاعية في مناطق لبنان المتوسط والجنوبي فقط ، وكان لبنان الشمالي لا يزال ينعم بالهدوء وذلك لان لبنان المتوسط والجنوبي بالذات تعرض في السنوات الاخيرة لتغيرات حادة (اذ جرى ابعاد المشايخ الدروز الذين اجهروا عند العودة بمطالبهم) ، كما ان العداء الديني هناك كان يعمل على احتداد واستفحال التناقضات الاجتماعية .

وكان أخماد هذه الحركة — ومجابهة سياسة بشير قاسم يجعل الارستقراطية الدرزية في حاجة الى دعم من الخارج . ولهذا اقام المشايخ الدروز في صيف عام ١٨٤١ علاقات مع السلطات التركية ، وشرعوا في الخريف يفاوضون الموظفين الاتراك سرا . ولكن عندما احتدت العلاقات بين الدروز والاتراك في عام ١٨٤٢ واعتقل عمرباشا المشايخ ذوي النفوذ جاهر المقدم الدرزي شبلي العريان من لبنان الشرقي بأن خسائر المسيحيين يجب ان تعوض من قبل السلطات التركية نفسها لانها هي التي حرضت الدروز على الهجوم على المسيحيين ، ثم ان الدروز قد صرفوا اثناء مفاوضاتهم مع الاتراك زهاء ٣٠٠ الف فرنك استرليني (اي حوالي ٣ر٣ مليون قرش) وذلك لرشوة ارلموظفين ، بمن فيهم الصدر الاعظم نفسه (٨٨) .

وهناك رأي منتشر بسعة في كتب التاريخ وهو ان الاتراك هم الذين استفزوا الصدامات بين الدروز والموارنة . لكن هذا الرأي غير مدعوم بالوثائق .

---

٨٧ — ابو شقرا : الحركة صفحة (٣٨) . يربط ابو شقرا بين هذه الاجتماعات وبين دعوة اهالي دير القمر للتاهب للحرب بين الدروز والموارنة ، في حين ان المصادر الاخرى التي هي في متناول يد الباحثين تتجاهل قضية استعداد المسيحيين للاصطدامات المسلحة التي جرت بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١ . وقد كان البدء بالحرب مفاجئا للمسيحيين اللبنانيين ولغالبية الفلاحين الدروز على حد سواء ، مما يسمح لنا بدحض مزاعم ابي شقرا خصوصا وقد عمد هو نفسه الى تزوير الحوادث من اجل اثبات اقواله وارائه . وان لدينا من الاسس ما هو اكثر بكثير من هذا لنفترض بأن التاهب الذي جرى في لبنان المتوسط كان من اجل التحرك ضد الاقطاعية .

٨٨ — Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 72, 73, 78.

ومن الامور الجديرة بالاهتمام تصريح شبلي العريان الذي يناقض بعضه البعض الاخر : فاذا كانت السلطات التركية قد دفعت الدروز للهجوم على المسيحيين ، فلم اذن اضطر المشايخ الدروز لاضاعة مثل هذه المبالغ من اجل رشوة الموظفين الاتراك ؟

هناك أمر واحد واضح : هو ان اي تعقيد في حياة لبنان السياسية كان في صالح الاتراك ، لانه يسهل عليهم اخضاع البلاد لسلطتهم المباشرة . بيد ان الموظفين الاتراك لم يكن باستطاعتهم خلق مثل هذه التعقيدات علانية لتأريث نار العداوة بين الدروز والموارنة، وذلك لانه لم يكن لهم صلات واسعة او وزن سياسي بين اهالي لبنان . وبالاضافة الى هذا فان اي عمل فعال (سري او علني) من جانب الاتراك كان خليقا بأن يشتهر امره ويجذب اليه انتباه احدى الدول المتنافسة او جميع هذه الدول التي تراقب بانتباه الاحداث الجارية في البلاد (٨٩) ، وكان اي صدام يمس وضع المسيحيين يصبح موضوعا للتدخل الدبلوماسي من جانب الدول الغربية في شؤون الامبراطورية العثمانية ويهدد بزيادة المسألة الشرقية تعقيدا . وهكذا فقد كان وضع السلطات التركية في لبنان معقدا ومتناقضا . واذا كان الاتراك يشجعون الدروز للتأهب للصدام فانهم كانوا يفعلون هذا في كثير من الحذر ، ولكن هذا لم يكن ليمنع الموظفين الاتراك من قبول رشاوى الدروز . وهناك امر لا شك فيه وهو ان المشايخ الدروز قد اتيح لهم في مفاوضاتهم مع السلطات التركية ان يضمنوا حياد السلطات لصالحهم .

وعندما تدخلت الدول الغربية تدخلا فعالا في حياة الامبراطورية الداخلية ، لم يستطع حياد الاتراك ، ولا حتى دعمهم، ضمان النجاح ، فحاول المشايخ الدروز ان يقيموا علاقات مع الدول الغربية . وتوسل الشيخ نعمان جنبلاط الى القنصل الفرنسي بوريه ان يساعده في السفر الى باريس لاجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية من اجل حماية الدروز . ولكن بوريه،حسبما يقول عادل اسماعيل ، لم يمد يد المعونة السريعة للشيخ نعمان خوفا من ردة الفعل لدى رجال الدين الموارنة (٩٠) .

---

٨٩ — كان لدى كل ارسالية تبشير في بيروت عملاؤها السريون الذين ينقلون كل الاخبار الجديدة بالاهتمام ، ويحصلون على محتويات بريد الحكومة التركية .

٩٠ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 164.

وكانت المفاوضات بين الدروز والعملاء الانكليز تجري بنجاح أكبر ، اذ كانت الدبلوماسية الانكليزية تحتاج الى دعامة لتنفذ الى سوريا وخصوصا ان دسائس ب . و د بين رجال الدين الموارنةلم تأت بالنتائج المرجوة لان الموارنة كانوا مرتبطين بفرنسـا بصلات دينية تقليدية .

ان الابلاغ الذي ارسله القنصل الانكليزي العام في بيروت الكولونيل هيوغ روز والذي نشره ف . بولك في عام ١٩٦٣ يدل على ان الارستقراطية الدرزية كانت قد توجهت في صيف عام ١٨٤١ الى انكلترا تطلب منها الحماية . وسرعان ما دعمت حكومة بريطانيا العظمى هذه المبادرة . وقد اخذت تتوارد الى لبنان رسائل متتابعة من سكرتير الدولة اللورد بالمرستون بالذات عن الاهمية التي توليها الحكومة الانكليزية للعلاقات مع الدروز . كما عبرت هذه الرسائل عن استعداد « حكومة جلالتها لاقامة علاقات مع الدروز » . وجرت في شهر اب مفاوضات بين الشيخ نعمان جنبلاط وهيوغ روز . وابلغ القنصل الانكليزي العام اللورد بالمرستون في السابع من ايلول عام ١٨٤١ عن استعداده لعقد اتفاقية نهائية معالدروز حول العلاقاتالتجارية ونشرالثقافة(٩١). وفي ضوء هذا الابلاغ يمكن ان نصدق صحة النبأ الذي ارسله القنصل الفرنسي في صيدا عن انه في الرابع والعشرين من ايلول جرى على متن فرقاطة انكليزية في ميناء صيدا توقيع اتفاقية سرية بين الارستقراطية الدرزية (الشيخين نعمان وسعيد جنبلاط والقاضي والامير ارسلان) وممثلين عن الحكومة الانكليزية . وقد وعد الدروز في الاتفاقية بتسهيل نشر النفوذ الانكليزي في لبنان، وقطع الانكليز مع انفسهم وعدا بحماية الدروز . كما جرى الاتفاق على سفر الشيخ نعمان جنبلاط الى لندن وتعليم اولاد المشايخ الدروز هناك .وقد منحت قيادةالفرقاطة للدروز الكثير منالبنادق والذخائر الحربية (٩٢) ولكن بعد مرور شهر من هذا اي فيالرابع والعشرين من تشرين الاول عام ١٨٤١ وبعد ان بدىء باستعمالهذه الاسلحة ، بعث الكولونيل هيوغ روز وقائد الاسلحة البحرية

٩١ — « The Middle East Journal », vol. 17, 1963. No. 1-2.

٩٢ — المصدر نفسه .

لبريطانيا العظمى عند الشواطىء السورية مذكرة رسمية الى والي صيدا سليم باشا ينفيان فيها « الاشاعات عن ان خدم جلالتها الانكليزية في سوريا قد قدموا البارود والذخائر للامة الدرزية » (٩٣) .

ومن الصعب الافتراض ان المفاوضات التي جرت في نهاية ايلول عام ١٨٤١ بين الممثلين الانكليز والمشايخ الدروز كانتتتضمن هجوم الدروز على الموارنة وان تقديم الاسلحة (اذا كان هذا قد وقع) كان مشروطا باستعمالها في هذا الهجوم . ان تركيب المشتركين في الاتفاقية وبالدرجة الاولى وجود نعمان جنبلاط وحيدر ارسلان اللذين لم يشتركا اشتراكا فعالا في الصدامات(٩٤) يدعمان هذا الراي . ولكن الدبلوماسيين الانكليز كانوا على درجة من الحنكة السياسية تمكنهم من التكهن بالدور الذي يمكن ان تلعبه الاسلحة في مثل هذه الحالة .

وبصدد الحديث عن المفاوضات الانكليزية ـ الدرزية ينبغي ذكر التغير الذي طرأ على بنية التكتلات بين الارستقراطيين الدروز في اواخر ايلول واوائل تشرين الاول . فحتى تلك الاثناء كان صاحب الدور الاول بين الاقطاعيينالدروز هو نعمان جنبلاط ،اكبر ابناء الشيخ بشير جنبلاط وزعيم الارستقراطية الدرزية المعترف به . اما الان فقد اصبحت المكانة الاولى لاخيه الشيخ سعيد جنبلاط ، صنيع الانكليز ، شأنه شأن ناصيف ابي ناكد نصير حل المسألة عن طريق تنظيم الاصطدامات بين الدروز والموارنة .

وفي نهاية ايلول اصبح لدى الارستقراطية الدرزية ،الموعودة بعلاقات طيبة من جانب السلطات التركية وبدعم القنصلية

٩٣ — I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 96.

٩٤ — كان الشيخ نعمان نصير حل المسائل السياسية الداخلية على اساس الاتحاد مع الاقطاعيين المسيحيين . وقد قام بمحاولات عديدة للاتفاق مع البطرك الماروني واجرى مفاوضات مع القنصل الفرنسي . ولم يشارك الشيخ في الصدامات الدرزية — المارونية بل انه كتب ، حسبما يقول تش . تشرشل ، اكثر من عشرة الاف رسالة الى مختلف الدروز والمسيحيين من اصحاب النفوذ متوسلا اليهم ان يوقفوا هذه الحرب بين الاشقاء . (Ch. Churchill, The Druzes..., p. 51).
وقد اعتزل الشيخ نعمان السياسة في عام ١٨٤٢ وتفرغ لمنصبه الديني .

الانكليزية ، خطة ناضجة لازاحة الامير بشير قاسم والتنكيل بسكان دير القمر . وهكذا فقد ظل المشايخ الدروز حتى تشرين اول عام ١٨٤١ يحاولون التوصل الى تحقيق مطالبهم عن طريق مختلف الخطط السياسية ، اما عندما آخذت الحركة المناهضة للاقطاع بالتوسع في البلاد ولم تسفر المناورات السياسية عن النجاحات المرجوة اصبح الدروز على استعداد لحمل السلاح .

وكانت الاحداث السياسية الداخلية تساعد على تحقيق هذه الخطة . وفي اب من عام ١٨٤١ حدثت بالقرب من قرية بعقلين مشاجرة بسبب قتل حجلة بين مسيحيين من اهالي دير القمر ودرزي من بعلقلين ، وتحولت المشاجرة الى اصطدام مسلح بين جماعة من اهالي دير القمر آتت لنجدة ابن بلدها وبين الدروز. وقد خسر الفلاحون الدروز خسائر كبيرة « فأخذوا – كما يقول طنوس الشدياق – يتوقعون الفرصة لاخذ الثأر ... وشكوا لمدبريهم حالهم فوافقوهم على ما قصدوه » (٩٥) .

وقرر المشايخ الدروز الاستفادة من هذه المشاعر لدى الفلاحين الدروز لتنفيذ اغراضهم الخاصة .

وكان على الامير بشير قاسم البدء بتنفيذ نصوص الاتفاقية ابتداء من الثالث من ايلول عام ١٨٤١ بجباية الضرائب التي اصبح حق توزيعها بين السكان من اختصاص الديوان الجديد . وعندما رفض المشايخ الدروز الاشتراك في الديوان عزم الامير بشير قاسم على مفاوضتهم (٩٦) . واخذ الدروز ينتظرون وصول الامير الى دير القمر للمفاوضة من اجل تنفيذ خطتهم ، اذ كان هذا يضمن لهم المباغتة في الهجوم،وقد اخبر قادة المؤامرةبقرارهم سرا للاقطاعيين الدروز في لبنان ولبنان الشرقي وحوران محرضين اياهم على مد

---

٩٥ – طنوس الشدياق : كتاب ..... صفحة ٦٢٢ .

٩٦ – كان الدروز هم الذين اقترحوا عليه التفاوض لكي يتمكنوا من القيام بحركتهم . وقد كتب الامير بشير قاسم يقول « ان بعض المشايخ قد جاؤوا يسألونني ارسال اوامري الى المشايخ الاخرين ليجتمعوا ويناقشوا هذه القضية (قضية الضرائب – المؤلفة) وذلك في رسالة الى ب ، وود بعد بدء العمليات العدوانية .

يد العون اليهم (٩٧) .

« وكتب الامير الى مناصب الدروز ان يوافوه الى دير القمر » (٩٨) دون ان يشتبه في شيء . وفي صباح الثاني عشر من تشرين الاول انتشر في المدينة خبر مفاده ان الدروز قد اقتربوا من جدران المدينة بصحبة رجالهم .

فلم يعر الامير بشير قاسم انتباها لهذا الخبر اذ ان من عادة الارستقراطيين الدروز ان يظهروا دائما مع رجالهم المسلحين، أما اهالي المدينة فقد وقفوا من هذا الخبر موقفا مغايرا اذ انهم كانوا قلقين على مصيرهم ، وكان لديهم كل الحق في ذلك . وقد كتب بشير قاسم نفسه فيما بعد « ان سكان دير القمر قد جاؤوا يقولون لي ان استقبال هؤلاء الناس في المدينة أمر لا داعي له ، وكانوا يتنبأون بالعواقب الخطيرة التي ستنجم من جراء النيات العدائية التي يكنها المشايخ الآنفي الذكر (ازاء سكان دير القمر – المؤلفة) (٩٩) .

فاتخذ الامير عندئذ قرارا بنقل مكان الاجتماع الى قرية سوق العين الواقعة على بعد نصف ساعة سفر من دير القمر . ولكن الدروز رفضوا تنفيذ هذا الامر فأعلن بشير قاسم عن انه لن يعقد الاجتماع .

بيد ان المشايخ الدروز دخلوا المدينة رغم اوامر الامير الحاكم . وخرج في الوقت نفسه الفلاحون المسلحون من الحي الدرزي (١٠٠) وشرعوا بمهاجمة دكاكين المسيحيين ومخازنهم وورشاتهم ومستودعاتهم ثم احياء سكنهم . واستمرت المعركة ثلاثة ايام ثم اضطر الدروز الى الخروج من المدينة اخيرا فعمدوا الى محاصرتها وعزلها عن المناطق المحيطة بها .

---

٩٧ – كما علم بالمؤامرة كذلك ابو سمرا غانم الذي كان موجودا مع فرقته في منطقة سهل البقاع وقد علم سرا بان الدروز قد توافقوا على خلع الامير بشير وعلى خراب دير القمر » « خليل فايز ، » « ابو سمرا « ابو سمرا غانم ، صفحة ١٠٣ » .

٩٨ – طنوس الشدياق . كتاب .... صفحة ٦٢٢ .

٩٩ – I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 94.

١٠٠ – وفقا لخطة مدبري المؤامرة تسلل الدروز المسلحون الى المدينة سلفا واختبؤوا عند ابناء عقيدتهم .

لقد كتب بشير قاسم رسالة الى وود يقول له فيها :

« ان المسيحيين — سكان دير القمر — كابدوا مشقات كبيرة وخسروا خسائر فادحة ، لان القتلة باغتوهم واخذوا يحرقون البيوت والدكاكين وينهبونها دون شفقة كما استولوا على المستودعات الكبيرة ونهبوا كل ما فيها من نفائس وبضائع» (١٠١) .

وفي الساعات الاولى من المعركة اشتركت فرقة بشير قاسم في القتال ولكن الامير أصدر بعد ذلك أمرا بحماية قصره فقط .

ثم عاد الامير فاشترك في الحوادث اللاحقة مستقلا عن سكان المدينة وبدون ان يكون احد الطرفين متعلقا بالاخر . واخذ يدعو الطائفتين للصلح ولكن دعوانه كانت تذهب ادراج الرياح . فوجه رسالة الى الامراء الشهابيين والبطرك الماروني يسألهم المساعدة . اما سكان دير القمر فقد طلبوا المساعدة من اهالي مدينة زحلة . بيد ان الارستقراطية الاقطاعية في زحلة عرقلت انضمام فرقة المتطوعين في المدينة الى صفوف اهالي دير القمر .

وبالرغم من الآراء المنتشرة في كتب التاريخ ، فان حوادث الايام الاولى من المعارك تشهد على ان الدافع الاول للهجوم على دير القمر هو ميل الارستقراطية الدرزية لانزال ضربة بتجار المدينة وحرفييها وبتلك الاوساط التي كانت مصدرا للدعاية ضد الاقطاعيين (١٠٢) . والى جانب ذلك فقد اتاح الهجوم في الوقت نفسه ابعاد بشير قاسم نفسه عن الحكم .

وكان المشايخ الدروز ، على ما يبدو ، ينوون حصر العمليات الحربية في منطقة دير القمر . وكانوا قد استعدوا سلفا لهذه العمليات فاستولوا على سائر الطرقات والممرات الجبلية المؤدية الى المدينة . ولهذا فقد كانت الصدامات التي نشبت عفويا بعد عدة ايام في المناطق الاخرى من البلاد مفاجئة لمنظمي الهجوم على

---

١٠١ — I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 95.

١٠٢ — هناك رأى ثابت في كتب التاريخ مفاده ان هجوم الدروز في تشرين الاول ١٨٤١ كان موجها ضد الامير بشير قاسم وحده ولكنه استفحل عفويا فتحول الى صدام بين الدروز والموارنة . ولو كان الامر هكذا لبدأ الدروز لا بضربه الاسواق ومحاصرة المدينة بكاملها ، بل بضرب قصر الامير الحاكم نفسه .

دير القمر انفسهم . (١٠٣) .

وقد جرت الامور بعد محاصرة دير القمر على النحو التالي :

فقد اجتمع في القرى المسيحية الكبرى مثل عبية ومعلقة الدامور وجزين وغيرها فرق الفلاحين المسيحيين المتأهبين للسير من اجل مساعدة دير القمر ، واصبحت قرية بعبدا بايعاز من البطرك الماروني مركزا للفرق المارونية الآتية من لبنان الشمالي و « أرسل في الحال وكيلا الى بعبدا مصحوبا بمال جزيل لتقديم المعونات والعلايف والبارود والرصاص (١٠٤) . ودعا الموازنة الى المشاركة في الحرب المقدسة . وطاف رسله الاساقفة على قرى الموارنة وهم يحملون الصلبان ويهددون بحرمان كل من لا يحمل السلاح . وقد بلغ عدد المجتمعين في بعبدا استجابة لهذه الدعوة حتى السبعة الاف انسان (١٠٥) ، وسيطرت في المدينة روح التعصب الديني الذي اخذ رجال الدين الموارنة والمبشرون الكاثوليكيون يتفننون في تغذيته واثارته (١٠٦) .

---

١٠٣ — ويتحدث عن هذا بوجه خاص المشهد التالي الذي يصفه لنا خليل فايز : فعندما بدأت الصدامات بين الدروز والموارنة في جزين ، ترك سعيد جنبلاط صاحب النفوذ الاكبر بين مشايخ الدروز ، حصار دير القمر وتوجه مسرعا الى مقاطعة اقليم جزين العائدة لال جنبلاط . ودعا اليه وجوه القرى المسيحية (وكان بينهم قساوسة ، وفلاحون اغنياء على ما يبدو) و « لامهم على نهوضهم ضد جيرانهم — الدروز — بعد ان كان يأمل منهم المساعدة نظرا لما له من حقوق السيادة عليهم . (وبتعبير اخر فقد كان الشيخ قد عمل حسابه لاستخدام المسيحيين في فرقته) . و طمنهم ان الثورة التي قام بها الدروز موجهة ضد الامير بشير قاسم وحده ثم طلب منهم ان يعودوا الى قراهم . وبعد وقت قصير شعر الشيخ سعيد بما يكنه اهالي جزين من عناد للاقطاعيين يتجلى في اعمالهم فارسل لهم رسالة عبر لهم فيها عن استيائه من انهم « لا يزالون مستمرين في عصيانهم » ولم يطردوا من بين صفوفهم العناصر المعادية له . وطالبهم بتسليم اسلحتهم فورا . ولما رفض الاهالي ان يفعلوا هذا طوعا ، حاصر الشيخ ورجاله اكبر قرى المقاطعة وكسر مقاومة الفلاحين واعمل في قراهم النهب والتخريب (خليل فايز — ابو سمرا غانم — صفحة ١٠٧ — ١١٠ .)

١٠٤ — طنوس الشدياق . كتاب .... صفحة ٦٢٦ — ٦٢٧ .

١٠٥ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 133, 135.

١٠٦ — 106 — Ibid., p. 151.

ولكن لم يحاول أحد ان ينفذ الى دير القمر سوى فلاحو مقاطعة عرقوب وقريتي معلقة الدامور وراشيا (اللتين كانتا بأمرة الشيخ غندور الخوري الذي لا ينتسب للارستقراطية الاقطاعية) (١٠٧) اما المشايخ الشهابيون واللمعيون فقد كفوا بعد الهزائم الاولى عن مساعدة مسيحيي دير القمر ولبنان الجنوبي مما جعل فلاحي جزين يتهمونهم بالسلبية (١٠٨) .

وبدأت فرق المسيحيين تشن الغارات على القرى الدرزية القريبة متذرعة بالخلافات حول الارض ومطامع الطرفين فيها (١٠٩) وتدل الحوادث التي جرت في الشويفات على ان احدا ما من معسكر الموارنة في بعبدا كان يجر الفلاحين المسيحيين عمدا لاشراكهم في الصدامات. ويعتقد طنوس الشدياق ان المناصب (الاعيان – المعرب) المسيحيين هم الذين كانوا يقومون بهذا العمل.

ولم يبتعد خليل فايز عن الحقيقة عندما كتب ان الامراء لم يريدوا مساعدة بشير قاسم لانهم كانوا سرا يتمنون هلاكه ، لاستيائهم من سياسته وطموحهم الى اعادة حكم بشير الثاني . ولكن هناك عوامل اخرى لعبت دورا في خلق السلبية لدى كبار الاقطاعيين الموارنة ، اذ ان الصدامات الدرزية المارونية قد أجبرت جماهير من الفلاحين المناهضين للاقطاعية على حمل السلاح ، ولا جدال في أن الارستقراطية المارونية قد شاهدت بوضوح في عام ١٨٤١ النزعة الفوضوية لدى ابناء عقيدتها وأدركت جيدا ان انهيار سلطة المشايخ الدروز تعني ان السيل نفسه سيجرف لا

---

١٠٧ – طنوس الشدياق : كتاب .... صفحة ٦٢٥ .
I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 98.

١٠٨ – ان رسالة اهالي جزين الى الاميرين ملحم وسلمان في التاسع والعشرين من تشرين أول ١٨٤١ كانت مفعمة بالعواطف وتتضمن اتهام الامراء والمشايخ بانهم تركوا « اخوتهم » لحكم القدر ولم يبدوا الرعاية بقطيعهم وهم « حكام الشعب » الخ.

١٠٩ – ابو شقرا ، الحركة صفحة ٣٩ .

١١٠ – ارسل اهالي الشويفات وفدا الى بعبدا صرح بان الشويفات لن تشترك في المعارك وستبذل الجهود لمنع دروز الغرب الاسفل من الهجوم . وقد وعد المقدمون الموارنة بانهم لن يقتربوا من الشويفات ولكن القرية تعرضت مرات عديدة لغارات الفرق المسيحيين . (انظر طنوس الشدياق ، كتاب ... صفحة ٦٢٨)
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 135-136.

محالة كل الارستقراطية المارونية » (١١١) .

وردا على غارات الفرق المسيحية على قرى الدروز اخذ الفلاحون الدروز يغيرون على القرى المسيحية . وشرع كل من الطرفين يقوم بأعمال النهب والحريق والقتل واستمر الصدام طوال شهري تشرين الاول وتشرين الثاني . وكانت مهارة الدروز في الحرب وتلاحمهم القوي وتصميمهم سببا في انتصارهم وهزيمة المسيحيين شر هزيمة الى كسروان (لبنان الشمالي) ومدن الساحل .

وقد كابد من هذه الصدامات ما يزيد عن سبعين قرية الى جانب مدينتي دير القمر وزحلة ، واحرق وهدم أربعة الاف واربعمئة منزل ونهبت امتعة بقيمة ثمانية وخمسين مليون وخمسمئة الف قرش للمسيحيين ومليون وثلاثمئة الف قرش للدروز . وبلغ عدد القتلى من كلا الطرفين حتى الالف وخمسمئة انسان (١١٢) .

ولم تتخذ السلطات التركية خطوة حازمة لايقاف المجازر في جبل لبنان . وقد كتب ك. م. بازيلي عن الباشا التركي : « لقد كان والي السلطان ينظر في المنظار المكبر من بيروت الى الحرائق التي كانت تظهر على منحدرات الجبال مشيرة الى العمليات الحربية . وكانت الريح تحمل دخان حرائق اللبنانيين ليختلط بالدخان الشذي الصادر عن غلايين البشوات الاتراك ونراجيلهم التي يتسلون بها في ليالي رمضان المباركة » (١١٣) . وقد اكتفى الباشا بارسال موظفين الى دير القمر للمساعدةعلى تسوية الخلاف ولكن دعوتهم لم تجد آذنا صاغية ، بل والادهى من هذا أن الشيوخ النكديين وفرقا من الدروز قاموا اثناء وجود الاتراك في المدينة بنهب موكب الامير بشير المتوجه الى بيروت كما شنوا الغارات على دير القمر ونهبوها رغم ان المدينة كانت قد اوقفت العمليات الحربية .

وكانت الحكومة التركية تسلح كلا الطرفين بدون ان تتدخل

---

١١١ – ك.م بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨١ .

١١٢ – اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١١٣ – ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين الصفحتان ٢٦٩ – ٢٧٠ .

في الصدامات بشكل مكشوف (١١٤) .

ولم يبعث سليم باشا جيوشا الى زحلة ودير القمر الا في تشرين الثاني ، وبعد آن اصبح انتصار الدروز لا شك فيه وزاد الحاح القناصل آلاوروبيين لتنفيذ مطالبهم .

وفي الثاني عشر من كانون الاول وصل من استامبول الى بيروت وزير الباب العالي سر عسكر مصطفى باشا على رأس جيش تركي وبتفويض من الحكومة آلتركية يمنحه صلاحية مطلقة في العمل لاعادة ترتيب وتنظيم الادارة الجديدة في لبنان .

وفي السادس عشر من كانون آلثاني عام ١٨٤٢ دعا مصطفى باشا ارستقراطيي لبنان من الدروز والموارنة لاجتماع اعلن فيه تنحية آل شهاب عن الحكم وتنصيب ضابط الجيش العثماني وآلنمسوي الاصل عمر باشا حاكما لجبال لبنان .

وهكذا فقد كانت النتيجة النهائية للصدامات آلتي جرت بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١ هي تثبيت السلطة التركية المباشرة في لبنان .

اصلاحات الحكم السياسي في لبنان واستفحال أمر الرجعية الاقطاعية

لقد اعتبر سفراء الدول الاوروبية في استامبول ان تعيين عمر باشا حاكما في لبنان هو خرق لمبادىء الحكم الذاتي في البلاد فأعلنوا عن احتجاجهم ثم بدات المفاوضات حول التركيب آلسياسي في لبنان بين السفراء والحكومة التركية في استامبول ثم انتقلت الى آللجنة الدولية في بيروت واستمرت حتى عام ١٨٤٤ (١١٥) .

١١٤ — قدم الموظفون الاتراك الاتون الى لبنان عددا قليلا من الاسلحة للموارنة . وتزود الدروز بالاسلحة من دمشق بتستر من الباشا هناك .
(I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 103).

١٥٥ — ان الخطوط العامة لتاريخ المفاوضات ومواقف الدول الغربية والاتراك يمكن ان نجدها في اعمال :
(M. Jouplain, La question du Liban..., pp. 279-206).
وعادل اسماعيل (Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 202-269).
كما ان هناك موادا وثائقية مجموعة في منشورات اي ، تيستا ، والمطبوعات الانكليزية الرسمية .
(I. de Testa, Recueil des traités..., vol. III; vol. XXXVI, London, 1861).

واصبحت القضية آللبنانية مثار نزاع حاد بين فرنسا وانكلترا وتركيا بوجه خاص .

ان احتجاجات آلدول الغربية واستياء بعض الاقطاعيين الموارنة من اقامة حكم تركي مباشر في لبنان اجبرت عمر باشا على التفتيش عن دعامة اجتماعية في آلبلاد بين خصوم أعادة حكم الشهابيين وبالدرجة الاولى بين المشايخ الدروز . ولهذا ، فبالرغم من سياسة الحكومة التركية الهادفة لمركزة السلطة في البلاد والغاء الملكية المشروطة للارض فيكل انحاء آلامبراطورية آلعثمانية، فقد أعاد عمر باشا آلى الارستقراطيين الاقطاعيين اصحاب المقاطعات في لبنان كل حقوقهم وامتيازاتهم ، واعاد المقاطعات في لبنان الجنوبي آلى اصحابها التقليديين . وأرضى رغبات الاقطاعيين الدروز .

ان انتصار الارستقراطية الدرزية على الموارنة ، والتدابير التي اتخذها عمر باشا قد خلقت في عام ١٨٤٢ ظروفا ملائمة لسيطرة الروح الرجعية آلاقطاعية ، فقد كتب ش. تشرشل يقول :

« ان المشايخ الدروز المنتشين بخمرة النصر أصبحوا يظهرون الميل للاستقلال ... وقد أساؤوا استعمال السلطة في كثير من الاحيان وعاملوا المسيحيين وكأن هؤلاء قطيعا لديهم لا يطاق » (١١٦) . وكان الشيخ ناصيف النكدي يغير علانية على سكان دير القمر مما آضطر قسم منهم آلى مغادرة المدينة (١١٧) .

وحتى في شمال البلاد الذي يسكن الموارنة القسم الاعظم منه كان الاقطاعيون كما ذكر ك. م. بازيلي « يستغلون تغير الحكم على نطاق واسع من اجل اضطهاد آلفلاحين واحياء الكثير من الامتيازات الاقطاعية القديمة التي عفا عليها الزمن » (١١٨) .

واخذت حركة مناهضة آلاقطاعية بالوهن والتفتت . وكان الفلاحون وسكان المدن يكتفون بابداء مقاومة سلبية للاقطاعيين وذلك بتقديم الشكاوى آلى الباشا والتوسلات بمنحهم « الحماية وتعويض » ما نهبه الدروز ، ولكن المشايخ الدروز رفضوا اعادة

١١٦ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 72.

١١٧ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ك.م بازيلي سوريا وفلسطين. . صفحة ٢٧٣ .

١١٨ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

الاشياء والاراضي التي استولوا عليها (١١٩) .

ان شكاوي الاهالي المسيحيين ضد تعسف الدروز، ومساندة الدول الغربية لهذه الشكاوي مساندة فعالة ورفض المشايخ الدروز تعويض ما نهبوه من ممتلكات المسيحيين ، وعدم خضوع الارستقراطية الدرزية للسلطات التركية واخيرا مقاومة المشايخ لسياسة الاتراك الدينية (١٢٠) عملت كلها على تردي العلاقات بين الاتراك والدروز وأجبرت الاتراك على ان يقوموا باعتقالات بعض الارستقراطيين الدروز في نيسان من عام ١٨٤٢ ، مما أثار الاحتجاج في صفوف هؤلاء وحرض مشايخهم الطلقاء على التحضير لعصيان ضد عمر باشا .

وفي منتصف عام ١٨٤٢ اخذ الاستياء من الحكم التركي يتسع في لبنان وينتشر بين الاهالي المسيحيين ، وكان السبب المباشر في هذا هو الخطوات التي اتخذها عمر باشا ، الذي اصدر في اذار أمرا الى اهالي المتن بأن يرسلوا جميع عمال البناء لديهم (المعمرجية — المعرب) الى عكا لاصلاح أسوارها وبأن يهدموا كل ورشات صنع البارود ويقدموا للسلطات التركية المعدات والادوات اللازمة لمناجم الفحم وتقدر هذه المعدات بألفي كيس (كانت قد نهبت اثناء الصدامات) . ولكن فلاحي المتن رفضوا تنفيذ اوامر السلطات مما أدى لحدوث اشتباكات بين الجنود الاتراك والفلاحين ، فاضطر عمر باشا لالغاء الامر (١٢١) .

وفي صيف عام ١٨٤٢ أوحى عمر باشا بكتابة عريضة من اجل احتفاظه بالحكم . وفي الوقت نفسه بدأ انصار أعادة الامير بشير الثاني — رجال الدين الموارنة وبعض الاقطاعيين — بنشر دعاياتهم من جديد ، وكان العملاء الفرنسيون يدعمونهم في هذا العمل ، وقد

---

١١٩ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 72.

١٢٠ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » . لكي يقوي المشايخ الدروز اتحادهم مع السلطات التركية عمدوا في باديء الامر الى الاعلان بأن الدروز ينوون اعتناق المذهب السني في الاسلام . وقد كتب ك.م بازيلي ان « الائمة بدأوا يعملون في الجبل بنشاط لتعليم الشعب اصول الصلاة تحت انظار الضباط الاتراك» ولكن سرعان ما اصبحت الارستقراطية تخشى فقدان نفوذها بين أبناء عقيدتها فيما لو اعتنقت المذهب السني . فاتخذت التدابير لايقاف الدعاية التركية .

١٢١ — اسرخ — السفارة في القسطنطينية .

ظهرت قطع الاسطول الفرنسي من جديد ، على شواطىء سوريا (اذ كانت فرنسا تصر على أعادة الشهابيين) . ولم تكن نتيجة حركة العرائض مرضية بالنسبة للاتراك فلجأوا الى الضغط وشراء العملاء وتزوير التواقيع مما ضاعف من استياء الاهالي .

وكان من نتيجة هذا ان الفرقة المسلحة التي تضم عدة مئات من الرجال والتي بعثها الاتراك الى اهدن (لبنان الشمالي) بحجة ملاحقة احد المشايخ الشهابيين ، تعرضت لهجوم الجبليين وقضي عليها (١٢٢) .

ان هذا الصدام المسلح في منطقة اهدن كان ايذانا بتمرد دروز لبنان المتوسط . وقد أسرع لمساعدتهم من لبنان الشرقي وحوران رجال شبلي العريان الذين اقتحموا جبل لبنان وتوجهوا الى بيت الدين مقر عمر باشا . وطالب شبلي العريان بتحرير المشايخ المعتقلين واعادة الحكم الذاتي الى لبنان وارجاع الشهابيين الى الحكم (وكان الدافع لهذا الطلب الاخير هو الرغبة في أستمالة الموارنة) . وحاول المشايخ الدروز ان يعقدوا اتفاقا مع الارستقراطية المسيحية من اجل العمل الموحد ضد الاتراك . ولكن هذه المحاولات اصطدمت بمقاومة رجال الدين كما حدث في عام ١٨٤١ . وبالاضافة الى هذا فقد ازداد العداء الدرزي الماروني حدة بعد عام ١٨٤١ . وقد حاول عمر باشا ان يعرقل هذا الاتحاد وبذل جهوده لاثارة الصدام بين الطائفتين (١٢٣) .

---

١٢٢ — ان ارسال الفرقة الى اهدن واعتقال المشايخ الدروز بدوا في نظر سكان لبنان كشاهد على نية الاتراك احتلال الجبال وتجريد السكان من السلاح (ك.م بازيلي . سوريا وفلسطين ... صفحة ٢٧٥) .

١٢٣ — كان الباشا في باديء الامر ينوي ان يبعث الى كسروان وزحلة فرقة درزية بقيادة الشيخ خطار العمار (Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 187). لانه كان ، على ما يظهر يعتقد ، ان ظهوره في المناطق المسيحية سيؤدي الى الصدام . اما عندما بدأ تمرد الدروز بالنضوج دعا الباشا المسيحيين صراحة للهجوم على الدروز (Ibid., 194) وفي نهاية تشرين الاول ١٨٤٢ واثناء التمرد الدرزي وجه عمر باشا لاخماده فرقة مسيحية بقيادة ابي سمرا غانم (خليل فايز ، ابو سمرا ، من صفحة ١٢٠ الى صفحة ١٢٤) . ولكن حتى في هذه الظروف لم يتح للاتراك استفزاز الحرب بين الدروز والموارنة . وهذا يؤكد مرة اخرى واخرى ان مؤامرات السلطات التركية وحدها لم تكن قادرة على اثارة الحرب .

ونظرا لان جهود عمر باشا لم تتكلل بالنجاح ولان وضع السلطات التركية اصبح محرجا آسرع الاتراك لتسوية الخلاف في اهدن تسوية سلمية ولارسال قطعات عسكرية ضخمة بقيادة والي بيروت اسعد باشا الى لبنان المتوسط . ولم تستطع الفرق الدرزية الصمود امام الجيش النظامي فانهزمت .

وبالرغم من اخماد التمرد الدرزي فقد قضت حوادث عام ١٨٤٢ نهائيا على سمعة عمر باشا والسلطات التركية في لبنان .

وفي آيلول عام ١٨٤٢ وبعد اصرار من السفراء الاوروبيين وخاصة بعد ان اصبح من الواضح فشل السياسة التركية في حكم لبنان حكما مباشراً وافق الباب العالي على اعادة النظر في قضية ارجاع الحكم الذاتي للبنان ، ولكن بعد تجديد التنظيم السياسي في البلاد . ورفض الاتراك الابقاء على حكم الشهابيين، الامر الذي كانت تصر فرنسا عليه ، ولكنهم قبلوا باقتراح المستشار النمسوي ميترنيخ حول تقسيم لبنان الى قائمقامتين : واحدة درزية برئاسة قائمقام درزي والاخرى مارونية برئاسة قائمقام ماروني (١٢٤) .

وفي منتصف كانون الاول استدعي عمر باشا من لبنان وبدأ اسعد باشا بتطبيق النظام الجديد في ادارة البلاد السياسية في السابع من كانون الاول وفقا لاوامر الباب العالي (١٢٥) .

ان الحل الوسط الذي خلق النظام الجديد في ادارة لبنان لم يكن ليرضي الا الدول الاوروبية ولكنه لم يكن بقادر على حل المشكلة القائمة بين الدروز والموارنة . فقد وطد هذا النظام الانعزال الديني وأرّث نار العداوة بين الدروز والموارنة وعقّد عملية التقسيم مما وفر العديد من الذرائع التي تمكن الدول الاوروبية والباب العالي من التدخل في شؤون لبنان .

وتنبغي الاشارة الى ان السعي لحل القضية الدرزية

---

١٢٤ — ان الفكرة التي تقدم بها ميترنيخ لم تكن بالفكرة الجديدة . فقد كان الموظفون الاتراك قد نا قشوا في عام ١٨٤١ مسألة تقسيم لبنان الى اقليمين حسب تركيب السكان الديني . ومن الامور المميزة ان الدبلوماسيين الاتراك والفرنسيين كانوا في عام ١٨٤١ يعتبرون ان مثل هذا العمل سيكون بمثابة « تنظيم حرب اهلية في لبنان ». (Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 206).

١٢٥ — (Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 207).

المارونية عن طريق تغيير التركيب السياسي في البلاد كان محكوما عليه بالفشل منذ البداية . وربما كان ك. م. بازيلي هو القنصل الاوروبي الوحيد الذي ادرك ان السبيل الوحيد الى « تهدئة » البلاد ، حسب تعبيره هو اجراء تغييرات اجتماعية تحد من تعسف الاقطاعيين (١٢٦) . بينما كان التقسيم عاملا لتوطيد هذا التعسف اكثر من ذي قبل . وكان القائمقامان المعينان من قبل الاتراك أعجز من ان يقفا في وجه الارستقراطية الاقطاعية ، بل هما لم يضعا امامهما مثل هذه المهمة لانهما من ابناء هذه الطبقة ولا يسعهما اطلاقا الخروج من فلكها .

فقد عقد القائمقام الدرزي الامير احمد ارسلان بعد تعيينه مباشرة معاهدة مع المشايخ الدروز تلزمه بالخضوع التام لاشراف العائلات الاقطاعية الرئيسية وببذل كل الجهود لحفظ « سلامتها وزيادة أملاكها » . وقد اضطر الامير حتى الى الموافقة على ان يقتسم راتبه مع المشايخ (كان على القائمقامين ان يقبضوا راتبا محددا شأنهم شأن الموظفين الحكوميين) ، وان لا يكون لديه رجال درك بل يتساعد مع المشايخ الدروز للسهر على طمأنينة الرعايا (١٢٧) . أما القائمقام الماروني الامير حيدر اللمعي فقد كان محروما من امكانية التفكير بتوطيد السلطة وبالحد من التعسف الاقطاعي بسبب مقاومة الارستقراطية المارونية . ومنذ بدء عام ١٨٤٤ ، عندما اصبح من الواضح آن سلطة القائمقام الماروني ستقتصر فقط على لبنان الشمالي ، اشتكى الامير حيدر من ان مشايخ آل الخازن وحبيش يسعون لعزله وآن تأييد البطرك له مشكوك في أمره ، وان بعض رجال الدين يحيك الدسائس لصالح الشهابيين (١٢٨) ، (فقد فتر اهتمامهم بتنظيم الادارة الجديد وبالقائمقام) .

واصبح القائمقامان عرضة للدسائس السرية التي تحيكها الدول الاوروبية والحكومة التركية . واستطاع القنصل الانكليزي ان يستبدل احمد آرسلان بصنيعته الشيخ سعيد جنبلاط . وعاد

---

١٢٦ — راجع « كم بازيلي — الدبلوماسي الروسي ومؤرخ سوريا » الصفحة ٦٧ و ٦٨ .

١٢٧ — Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 212-215).

١٢٨ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

القنصل الفرنسي في عام ١٨٤٤ الى محاولاته لاعادة حكم الشهابيين (١٢٩) . وكان الاتراك يقيمون شتى العقبات في وجه القائمقامين .

وهكذا فان تقسيم لبنان الى قائمقاميتين لم يقض على التناقضات الاجتماعية الداخلية التي كانت سببا في الصدام بين الدروز والموارنة .

وقد برزت الصعوبات منذ الايام الاولى للتنظيم : كمسألة تحديد الحكم في المناطق التي ينتمي سكانها الى ديانات مختلفة . وكان القائمقام الماروني المدعوم من قبل البطرك ورجال الدين والسكان الموارنة في المناطق المختلفة يصر على منحه الحق بادارة شؤون كل مسيحيي لبنان بغض النظر عن المنطقة التي يقطنونها . وكان القنصل الفرنسي مؤيدا لهذا الموقف .

اما القائمقام والمشايخ الدروز فقد كانوا موافقين على التنازل عن ادارة شؤون الدروز في المناطق المارونية ولكنهم كانوا يطالبون بمنحهم حق السيطرة التامة على سكان المقاطعات الدرزية على اساس انه « من المستحيل ان يكون الحكم ثنائيا هناك حيث يعيش فلاحو شعب واحد على ارض واحدة ويتبعون بحكم وضعهم لمالك درزي واحد » (١٣٠) .

وكان تنفيذ الخطة المارونية يعني نسف حقوق وامتيازات اصحاب المقاطعات الدروز . ولهذا فقد لاقت هذه الخطة مقاومة من جانب القنصل الانكليزي المرتبط ارتباطا وثيقا بالارستقراطية الدرزية .

وبالتالي فقد كانت قضية ادارة المناطق المختلطة لا تتصف بصفة سياسية فقط (اذ كان يتوقف على حلها تحديد القوى السياسية التي ستكون لها الغلبة في البلاد) بل وبصفة اجتماعية ايضا (١٣١) .

١٢٩ ــ المصدر نفسه .

١٣٠ ــ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٣١ ــ كتب ك.م بازيلي مهولا اهمية المشروع الماروني : « ان التنظيم الحالي للبلاد ، المعتمد على مبدا المجتمع الاقطاعي ، سينهار تماما فيما لو شملت سلطة الزعيم الماروني كل مسيحيي لبنان . (المصدر نفسه) ان نظرة ك.م بازيلي كانت تعكس دون شك مزاج الاوساط الحاكمة واهالي لبنان وهي تدل على الصفة الاجتماعية للصراع القائم حول مبدا تقسيم البلاد الى قائمقامتين .

وقد مر عام ١٨٤٣ في نقاشات مستمرة في الدوائر الادارية والدبلوماسية حول تنظيم ادارة المناطق المختلطة ودير القمر التي رفض سكانها الاعتراف بسلطة سادة المدينة المشايخ النكديين وحول المبالغ التي يجب ان تمنح للمسيحيين تعويضا لهم عن الخسائر التي الحقت بهم .

وفي ربيع عام ١٨٤٤ وردت الى لبنان اوامر جديدة من الباب العالي بان يأتمر السكان المسيحيون في المقاطعات الدرزية بأوامر القائمقام الدرزي وبالتالي باوامر اصحاب المقاطعات الدروز . وقد أثارت هذه الاوامر استياء الموارنة ، واجتمع اكثر من الفي مسيحي في دير ماروني ووضعوا شكوى احتجاجية ضد حكم الدروز (١٣٢) .

وفي نهاية اذار من عام ١٨٤٤ كتب الموارنة شكوى مشابهة يتوسلون فيها لتحرير المسيحيين من حكم الدروز الظالم ووضعهم تحت حكم القائمقام المسيحي . وقد وضعت الشكوى موضع النقاش حق اصحاب المقاطعات الدروز في امتلاك مقاطعاتهم من الاساس . وكان وضع المسألة بهذا الشكل يتصف من حيث الجوهر بصفة العداء للاقطاعية ، ولكن البراهين التي اختارها كاتبو الشكوى لدعم ارائهم كانت مستقاة من الافكار الحقوقية الاقطاعية . وقد ورد في الشكوى ان الامير الحاكم « كان يوزع بنفسه المقاطعات على اصحابها وينتزعها منهم متى أراد » . ولم يكن لاحد من الدروز الحق بامتلاك المقاطعات قبل حكم الشهابيين الذين وزعوها عليهم . وقد جرد الامير بشير المشايخ الدروز من ممتلكاتهم ايام حكمه . ثم يسأل كاتبو الشكوى : فان اين اخذ المشايخ الدروز الان الحق في امتلاك المقاطعات ، ما دام هذا الحق لا يمنح الا من قبل حاكم لبنان الذي لا وجود له الان ؟ (من الامور المميزة ان كاتبي الشكوى لم يعترفوا للباب العالي بحق منح المقاطعات) .

وفي ايار من عام ١٨٤٤ دعا اسعد باشا القناصل الاوروبيين وكلا القائمقامين لاجتماع حضره قائمقام الموارنة بصحبة المطران طوبيا وممثلين عن السكان المسيحيين في المناطق المختلطة (١٣٤).

١٣٢ ــ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٣٣ ــ المصدر نفسه.

١٣٤ ــ المصدر نفسه .

وكان الدافع لهذا الاجتماع على الارجح هو عزم الباشا على اخبار الحاضرين بأوامر الباب العالي الجديدة .

وقد ابلغ القنصل الروسي بان وفد المسيحيين الى هذا الاجتماع قد رفض الاعتراف حتى نظريا بحقوق الزعماء الدروز الاقطاعية المتوارثة في المقاطعات المذكورة ، تلك الحقوق التي « اكدتها على ما يظهر (١٣٥) اوامر الباب العالي الاخيرة » . وكانت حجج المسيحيين معروفة من شكاواهم السابقة : « ان المسيحيين يعتمدون على عدالة مطالبهم وفقا للعادات القديمة ، عندما كان من حق حاكم لبنان ان يقيل صاحب المقاطعة ويستبدله بغيره بغض النظر عن العرق او العقيدة كما كان الامير بشير يفعل غالبا لصالح اعضاء اسرته وانصاره » (١٣٦) .

وهكذا فان لدينا ثلاثة دلائل على رفض السكان لحكم القائمقام الدرزي واصحاب المقاطعات وعلى طلب وضع مسيحيي المناطق المختلطة تحت سلطة القائمقام المسيحي .

فمن مصلحة من كان يعبر هذا الرفض ؟ ومن كان المحرض عليه ؟

لقد كان هذا المطلب يتفق مع المصالح السياسية للقائمقام الماروني الذي كان يطمع في نشر سلطته المطلقة على كافة مسيحيي لبنان . كما كان يعبر عن مشاعر العداء للاقطاعية لدى الفلاحين وسكان المدن في المناطق المختلطة الباحثين عن سبل للتحرر من حكم أصحاب مقاطعاتهم القضائي والاداري . ان مثل هذا الطلب والحجج التي تدعمه يمكن ان تصدر عن الاوساط التي تؤيد الحركة المناهضة للاقطاعية او تستغل هذه الحركة لاغراضها الخاصة .

ويبدو أن هذه هي الاوساط الاجتماعية نفسها التي اشتركت في وضع وثائق كل من العصيان ضد المصريين والحركة المناهضة

---

١٣٥ — لقد صودق بالفعل على هذه الحقوق .

١٣٦ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ان ك.م بازيلي قد تحفظ في حكمه بضعف هذه الحجة « ولكن الانصاف يقضي بان نشير الى ان هذا كان نتيجة الازمة السياسية التي سمحت بحدوث مثل هذه الاقالات ، والى ان نجاح هذه الاعمال كان يتطلب كل سلطة الحاكم القديم ، والى ان الاسر المطرودة قد عادت عاجلا او اجلا للظهور على المسرح كما حدث مع ال جنبلاط وال ارسلان وامثالهم بفضل السلطة المركزية » .

للاقطاعية في عام ١٨٤١ وهي كما ذكرنا اوساط مرتبطة بالبرجوازية الناشئة .

ومن المستبعد أن يصدر مثل هذا الطلب عن الاقطاعيين الموارنة ، وذلك لان رفض فلاحي لبنان المتوسط الخضوع لسلطة اصحاب المقاطعات الدروز سيكون سابقة خطرة بالنسبة لهم ، اذ انها تعطي الفلاحين من ابناء عقيدتهم حجة لرفض سلطة اصحاب المقاطعات المسيحيين .

وكان كبار رجال الدين يختلفون في موقفهم من اعادة تنظيم الادارة في لبنان . فالبطرك وحاشيته كانوا يعتمدون مع القائمقام على نشر سلطة هذا الاخير على كافة المسيحيين ويستغلون لهذا الفرض موقف المعارضة الدمقراطي الذي يقفه مسيحيو المناطق المختلطة ويحاولون الاستفادة من العداوة بين الدروز والموارنة ، مستمرين في تطبيق سياسة عام ١٨٤١ . وكان هناك قسم من الارستقراطية المارونية ورجال الدين في عام ١٨٤٤ يؤيد عودة الامير بشير أو ابنه امين شهاب وكان القنصل الفرنسي يعمل على تأريث هذه الرغبة لديهم .

في نهاية شباط عام ١٨٤٤ توجه الاسقف نقولا مراد الى أوروبا (١٣٧) ، للعمل على كسب تأييد حكومتي باريس ولندن من اجل عودة الامراء الشهابيين . وفي باريس سلم الاسقف « طلب مسيحيي جبل لبنان الى ملك فرنسا لويس — فيليب (في الثامن عشر من اذار عام ١٨٤٤) ، المذيل بتواقيع امراء المتن (الشهابيين واللمعيين) وكبار مشايخ لبنان الشمالي « وجميع سكان جبل لبنان » (كان مجموع التواقيع والختوم مئتين وسبعين) (١٣٨) . وقد تضمن الطلب تعدادا لجرائم الدروز في صدامات عام ١٨٤١ والتماسا للعمل من اجل اعادة الشهابيين . وفي الثالث من نيسان قدم نقولا مراد طلبا مماثلا لسكرتير الدولة للشؤون الخارجية في لندن اللورد ايودين . ثم قدم له في العاشر من نيسان « مذكرة خاصة تتضمن وصفا قاتما للوضع في لبنان : الفوضى تسيطر في

---

١٣٧ — I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 137.

١٣٨ — اصبح من عادة الكتل السياسية في لبنان ان تقدم مطالبها كتعبير من اماني « الشعب باسره » ولهذا فقد كان من السذاجة تعليق اهمية على التواقيع المذيلة للطلب المقدم الى لويس فيليب .

البلاد ، والصدامات بين الطوائف الاقطاعية لا تنقطع ، والطرقات محفوفة بالخطر « والفلاحون العاملون في الارض مضطرون لحمل السلاح الى جانب المحراث » . وتعبر المذكرة في الخاتمة عن الاسف لابعاد الشهابيين عن السلطة (١٣٩) .

وهناك بعض المعطيات التي تجعلنا نفترض أن البطرك الماروني لم يكن له يد في ارسال هذا الوفد (هذا اذا رفضنا الفرض القائل بان البطرك كان يستطيع ان يلعب دورا مزدوجا) (١٤٠) . وليس مستبعدا ان يكون القنصل الفرنسي هو المحرض على سفر نقولا مراد الى اوروبا ، اذ ان رئيس الحكومة الفرنسية ف. غيزو كان من انصار جعل لبنان امارة موحدة كالسابق تحت امرة امير مسيحي من الشهابيين . وكان الدبلوماسيون الفرنسيون يعتبرون ان هذا الشكل من الحكم سيجعل من فرنسا البلد الوحيد المتنفذ في لبنان ، ولهذا فلم يكن هناك ضرورة لسؤاله مؤازرة الشهابيين . ولكن الطلب الرسمي الموجه باسم « مسيحيي لبنان » الى الملك الفرنسي كان ذريعة ملائمة بالنسبة للحكومة الفرنسية كي تقوم بمناورتها الدبلوماسية التالية مع السلطان (١٤١) .

وفي السادس عشر من ايار اوكل غيزو الى القنصل الفرنسي في استامبول ان يطلب من تركيا الغاء اتفاقية السابع من كانون

---

١٣٩ — I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, pp. 138-145.

١٤٠ — ابلغ ك.م بازيلي في تقرير سري بتاريخ الرابع من آيار بعد حديثه مع القائمقام المسيحي ان الاسقف مراد يعمل لصالح الشهابيين ولكن البطرك الماروني يبدو وكانه بعيد عن الدسائس التي تحاك ضد القائمقام اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ، وقبل هذا بقليل اي في التاسع من اذار وبعد سفر نقولا مراد الى اوروبا اجاب المطران طوبيا على السؤال السري الذي وجهه اليه الكولونيل روزيه عن الاسباب التي دعت مراد لتغيير نواياه بعد آن زار لبنان وعاد الى باريس بانه لا يعرف شيئا بهذا الخصوص .
(I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 138).

واذا علمنا ان طوبيا كان كاتم اسرار البطرك تاكدت لدينا صحة اقوال القنصل الروسي .

١٤١ — ان مهمة مراد كانت تشتمل على هدف اخر هو : كسب الراي العام في فرنسا الى جانب الموارنة وتاريث العواطف الدينية لدى الكاثوليكيين لخلق جو من التايد داخل البلاد لسياسة الحكومة ازاء القضية اللبنانية .

الاول عام ١٨٤٢ ، وأعادة حكم الشهابيين في لبنان . وفي الوقت نفسه كان القناصل الفرنسيون في لندن وفيينا وبرلين وبطرسبورغ يبذلون جهودهم لكسب تأييد حكومات هذه البلدان الى جانب الموقف الفرنسي . ولكن اللورد ايبودين كان (كالحكومة التركية) يقاوم مشاريع فرنسا بعناد . اذ ان الانكليز كانوا يحبذون وجود القائمقامية الدرزية . وكان الازدواج في الحكم والتناقضات بين القائمقامية سببا في تعقيد الوضع في البلاد باستمرار مما كان يتيح للباب العالي والدول الغربية التدخل في شؤون لبنان .

واحتجت الحكومة التركية بتأييد من انكلترا ضد التدخل الفرنسي في شؤون لبنان . ولم تتمكن فرنسا من انجاح خطتها.

وفي صيف عام ١٨٤٤ ، أسرعت الحكومة التركية بعد تسلمها طلب فرنسا الى طرح المسألة اللبنانية امام لجنة دولية في بيروت مؤلفة من القناصل الاوروبيين والموظفين الاتراك ، وارسلت الى هناك قبودان — باشا خليل بمرافقة الاسطول . وفي الثاني من ايلول اتخذت اللجنة قرارات حول المسائل المختلف عليها تقضي بابقاء اهالي المناطق المختلطة في لبنان المتوسط تحت امرة اصحاب المقاطعات والقائمقام الدرزي واقترحت ان ينتخب المسيحيون القاطنون في القائمقامية الدرزية وكلاء يمثلونهم ويدافعون عن مصالحهم امام القائمقام الدرزي ، وان ينتخب المسيحيون القاطنون في القائمقامية الدرزية وكلاء يمثلونهم ويدافعون عن مصالحهم امام القائمقام الدرزي ، وان ينتخب دروز القائمقامية المارونية مثل هؤلاء الوكلاء ايضا ، ووعدت الاهالي المسيحيين المتضررين من حوادث عام ١٨٤١ بتعويض قدره ثلاثة عشر الفا وخمسمئة كيس يدفع الدروز منها ثلاثة الاف وخمسمئة كيس فقط وتأخذ الخزنة على عاتقها دفع ما تبقى من المبلغ . اما فيما يخص مدينة دير القمر التي تعاني من حكم المشايخ النكديين فقد تقرر تسليم الحكم فيها لوكيلين من الدروز والمسيحيين يخضع كل منهما لسلطة قائمقامه .

ولتفادي ظهور مقاومة للنظام الجديد أمر خليل باشا السكان بانتخاب وكلائهم في غضون أربعة أيام .

ولكن هذا الحل الجديد لم يكن ليرضي أحدا . وتابع مسيحيو المناطق المختلطة اصرارهم على الغاء سلطة أصحاب المقاطعات الدروز وحكم القائمقام الدرزي . وتوجهوا من جديد الى السلطات

التركية في الثامن عشر من أيلول مطالبين بوضعهم تحت سلطة أصحاب المقاطعات والقائمقام المسيحيين ، كما تضمنت شكواهم التماسا بنقلهم من القائمقامية الدرزية (١٤٢) .

أما الاقطاعيون الدروز فقد كانوا يصرون على ابقاء الاوامر القديمة (الصادرة في السابع من كانون الاول عام ١٨٤٢) ويعبرون عن استيائهم من نظام الوكلاء بالذات ، ذلك لان انتخاب هؤلاء يجب أن يجرى من قبل السكان المحليين على الا يكونوا من بين المقاطعجية . وعلى هذا الاساس كان بولس نجيم يعتبر ان انتخاب الوكلاء يعني ايجاد أجهزة للحكم المشاعي الممثل لمصالح الفلاحين الى جانب السلطة الاقطاعية (١٤٣). وهذا بالطبع مغالاة في تقييم القرارات ، اذ أن الوكلاء كان يمكن أن ينتخبوا من بين أناس ذوي أوضاع اجتماعية مختلفة — من الاقطاعيين الصغار والتجار الزراعيين والمرابين ورجال الدين ، وكانوا يعبرون عن مصالح الفلاحين بدرجات متفاوتة . وبالاضافة الى هذا فان امكانياتهم كانت محدودة جدا اذ لم يكن باستطاعتهم سوى العودة الى رأي القائمقام أو باشا صيدا . ومع ذلك فان الوكلاء في ظروف لبنان المتوسط كانوا رسميا يمثلون قوى معارضة لأصحاب المقاطعات . ان قرارات أيلول قد أسفرت عن ايجاد قادة علنيين لنضال الفلاحين ضد الاقطاعيين .

ان وزارة الخارجية الفرنسية لم تكن راضية عن قرار الثاني من أيلول . وقد تابع ف. غيزو اصراره على عودة الشهابيين ، بيد ان اعتناق الامير أمين الشهابي للاسلام فجأة أربك الحكومة الفرنسية لفترة .

وظلت القضية اللبنانية تشغل الباب العالي والقناصل طوال شتاء وربيع عام ١٨٤٥ . وأخذت الحكومة التركية بالتردد تحت ضغط مختلف القوى والظروف ، ثم صرحت في الرابع والعشرين من شباط بأنها لا ترغب في الحد من امتيازات أصحاب المقاطعات .
وفي اليوم الاول من آذار عام ١٨٤٥ منحت كلامن الوكيلين الحق في العودة الى القائمقام الذي يعتنق عقيدته ، الامر الذي اعتبره بولس

١٤٢ — أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٤٣ — M. Jouplain, La question du Liban, p. 309.

نجيم بحق « كحصان طروادة » . اذ أنه كان يؤدي الى استياء القائمقامين والى تدخل كل منهما في شؤون الآخر والعودة في أكثر الاحيان الى السلطات التركية مما كان يؤدي بالتالي الى تدخل الاتراك والدول الاوربية في شؤون لبنان باستمرار .

الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥

ان الاجتماعات التي عقدت في لبنان المتوسط منذ ربيع عام ١٨٤٤ والشكايات التي صدرت عنها تدل على أنه بعد انحدار الحركة المناهضة للاقطاعية بدأت تظهر موجة جديدة من الحركات الشعبية في لبنان المتوسط منذ أوائل عام ١٨٤٤ . فبم يمكن أن نفسر هذه الظاهرة ؟

لقد اتصف عام ١٨٤٤ بنشاط الحركة الشعبية لا في لبنان المتوسط فحسب بل وفي سوريا ولبنان الشمالي أيضا .
ففي النصف الثاني من نيسان عام ١٨٤٤ انتشرت في سوريا اشاعات تقول بأن الحكومة التركية قامت بحملة مفاجئة في بغداد لسوق الناس الى الخدمة العسكرية . فاضطربت كافة المدن السورية لهذا النبأ ، خاصة وقد تأكدت الاشاعات بقدوم نامق باشا الى بيروت ، وهو قائد الفيلق العربي الموجود في سوريا ، وابلاغه القنصل الانكليزي بمشروع انشاء أربعة أفواج من سلاح الفرسان . وقد جمع نامق باشا رجال الدين المسلمين في بيروت ولكن هذا لم يمكنه حسب تعبير ك.م. بازيلي من اثارة الروح الوطنية « والغيرة الاسلامية » . ولم يسفر قرار جمع الجنود الا عن نشر الاضطراب بين السكان (١٤٤) .

وفي أيار من عام ١٨٤٤ اقترنت الاحتجاجات ضد الخدمة العسكرية بالامتناع عن دفع الضرائب للاتراك ، كما حدث في طرابلس التي رفض أهلوها دفع الضرائب والدخول في الخدمة العسكرية معا . وفي حلب فر الشباب الى قبائل البدو خوفا من اجبارهم على الخدمة العسكرية . وصرح أهالي عكا عن أنهم « سيستعملون المدافع التي

١٤٤ — أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

في حوزتهم لمقاومة الحكومة » فيما اذا عزمت هذه على جمع الجنود في المدينة . كما ان عمال البناء الذين يعملون في تجديد قلعة المدينة والذين لم يقبضوا اجورا منذ عدة شهور (بسبب فراغ خزنة الوالي) امتنعوا عن العمل (١٤٥) .

وكان معلينو هذه الحوادث يتوقعون نشوب تمرد علني في سوريا ضد الحكومة التركية التي كانت في وضع لا تحسد عليه : فجيشها الاساسي (حوالي عشرة آلاف) كان معسكرا قرب حلب . ولم يكن في دمشق سوى ألفا عسكري نظامي ، وقد عسكرت في دير القمر وبيروت وعكا قطعات تتألف كل منها من أربعمئة انسان ، أما في المراكز الباقية فلم يكن هناك جيش مسلح (١٤٦) .

وعندما بدأت الاضطرابات أرسل الاتراك الجيش الى طرابلس وحلب ، ولكن ما كاد الجيش يترك هذه الاخيرة حتى « ظهر المتمردون في المدينة من جديد » (١٤٧) . وقد خلق هذا الشكل من أشكال المقاومة مصاعب كبيرة أمام الاتراك .

فأجلت الحكومة التركية تجنيد السوريين الى عدة سنوات .

ولكن الاضطرابات في سوريا لم تحدث نتيجة عزم الحكومة التركية على فرض الخدمة العسكرية فقط . فقد كانت البلاد تعاني من تدهور الوضع الاقتصادي الذي انعكس في التذبذب الحاد في قيمة النقد التركي وفي فرض أنواع جديدة من الرسوم على دكاكين اللحوم والاسماك ، وفي ازدياد أسعار الاغذية وعودة بعض المناطق الى نظام الالتزام . وكان لا بد للوضع الاقتصادي في سوريا أن ينعكس على الوضع في لبنان لارتباطهما الوثيق ببعض . ولكن الاضطرابات السورية كانت صاحبة الاثر الاكبر على الوضع السياسي داخل لبنان . ومن الامور التي لها دلالتها مثلا ان قلاقل طرابلس حدثت في الوقت نفسه الذي وقعت فيه الاضطرابات في جبة ــ بشري (لبنان الشمالي) . (١٤٨) .

ففي حزيران من عام ١٨٤٤ امتنع سكان منطقة جبة ــ بشري عن دفع الضرائب متذرعين بعدم الانصاف في توزيعها . « وعبثا

١٤٥ ــ المصدر نفسه .

١٤٦ ــ المصدر نفسه .

١٤٧ ــ المصدر نفسه .

١٤٨ ــ المصدر نفسه .

حاول البطرك الماروني التوجه اليهم بالانذارات والمواعظ اللاهوتية » (١٤٩) . اذ لم تكن لديهم الرغبة حتى في مفاوضة أسعد باشا لان شكاواهم السابقة كانت تظل دون جواب . وعندما أرسل الباشا جيشا الى الجبال توجه الفلاحون الى القناصل الاوربيين بطلب المساعدة نظرا لانهم كما كتبوا ، « لا يعرفون أية جريمة اقترفوها حتى يهاجمهم الجيش » (١٥٠) .

ثم تراجع السكان فيما بعد تحت ضغط الباشا واقتصروا على طلب تعيين شخص يحدد مقادير الضرائب بالعدل .

وقد انتشر رأي بين القناصل وحاشية الباشا مفاده ان الذي حرض على الاضطرابات هو الاقطاعي المحلي بطرس كرم وذلك بسبب استيائه من القائمقام . ولكن نص الشكوى المرسلة في الرابع عشر من حزيران الى القناصل ، وبساطة التعبير وروح اليأس الحقيقي المتفشية فيها والثقة الساذجة في المساواة بين الاغنياء والفقراء وبين القائمقام والفلاحين ، التي على حد زعمهم ــ نصت عليها أوامر « الباب العالي » ، كل هذا يشهد على الطابع الفلاحي الذي تتصف به الوثيقة والحركة نفسها .

ان شكوى أهالي جبة ــ بشري تستحق الاهتمام نظرا لانها تعكس العمليات التي حدثت في وعي فلاحي لبنان الشمالي بتأثير حوادث الاعوام الاخيرة .

وتتحدث الشكوى عن أن الاهالي يريدون ابلاغ القنصل عن أوضاعهم القائمة وعن ظلم واضطهاد الامير حيدر في توزيع الضرائب . ويكتب أهالي جبة ــ بشري بعد ذلك « وفقا لأوامر الباب العالي من الضروري جباية ثلاثة الاف وخمسمئة كيس من الضرائب موزعة على كل نواحي لبنان . كما ان الباشا أمر القائمقامين الدرزي والمسيحي أن يوزعا هذه الضريبة على مجموع البلاد بالتساوي والعدل دون التفريق بين غني وفقير تمشيا مع أوامر الباب العالي ، ولكن القائمقامين اتفقا على انزال الظلم بنا في سبيل رجالهما وأملاكهما » .

وقد وصف السكان وضعهم بكلمات مفعمة بالألم : فهم يترددون في هاوية « الهلاك » و « العوز » المطبق حتى ان وضعهم قد أثار

١٤٩ ــ المصدر نفسه .

١٥٠ ــ المصدر نفسه .

١٥١ ــ المصدر نفسه .

شفقة رجال الدرك الذين لم يجدوا في القرى « شيئا يؤكل » ، ولكن القائمقام ظل مستمرا في عدوانه . ولهذا عبروا عن أملهم بأن تتوسط لهم القناصل لدى الباشا لكي « لا تسمح الحكومة لأحد بانزال الظلم بهم ما داموا متساوين » . وقد انتهت الشكوى بالتماس المساعدة لكي « ينعموا بالطمأنينة والامن والخلاص من هذا الجور والظلم » (١٥٢) .

وأهم ما في هذه الشكوى، هو تفسير الفلاحين لخط كلخانة كوثيقة تعلن المساواة الاجتماعية والسياسية بين جميع السكان – « الفقراء والاغنياء » ، الفلاحين والقائمقام . ثم الجرأة في اطلاق صفة «الظلم» على أعمال القائمقام (لا يجب أن ننسى ان منذ عشر سنوات فقط قبل الفلاحون بخضوع ازدياد الضرائب التعسفي من قبل بشير الثاني) .

ان حوادث جبة – بشري قد وقعت في حزيران ، وفي نهاية آب أو في بداية أيلول عقد في كسروان «اجتماع هام للمسيحيين» المحتجين ضد الرسوم التي تبلغ نسبتها ١٢ ٪ . مما يدل على ان الهيجان لم ينقطع في لبنان الشمالي مع ان الاحتجاجات كانت موجهة حتى ذلك الحين ضد الضرائب المفروضة . (ومن الجدير بالذكر ان السلطات التركية قامت بين عامي ١٨٤٣ و ١٨٤٤ بمسح أراضي القائمقامية المارونية من أجل تصحيح قائمة الضرائب ولكن السكان رفضوا القائمة الجديدة لعدم استقامتها) (١٥٣) . وفي خريف عام ١٨٤٤ «نظم سكان زحلة من أنفسهم حملة ضد جارهم الامير خنجر حرفوش زعيم طائفة المتاولة » . وهكذا فليس سكان دير القمر وحدهم قد تخاصموا مع سيدهم ، بل وها هم سكان مدينة لبنانية أخرى وهي مدينة زحلة يقومون متحدين ومستقلين بهجوم ضد جارهم الاقطاعي . وقد شمل الهيجان أخيرا رجال الدين « فقامت جماعة من الرهبان الحاملين لميدالية القديس انطوان يتراوح عددها بين الاربعمئة والخمسمئة راهب بجلد الاسقف واهانة البطرك، ثم نهبوا الدير وهاجموا القرية، وتعزى هذه الواقعة الى الاستياء الديني الذي سببه التدهور الاخلاقي لدى رئيسهم . » ..

---

١٥٢ – المصدر نفسه .

١٥٣ – طنوس الشدياق : كتاب .... صفحة ٧٠١ ، ٧٠٢ .

وهكذا اشتد احتداد التناقضات وسط رجال الدين فبدأت الفئات الدنيا منهم بالاحتجاج ضد طغمة الارستقراطية الكنسية ، الامر الذي كان لا بد ان يؤثر على موقف البطرك . (١٥٤) .

وتعقد الموقف الداخلي في لبنان المتوسط نتيجة ظروف اضافية . فوضع الفلاحين الذي كان قد تحسن منذ اعتقال كبار مشايخ الدروز عاد منذ ربيع عام ١٨٤٤ مهددا بالتدهور بسبب اطلاق حرية المشايخ الدروز وقرار الحكومة بتنظيم القائمقامية لا على أساس الارض بل على أساس التركيب الديني للسكان . ووقف الفلاحون وسكان المدن المسيحيون بحزم ضد اعادة سلطة الاقطاعيين الاستبداد . ان حركة السكان المسيحيين في لبنان المتوسط ، التي هي في جوهرها حركة ضد الاقطاعية ، قد أخذت تتطور هذه المرة أيضا تحت ستار النضال بين الدروز والموارنة .

ومنذ النصف الثاني من عام ١٨٤٤ بدأ السكان المسيحيون في لبنان المتوسط والجنوبي بالاستعداد للقتال ضد الدروز . ولم يكن هناك شك لدى ذوي الملاحظة القوية من المعاصرين بالجوهر الاجتماعي لهذه المعركة القادمة .

وقد كتب ك. م. بازيلي بهذا الصدد يقول : كان المسيحيون « يريدون حل قضيتهم الشعبية مع الدروز بحد السيف » ثم أوضح بعد عدة أسطر ما يقصده بتعبير « القضية الشعبية » : ان انهيار سلطة المشايخ الدروز يعني ان السيل نفسه سيجرف لا محالة كل الارستقراطية المارونية (١٥٥) . كما أن ش. تشرشل بدوره أدرك المصدر المباشر لعودة الحسد والكره والعداوة بين الطوائف بين عامي ١٨٤٤ – ١٨٤٥ كان رغبة الموارنة في « التحرر مما كانوا يدعونه حق القنانة الدرزي » (١٥٦) .

وقد سبقت الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥ باشتباكات متفرقة ، ورد ذكر بعضها في كتاب أبي شقرا بشكل لا يدع مجالا للشك في جوهرها المناهض للاقطاعية .

ويكتب أبو شقرا ان أحد دروز دير القمر المسمى علي صالح

---

١٥٤ – اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٥٥ – ك.م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨١ .

١٥٦ – Ch Churchill, The Druzes..., pp. 80, 81.

وهو مالك حقول ومواشي (وبتعبير آخر اقطاعي) (١٥٧) ، ساق مواشيه مع شركائه وأبنائه الى مكان أمين فقابلهم في الطريق جمهور من المسيحيين المسلحين من قرية الدبية ، بنية « الايقاع بهم (صالح وأولاده — المؤلفة) وبغية اتلاف منازلهم وكسب واغتنام مالهم وسوامهم لما كان بين الفريقين من سابق المنازعات وسوء المجاورة » فتراشقوا بوابل من الرصاص واستنجد كل من الفريقين بسكان القرى المجاورة . وكان النصر بجانب الدروز . وقد صادف ان كان الشيخ نجم نكد في احدى القرى التي انجرت الى المعركة يشرف على أرزاقه . وهناك رأي يقول بأن هذا الشيخ قد وقف الى جانب شركائه من المسيحيين ، وهو على كل حال قد بذل جهده ليحول دون نهب الدروز لأملاك شركائه المسيحيين . (١٥٨) .

لقد كان السبب في هذه الحادثة هو قبل كل شيء الخلاف على الارض بين فلاحي قرية الدبية والاقطاعي الذي يملك الاراضي المجاورة لها . ومن الامور المميزة ان الشيخ النكدي الدرزي قد وقف الى جانب شركائه المسيحيين أي ان مصالحه المادية تغلبت على شعوره بالتضامن مع أبناء عقيدته .

وقد وقع صدام آخر بين أهالي قريتين من منطقة جزين وبين الاقطاعي عباس أبي شقرا . فبينما كان هذا الاخير في حقله بصحبة خادمه هاجمه أهالي هاتين القريتين ، فاستطاع أن يتوارى عن الانظار ، أما خادمه فقد وقع في قبضتهم بعد مقاومة يائسة فحوكم في مجلس جزين برئاسة شديد المعوشي (١٥٩) . وقر قرار المجلس

---

١٥٧ — ان عائلة صالح شأنها شأن عائلة أبي شقرا لم تكن تنتسب لاعيان الدروز وكانت تقف على السلم الاقطاعي الدرزي تحت درجة المشايخ .

١٥٨ — ابو شقرا : الحركة ... صفحة ٤٨ .

١٥٩ — من المتعذر ان نحدد تحديدا صحيحا الوجه الاجتماعي لهذا الشخص. لكن من المعلوم انه كان بين اعيان ووجوه مسيحيي مقاطعة اقليم جزين الى جانب القساوسة رجل أسمه منصور المعوشي وهو من سلالة الشخص الذي نحن بصدد ذكره . ان مسيحيي لبنان الجنوبي هم في الماضي من فلاحي المناطق المارونية الذين انتقلوا الى هنا . وقد اثرى قسم منهم فيما بين السنوات العشرين والثلاثين من القرن التاسع عشر . وبالتالي فان آل المعوشي يمكن ان يكونوا من اكابر الريف ومن المرابين او التجار الريفيين . وليس مستبعدا ان يكون هذا القسم من اكابر الريف الذي تمثله هذه السلالة قد اصبح اقطاعيا فيما بعد .

بوجوب الرمي به من شاهق الى أسفل درك « ليكون عبرة لمن اعتبر » (١٦٠) .

ان تصفية الحساب مع الاسير خادم الاقطاعي جرت بصورة قاسية صارمة ولكنها لم تكن نتيجة رأي اعتباطي بل نتيجة حكم المجلس الذي الفه الفلاحون لمجابهة سلطة المشايخ الجنبلاطيين الذين كانوا يخضعون لاحكامهم أهالي جزين والقرى المجاورة . واذا نحن قارنا اقوال أبي شقرا (وخاصة ما حدث مع الشيخ حمود جنبلاط) (١٦١) بملاحظة نقولا مراد ان « الفلاحين الذين يعملون في الارض مضطرون لحمل السلاح الى جانب المحراث » يصبح من الواضح توتر التناقضات الطبقية وتعقد الموقف السياسي في لبنان المتوسط والجنوبي .

وقد تجلى الاستعداد للصدامات مع الدروز فيما بين عامي ١٨٤٤—١٨٤٥ في تشكيل « جمعيات الحرب الشعبية » المسلحة . وقد كتب ك . م . بازيلي في شباط من عام ١٨٤٥ ان مسيحيي المناطق المختلطة « ينظمون صفوفهم عسكريا منذ عدة شهور (خوفا من غارات الدروز) . وعلى رأس كل ناحية زعيم عسكري يأمر على عدد من الامرين كان يعادل في البداية عدد القرى الموجودة في ناحيته ، ويأمر كل من هؤلاء على مئة انسان وعلى آمري فرق تضم كل منها عشرة أشخاص ويتوجب على هؤلاء جميعا ان يحضروا مع فرقهم عند عند أول اشارة (١٦٢) . وكان مقدمو الفرق الريفية من الفلاحين يدعون بـ « شيوخ الشباب » (١٦٣) .

وكانت كافة « جمعيات الحرب الشعبية » تأتمر بامرة لجنة سرية تألفت في دير القمر « وهي بمثابة جهاز للادارة الذاتية

---

١٦٠ — ابو شقرا : الحركة .... صفحة ٤٩ .

١٦١ — بينما كان الشيخ حمود كليب جنبلاط يقطع قرية عازور عرفه احدهم فاخذ يصيح في اهل القرية « الشيخ حمود مر الشيخ حمود » فهب شبان القرية باجمعها شاكي السلاح ومضوا في اثره . وهكذا نرى ان الاقطاعيين الدروز لم يكونوا يستطيعون حتى من الظهور في القرى الاخرى لئلا يعرضوا حياتهم للخطر (ابو شقرا ، الحركة .... صفحة ٥٠) .

١٦٢ — اسرخ «السفارة في القسطنطينية» .

١٦٣ — ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين صفحة ٢٨١ .

صادق على نفسه بنفسه » حسب تعبير ش . تشرشل (١٦٤)، وقد كان للجنة مواردها المالية وجهاز من الاشخاص الذين يقبضون الرواتب . وليست لدينا معلومات كثيرة عن هذه اللجنة، وقد كتب ك . م . بازيلي يقول : « كانت تجتمع في دير القمر اللجنة السرية ذات السلطة المطلقة على كل جمعيات الحرب الشعبية التي انتشرت فروعها في النواحي الجنوبية . وكانت اللجنة تصدر احكام الاعدام وتستخدم منفذين محلفين تصرف لهم رواتب ثابتة مثال «السبيري» (الجلاوزة) في جمهورية البندقية (١٦٥) . كما كتب ايضا : « ان اللجنة المركزية تدير العمليات العامة وترعى النظام » (١٦٦) .

كما اننا لا نعرف الاشخاص الذين كانت اللجنة تتألف منهم . ولا يذكر ابو شقرا سوى اسماء المقدمين العسكريين الرئيسيين الخاضعين للجنة وهم : ابو سمرا غانم، ويوسف الشنتيري ويوسف بك المبيض « ربما كان لقب بك مأخوذا من الخدمة العسكرية لدى الاتراك » والمطران يوسف ابو رزق والامير حسن أسعد شهاب (١٦٧) .

ان اسم المطران يدل على مشاركة كبار رجال الدين الموارنة في المنظمة ، كما يدل على هذا ايضا ان النقود التي كانت تأتي من النمسا الى البطرك كانت تصرف على شراء الاسلحة (١٦٨) . اما القساوسة (الفئات الدنيا من رجال الدين) في المناطق المختلطة فقد شاركوا بنشاط في الصدامات اللاحقة وكانوا يدعون في الكنائس الى « الحرب المقدسة » (١٦٩) وقد اكتشف في عام ١٨٤٥ عند نزع سلاح لبنان مستودع للبنادق في احدى كنائس البلاد (١٧٠) .

---

١٦٤ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 85.
راجع المعلومات الاولى بتاريخ الثالث من ايلول عام ١٨٤٤ عن وجود اللجنة واعمالها في اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٥ ـ ك . م . بازيلي : سوريا وفلسطين . صفحة ٢٨١ .

١٦٦ ـ ا س ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٧ ـ ابو شقرا الحركة .... صفحة ٥٣-٥٤ .

١٦٨ ـ ك.م بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨٢ .

١٦٩ — Ch Churchill, The Druzes..., p. 90.

١٧٠ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

ان كل هذا قد جعل المعاصرين يؤكدون ان الحركة كانت بقيادة رجال الدين . وكان ش . تشرشل يعتقد ان رجال الدين الموارنة هم الذين استفزوا اصطدامات الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥ (وصدامات عام ١٨٤١ كذلك) وقد عزى الى البنوك التعبير الموجز التالي : « اما سيادة الموارنة او الدروز والضربة يجب ان تنزل والسابق ستكون لديه فرصتان ضد واحدة لصالحه » . وابلغ تش . تشرشل ان البطرك كان يستلم التبرعات من النمسا وفرنسا ويسلح السكان ويأمر رجال الدين بدفع اربعة قروش لكل محارب يوميا . وقد استخدم الدعاية الدينية على نطاق واسع وجعل « من الحرب الحزبية حربا دينية » (١٧١) .

ولكن كل هذا لم يكن يعني ، في الظروف اللبنانية المعقدة ، ان رجال الدين كانوا يقودون الحركة كما اننا لا نستبعد ان كبار رجال الدين كانوا يبذلون جهودهم لتحويل النضال ضد الاقطاعية الى حرب بين الاديان .

ان أسلم سبيل للحكم على طابع القيادة الاجتماعي هو تحليل نشاط المنظمة .

كتب ك . م . بازيلي في الثالث من نيسان عام ١٨٤٥ تقريرا الى السفير الروسي جاء فيه : « ان المسيحيين الذين يشعرون الان انهم اكثر قوة والمنظمين عسكريا في جميع المناطق المختلطة يطالبون بالغاء جميع الحقوق الاقطاعية التي يتمتع بها اصحاب المقاطعات الدروز » . وقد لاحظ بازيلي بعد عشرة ايام ان الوفاق يسود بين جميع الملل المسيحية في المناطق المختلطة ، ويوحدهم « الميل العام الى التخلص من كل سيئات حكم الطغمة الدرزية » (١٧٢) . وهذا ما جعل ك . م. بازيلي يؤكد ان الارستقراطية المارونية لم تشارك في الحركة لانها ترى بوضوح النزعة الفوضوية لدى ابناء عقيدتها وقد ادركت جيدا ان انهيار سلطة المشايخ الدروز يعني ان السيل نفسه سيجرف لا محالة كل الارستقراطية المارونية (١٧٣) وهكذا نرى ان هناك احد الجوانب الواضحة من نشاط المنظمة وهو مقاومة سلطة الاسياد التي يتمتع بها اصحاب المقاطعات الدروز .

---

١٧١ — Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 83, 86.

١٧٢ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٧٣ — ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨١ .

وقد كتب معاصرو الحوادث عن ان اللجنة قد شكلت بهدف « عرقلة كل تقارب بين ابناء عقيدتهم ـ المسيحيين ـ وبين دروز المناطق المختلطة » (١٧٤) . أن ملاحظة تش . تشرشل تلقي الضوء على معنى واهمية هذه التدابير . فقد كتب يقول ان سعي اللجنة للحؤول دون اقامة اية علاقة بين الدروز والموارنة قد أسفر عن النتيجة المرجوة . « فبعد وقت قصير لم يعد المستأجرون المسيحيون يجرؤون على الاقتراب من صاحب ارضهم الدرزي مهما اشتدت رغبتهم في هذا سرا . وكانوا في بعض المناطق يرفضون دفع الاجرة . واصبح التكلم مع الدرزي جنحة ، ومعاشرته يعاقب عليها كخيانة » (١٧٥) . ويتجلى هنا الميل الى تحريض الفلاحين على الامتناع عن دفع الريع للاقطاعيين الدروز . (ومن الامور المميزة ان قادة عصيان كسروان الفلاحي الذي نشب في عام ١٨٥٩ سيمنعون شركاءهم من دفع الريع لكبار اصحاب الاراضي وسيلجأون الى العنف لتنفيذ هذا الامر) .

أن بعض بنود معاهدة السلم التي عقدها الدروز والموارنة بعد اصطدامات عام ١٨٤٥ تشير الى درجة اهمية الدور الذي لعبته مسألة الارض قبيل الاصطدامات وابانها . فهناك بند منها ينص على انه « من الآن فصاعدا لن تعقد الاجتماعات في اي مكان ولن يشترك فيها اي مسيحي ليلا او نهارا بل سيبقى كل في حدود ارضه ويزاول اعمالا شريفة ويهتم بأموره الخاصة وزراعة ارضه ولن يقوم بأي عمل يتعارض مع واجبه » . وقد حظر بند اخر الاستيلاء على ممتلكات الغير وطالب باعادة الممتلكات المغتصبة (١٧٦) .

---

١٧٤ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » وقد ابلغ تش. تشرشل ان اللجنة قد اصدرت اوامر صارمة لكل ابناء عقيدتها وانذرت بالاعدام كل من يصادق او يدخل في اية علاقات مع الطائفة الاخرى .
Ch. Churchill, The Druzes..., p. 85).

١٧٥ — Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 85-86.
وقد اصدرت اللجنة امرا بقتل قسيس تجرا على زيارة بيت الشيخ سعيد جنبلاط . (ان الوحشية الدينية التي غالبا ما كانت تتصف بها اعمال اللجنة ، تفسر باحتداد العداوة بين الديانات وبنشاط دعوة رجال الدين الموارنة ، وطابع المنظمة السري).

١٧٦ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

من الصعب ان نفترض ان رجال الدين الذين يملكون المقاطعات الضخمة التي يزرعها الشركاء يمكن ان يقودوا حركة النضال من اجل الارض . بينما من المعلوم لدينا أن التجار الاغنياء في دير القمر وأصحاب ورشات نسج الحرير الذين كانوا يطمحون للتحرر من اضطهاد واشراف الاقطاعيين الدروز قد تدخلوا في علاقات الاقطاعيين الدروز بفلاحيهم المسيحيين للدفاع عن هؤلاء الاخيرين « في حالة أضطهاد الدروز لهم » (١٧٧) . وقد استولى التجار ، لقاء الديون ، على اراضي المشايخ الدروز حول المدينة فأثاروا كراهية الاقطاعيين نحوهم . ومن المعلوم أن تجار دير القمر قد دخلوا في عداد لجنة بيروت في عام ١٨٦٠ . وان كل هذا يدل على اشتراك التجار في لجنة دير القمر لعام ١٨٤٥ الى جانب اخرين من ممثلي الفئة الثالثة في لبنان .

وهكذا نرى بشكل واضح ان جوهر الحوادث العفوية والمنظمة هو معاداة الاقطاعية . ولكن لم اتخذ النضال ضد الاقطاعية في عام ١٨٤٥ ايضا طابع الصدام بين الدروز والموارنة ؟ الى جانب الاسباب الموضوعية : مثل قوة العداء الديني بعد حوادث عام ١٨٤١ ، والصلة الوثيقة بين الفلاحين والمشايخ الدروز الخ .. كانت هناك عوامل اخرى كميل بعض الاوساط لتأريث العداوة واسباغ الطابع الديني على المعركة عمدا . وقد كانت هذه الرغبة ملازمة لرجال الدين الموارنة الذين حاولوا عن هذا السبيل ان يؤمنوا لانفسهم الغلبة السياسية في البلاد . كما كانت هذه الرغبة على ما يبدو تراود تجار دير القمر الذين كانوا يقدمون القروض لا للمشايخ الدروز فقط بل وللفلاحين الذين كانوا يكنون لهم الكراهية ويستفيدون من العداوة التي تتيح اقامة نظام في المدينة يتصف بصبغة خاصة من التمييز العنصري حيال الدروز في مجال عقد الصفقات التجارية .

وقد آثار نشاط لجنة « جمعيات الحرب الشعبية » ردة فعل لدى المشايخ الدروز . « ان سيل الذاهبين والآتين الذي لم ينقطع خلال شهرين كاملين ، والاجتماعات السرية ليلا ونهارا والمصاريف الباهظة على الضيافة كانت تشير الى ان ديوان سعيد بيك (جنبلاط ـ المؤلفة) كان في نشاط دائم » (١٧٨) كما ابلغ تش . تشرشل .

---

١٧٧ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 106.

١٧٨ — Ibid., p. 89.

وقد لفت نظر المعاصرين الاجتماع الضخم الذي عقده المشايخ الدروز في « المختارة » بتاريخ الثاني من شباط عام ١٨٤٥. وهناك زعم يقول بأن « الهدف الواضح لهذا الاجتماع هو انهاء الخلافات بين الاخوين جنبلاط (نعمان وسعيد ـ المؤلفة) حول الارث بشكل ودي » (١٧٩) . (وكان القنصل الانكليزي يدعم هذا الزعم بقوة) (١٨٠) . اما في الحقيقة فقد كان الهدف من هذا الاجتماع هو توحيد الجماعتين الاقطاعيتين المتعاديتين (اليزبكيون والجنبلاطيون) من اجل الاستعداد للمعركة القادمة مع المسيحيين.

وبعد الاجتماع في « المختارة » ازداد توتر الوضع في لبنان: فقد اشتريت خلال بضعة ايام كمية ضخمة من الرصاص والبارود في بيروت (١٨١) . واخذ مسيحيو المناطق المختلطة يعقدون العديد من الاجتماعات ويوزعون المناشير التي تدعو الى التأهب « لساعة الامتحان » (١٨٢) وفي نهاية نيسان وضع مقدمو الفرق المسيحية خطة للعمل المشترك وحددوا يوم وساعة البدء بالعمل (١٨٣) . وبدأت الفرق تتأهب للمعركة .

وقد اندلعت نيران القتال بين الدروز والموارنة في الايام الاخيرة من نيسان . وكانت الذريعة هي محاولة الشيخ الدرزي يوسف عبد الملك تجريد فلاحي قرية بتاتر من اسلحتهم . وقدهب سكان القرى المجاورة واهالي دير القمر لنجدة الفلاحين الذين اخذوا يقاومون الشيخ . واندلعت نار القتال حالا في عشرات القرى (في مناطق المتن والعرقوب وجزين والشوف والجرد والمناصف) وامتد الهيجان حتى لبنان الشرقي (١٨٤) . وقد وقف

١٧٩ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٨٠ ـ Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 269.

١٨١ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٨٢ ـ Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 89, 90.

١٨٣ ـ ابو شقرا الحركة .... صفحة ٥٤ .

١٨٤ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ، يصف ابو شقرا بدء الحوادث بشكل مغاير قليلا ، فيؤكد ان الصدامات قد بدأت بهجوم الفرق المسيحية دفعة واحدة في اليوم والساعة المحددين سلفا . ونظرا لان ابا شقرا يتحيز عندما يدور الحديث عن تحديد المبادر الى الصدام فاننا نرجح رأي ك. م. بازيلي . ولكن هذا لا ينفي ان الفرق المسيحية كانت تستعد سلفا للهجوم . ومن الممكن ان تكون حادثة بتاتر قد سبقت هذه الحوادث بقليل .

دروز حوران الى جانب الدروز في لبنان بقيادة الشيخ ناصيف النكدي الذي كان متواريا عن الانظار بعد حوادث عامي ١٨٤١ ـ ١٨٤٢ عند القنصل الانكليزي ب وود في دمشق ومن ثم في حوران (١٨٥) . وقد نهب دروز حوران في طريقهم سكان قريتي حاصبيا وراشيا .

واستمرت الصدامات الحربية طوال شهر ايار من عام١٨٤٥ وكان النصر في البدء حليف المعسكر الماروني الذي طرد من المتن وجزين ونصف قرى الشوف كافة الدروز ونهب ممتلكاتهم وحرق منازلهم . واستطاع الفلاحون الموارنة من الاقتراب الى جدران قلعة الجنبلاطيين في المختارة . وبعد اسبوع رجحت كفة الدروز في العمليات الحربية ، وحرق المشايخ الدروز الشرانق ودود القز لكي يحولوا اهتمام الفلاحين عن العمل ويجبروهم على الالتحاق بالفرق المحاربة . وشرعت الفرق الدرزية تنهب قرى المسيحيين وتحرق البيوت وترتكب جرائم القتل . واصبحت المدن الساحلية تزخر بآلاف المسيحيين اللاجئين ولم يسلم بيت واحد من بيوت القرى الفنية التي يبلغ عددها سبعا وسبعين قرية في لبنان(١٨٦).

وما كادت ترجح كفة الاقطاعيين الدروز حتى شرعوا بابداء الاهتمام لحماية شركائهم . فاعلن سعيد جنبلاط الامان لفلاحيه وشكل فرقا من المحاربين الدروز لتفادي وقوع اعمال عدوانية في قراه ولحماية العاملين في حقوله (١٨٧) .

اما السلطات التركية فقد اتخذت موقفا كموقفها في عام ١٨٤١ ولم تسرع الى وضع حد للصدامات المسلحة . واقتصر تدخلها في الحوادث على تجريد الفلاحين الموارنة من السلاح والتنكيل بالفرق المسيحية ، اما بالنسبة للدروز فقد وقفت منهم موقف المحايد (المؤيد) ، حتى ان الضباط الاتراك كانوا في بعض الاحيان يعطون السلاح الذي انتزعوه من المسيحيين الى المشايخ الدروز (١٨٨) . وفي نهاية ايار ، عندما اصاب الوهن الطرفين بما فيه الكفاية واصبح ظفر الاقطاعيين الدروز امرا واضحا اصدر

١٨٥ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٨٦ ـ ك.م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... ، الصفحة ٢٨٤ .

١٨٧ ـ ابو شقرا ، الحركة ... صفحة ٦١ .

١٨٨ ـ اسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

والي بيروت التركي وجيه باشا ، الذي عين بدلا من اسعد باشا قبيل الحوادث ، امرا الى الاقطاعيين الدروز والوكلاء المسيحيين بالحضور الى بيروت لاقرار السلام .

كان يبدو أن الطمأنينة تخيم على لبنان الشمالي البعيد عن مسرح الصدامات ولكن الاحداث المرتبطة بانتخاب البطرك الماروني كانت تدل على احتدام التناقضات الطبقية في هذا القسم من لبنان ايضا .

فابان الصدام الذي جرى بين الدروز والموارنة توفي البطرك الماروني يوسف حبيش ، وكان هناك مرشحان لاحتلال منصبه وهما المطران يوسف الخازن الذي ينتسب الى سلالة المشايخ الارستقراطية كسابقه ، والمطران بولس (*) وهو من اسرة فلاحية تابعة اقطاعيا لآل الخازن . فاختلفت الآراء في المجلس البطركي ووقف الاساقفة الذين ينتسبون للفئة الارستقراطية واعيان الموارنة الى جانب يوسف الخازن ، أما الاساقفة الذين لا ينتسبون لتلك الفئة ومن بينهم عبد الله البستاني وطوبيا فقد رشحوا المطران بولس. وتجدر الاشارة الى أن البطرك الماروني كان يتمتع بنفوذ في البلاد ويلعب دورا فعالا في حوادث السنوات الاربعين المعقدة . وكانت اشياء كثيرة تتوقف على موقف البطرك الجديد وارتباطاته السياسية . وهذا ما يفسر سعي الاساقفة المرتبطين بالمعارضة المناهضة للاقطاعية لرفع مرشحهم الى منصب البطريركية (ولنذكر بدور طوبيا في عامي ١٨٤١ و ١٨٤٤ (١٨٩) ، عندما كان يقود تمرد الرهبان في دير القديس انطوان) ، وكان المرشح ذو الاصل الفلاحي يتمتع بتأييد الفلاحين والرهبان وقد ارتبط اسمه بالامل باضعاف نفوذ الارستقراطية المارونية سياسيا واقتصاديا . ولهذا آثارت انتخابات البطرك معركة حادة ، ولم تنته النقاشات التي استمرت عدة اشهر في المجلس البطركي الا بتدخل القنصل الفرنسي في بيروت أي . بوجاد . الذي « قضى » بانتخاب يوسف الخازن حسبما تمليه السياسة الفرنسية التقليدية التي تحفظ علاقات قديمة ووثيقة بالارستقراطية المارونية (١٩٠) .

(*) تقصد بولس مسعد (ملاحظة من المعرب) .

١٨٩ — E. Poujade, Le Liban et la Syrie..., p. 158.

١٩٠ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية »

وعندما ذاع نبأ انتخاب البطريرك يوسف الخازن توارد الفلاحون والرهبان المسلحون بالبنادق والعصي الى الدير حيث كانت تجري الانتخابات . ولم يكونوا يريدون الاعتراف بقرار المجلس البطركي . وقد كتب ك . م . بازيلي ان « البطرك الجديد والاساقفة والقنصل الفرنسي الذي اراد حمايتهم تلقوا سيلا من السخرية والهزء بهم واضطروا للهرب الى الجبال خوفا من خطر اعظم وكانت غالبيتهم تسير مترجلة » (١٩١) . وقدم شيخ اهدن يوسف كرم الى مكان الحادث بصحبة فرقة مسلحة وطرد الفلاحين (١٩٢) . وبقي قرار انتخاب يوسف الخازن ساريا .

ولم يستقر الوضع في لبنان الا في أيلول من عام ١٨٤٥ . وقد اضطرت الحكومة التركية تحت ضغط الدول والرأي العام الاوروبي القلق من جراء الحوادث في لبنان الى القيام بخطوات اكثر حزما.

فارسلت الى بيروت وزير خارجية الباب العالي شكيب افندي واعطته مطلق الصلاحية لاعادة تنظيم الحكم في لبنان .

وسحبت جيوشها التي دخلت لبنان في ايلول عام ١٨٤٥ لنزع سلاح الاهالي ، وجمعتها في سوريا . ولم تلق الجيوش التركية مقاومة الا في لبنان الشمالي ومنطقة جبة ـ بشري وقريتي الزوق وغزير .

واستبدل شكيب افندي القائمقام الدرزي احمد ارسلان بأخيه أمين ارسلان . كما جرد المشايخ ذوي السمعة السيئة من املاكهم واعطاها لاقاربهم ووضع حدودا بين القائمقامتين .

وتألفت مجالس ملحقة بالقائمقاميتين ينتسب اعضاؤها لمختلف الطوائف الدينية في البلاد ،وتتمتع بسلطة قضائية وتشرف على توزيع الضرائب وتراقب عمليات جبايتها. وكان السكان ينتخبون وكلاء عنهم ليدافع كل وكيل عن ابناء عقيدته امام المقاطعجية .

وكانت صفوف الوكلاء في القائمقامية الدرزية تضم بعض المشتركين في الحركة المناهضة للاقطاعية من امثال :يوسف المبيض وقس من سلالة المعوشي وبعض الاشخاص الذين كانوا يحملون لقب حداد ، وكلهم من قرى مختلفة وديانات مختلفة. والظاهر ان هذا اللقب ليس لقبا عائليا بل كان يطلق على الشخص الذي يمتهن هذه

١٩١ — المصدر نفسه .

١٩٢ — B. Poujoulat, la verité sur la Syrie..., pp. 373-374.

المهنة ، هو او احد اجداده القريبين . وكانوا كلهم على الارجح يمثلون الفئة الريفية العليا من مسيحيي المناطق المختلطة .

وقد بقي مقدار الضرائب على حاله السابق – اي ما يعادل ثلاثة الاف وخمسمئة كيس، يعود آلفومئتا كيس منها فقط للخزينة ويوزع الباقي كرواتب للقائمقام واعضاء المجالس والوكلاء الخ... وقد اعلن مبدأ دفع الضرائب بشكل متساو بالنسبة لجميع السكان.

ووضعت مدينة دير القمر تحت امرة موظف تركي لديه وكيلان .

ان التنظيم الجديد قد حد من سلطة المقاطعجية واضعف بهذا مؤقتا التناقضات الطبقية في هذه المنطقة من لبنان .

الفصل الرابع

الحركة الفلاحية في لبنان الشمالي خلال السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر

* تاريخ دراسة العصيان في كسروان
* قبيل العصيان
* العصيان الكسرواني
* تنظيم السلطة وتدابير المتمردين الاجتماعية

الحركة الفلاحية في لبنان الشمالي
خلال السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر

بعد حوادث عام ١٨٤٥ أصيبت الحركة الفلاحية بالركود . ثم ابتدأت موجتها بالارتفاع من جديد منذ النصف الثاني من الخمسينات .

وقد اتصفت الفترة الفاصلة بين موجتي الحركة الشعبية بتطور البلاد تطورا سريعا في المجالين الاجتماعي والاقتصادي . ويكفي أن نذكر أن سكان بيروت قد ازدادوا بين السنوات الاربعين والسنوات الستين حتى الاربعين ألف شخص بينما كان عددهم يتراوح بين العشرة الاف والاثني عشر الفا . وازداد انتاج الحرير بمرة ونصف المرة . فاذا كان قد بني في عام ١٨٤٥ أول مصنع لغزل الحرير في قرية بتاتر (١) . فقد اصبح عدد مثل هذهالمصانع في عام ١٨٦٠ خمسة او ستة (٢) . وفي السنوات الخمسين افتتح اول بنك في بيروت (برأسمال انكليزي) وبني اصحاب

---

١ _ D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 52.

٢ ـ ك.د بيتكوفتش لبنان واللبنانيون صفحة ١٦٩ .

الاعمال المحليون الفنادق الاولى في المدينة (٣) . وبدات الشركة الفرنسية في عام ١٨٥٨ ببناء اول خط للمواصلات في سوريا بين دمشق وبيروت (٤) . وخلال هذه الاعوام افتتحت الشركات البحرية الاوروبية خطوطا منتظمة على طول ساحل لبنان . ان كل هذا يدل على تطور العلاقات البورجوازية وعلى ادخال لبنان بالتدريج في نطاق السوق الدولية . وقد صوحب تطور العلاقات الرأسمالية بنمو الفئات البورجوازية وبتباين الفلاحين وانهيارهم اقتصاديا . وليس من قبيل الصدف ان تكون السنوات الخمسين هي تاريخ بدء هجرة الفلاحين من لبنان التي كان نطاقها يتسع بسرعة . ففي عام ١٨٥٨ هاجر من خمس قرى مارونية فقط خمسة الاف انسان (٥) .

وسرعان ما ظهرت نتائج ادخال البلاد في السوق الدولية) ، ففي اعوام حرب القرم وعندما تعاظم الطلب على بضائع سوريا في الغرب ، ازداد تصدير المواد الزراعية الخام والقمح الى اوروبا من سوريا ولبنان ،مما أثر تأثيرا حسنا على حالة الفلاحين الاقتصادية.

ولكن ما ان انتهت الحرب حتى حلت فترة من الانحطاط الاقتصادي في البلاد نتيجة الازمة التجارية العالمية . وانخفضت اسعار المواد الزراعية الخام انخفاضا شديدا : اذ انقطع الطلب عن المنتجات السورية واللبنانية في السوق الخارجية . وفي عام ١٨٥٨ كان المحصول من الحبوب سيئا وقد حلت في شتاء عامي ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ كوارث طبيعية في البلاد الحقت اضرارا كبيرة في دمشق وسوريا الوسطى . ان كل هذه العوامل قد زادت في التضييق على السوق الداخلية . ولم تكن بضائع الانتاج المحلي وحتى الخارجي لتجد سوقا لتصريفها وقد تضاعفت حوادث الافلاس وسط البورجوازية التجارية ، وازدادت الجماهير فقرا واستياء من وضعها .

وفي الاربعينات والخمسينات دب النشاط في حياة لبنان

---

٣ ـ J. Farley, Two years in Syria, pp. 36, 54.

٤ ـ نشرت جريدة « حديقة الاخبار » البيروتية ان مشروع بناء هذا الخط هو من وضع التاجر البيروتي م. مدور :
(« Journal Asiatique », t. XII, 1858, p. 321).

٥ ـ M. Jouplain, la question du Liban, p. 368.

الاجتماعية والثقافية ، وظهر اثر هذا في بيروت بصورة خاصة ، فتحولت المدينة الى مركز اقتصادي واجتماعي وثقافي للبلاد وصوحب نمو السكان فيها بتطور الفئة البورجوازية (اصحاب الشركات التجارية والتجار والعملاء التجاريون) وبتطور المثقفين (من اساتذة وموظفين كتبة وصحفيين وادباء) .

وفي شتاء عام ١٨٤٧ ظهرت في بيروت اول منظمة ثقافية ـ تنويرية في سوريا ـ وهي « الجمعية السورية لدراسة العلوم والفنون » التي اصدرت في عام ١٨٥٢ كتابا بعنوان « اعمال الجمعية السورية . وكان لهذا الاتحاد مراسلوه في دمشق وطرابلس وصيدا وحيفا ، ثم بعد عشرة اعوام انحلت هذه الجمعية ليظهر عوضا عنها « المجمع العلمي السوري » الذي لم يحصل في البدء على اعتراف رسمي بهبسبب الخلافات مع السلطات التركية.

ومن الامور التي لها دلالتها نوعية الاشخاص الذين تتألف منهم هذه المنظمات . فقد كانت بنية المنظمة تعكس كالمرآة تغيرات الوضع الاجتماعي في سوريا ولبنان .

ومن الاشخاص الذين لعبوا دورا ملحوظا في هاتين المنظمتين: بطرس البستاني ، وهو مرب وكاتب اجتماعي منور ويعود بنسبه الى اسرة اقطاعية ـ اكليروسية ، وناصيف اليازجي وهو شاعر ومرب وكاتب اجتماعي ويعود بنسبه الى وسط يعيش في كنف القصر . وقد قضى هو نفسه سني شبابه في بلاط الامير بشير الثاني . ثم هناك الطبيب والكاتب الاجتماعي ميخائيل مشاقة وهو سليل اسرة من التجار ، وابراهيم طراد وهو ابن اسرة تزاول التجارة . الخ .

وقد كانت هاتان المنظمتان تدعوان لتغيير شكل الحياة في المجتمع اللبناني عن طريق نشر الثقافة . وكانتا تهتمان بتبسيط المعارف العلمية الطبيعية لنشرها بين الناس وبمعالجة قضايا التربية والتعليم . وكانت المواضيع الاجتماعية السياسية لا تزال ضعيفة الاثر في نشاطهم ومع هذا فقد ورد في خطاب بطرس البستاني الذي يدافع فيه عن تعليم المرأة تعبير : المساواة بين الناس ، وبالرغم من ان هذا المفهوم لم يكن واضحا تماما لدى قائله فان هذا يدل على ان المجال الايديولوجي كان يشهد تكون المقدمات اللازمة لولادة وجهة النظر البورجوازية .

وفي الاول من كانون الثاني عام ١٨٥٨ صدرت في بيروت اول

صحيفة اجتماعية سياسية بعنوان « حديقة الاخبار » وكان محررها هو الشاعر خليل الخوري ، المستخدم في احدى الشركات التجارية ، وممولها التاجر البيروتي ميخائيل مدور . وقد وضعت الجريدة هدفا لها « نشر المعارف والاخبار من شتى الابواب والمساعدة على تقدم التعليم » (٦) .

وكانت تحتوي على قسم سياسي واخر تجاري وثالث اقتصادي ، وكانت تولي القسط الاكبر من اهتمامها للمسائل الاقتصادية ، فتتحدث عن تطور التجارة ومشاريع ري الارض وتعبيد الطرقات وما شابه ذلك .

وفي عام ١٨٥٨ صدر في بيروت كتاب يتضمن تاريخا للحوادث في لبنان وهو « كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان » لمؤلفه طنوس الشدياق الذي كان مرتبطا ايضا بالمنورين السوريين.

ان كل هذا يدل على ظهور أشكال جديدة من الحياة الاجتماعية في لبنان ، الامر الذي كان لا بد ان ينعكس على الوضع السياسي داخل البلاد وان يقوي لدى فئات الشعب مشاعر مناهضة الاقطاعية والاتراك .

ان الخط الهمايوني الذي اعلن عام ١٨٥٦ المساواة بين اتباع الامبراطورية العثمانية قد بعث الامل لدى الشعب بالغاء التبعية الاقطاعية ، وابطال امتيازات الفئات الاقطاعية بالنسبة لتوزيع الضرائب (٧) . ولكن هذه الاوهام اخذت تتبدد في نهاية الخمسينات مما زاد من الاستياء العام بين السكان ، وتعقد الوضع نتيجة للازمة الاقتصادية وبدأت نار الاضطرابات تشب هنا وهناك في مختلف مناطق سوريا ولبنان . واثارت الضريبة الجديدة التي فرضت على المسيحيين عام ١٨٥٩ وهي : « دفع بدل عن الخدمة العسكرية » اضطرابات في سوريا . فرفضت الفئات المسيحية الفقيرة في دمشق دفع الضريبة الجديدة معلنة انها على استعداد لتقديم عساكر ولكنها لا تملك نقودا لتقدمها . وحشدت الحكومة التركية جيوشها في دمشق وقامت بالعديد من الاعتقالات وخصوصا في حي الميدان حيث تسكن الفئات الفقيرة . وهب الفلاحون في اللاذقية ضد حكامهم الاقطاعيين . وابتدأت الاضطرابات ضد الاتراك في نابلس،

٦ ، « Journal Asiatique », t. XII, 1858, p. 312.

٧ ـ لقد استند الفلاحون على الخط الهمايوني في شكاواهم على اضطهاد الاقطاعيين لهم في عام ١٨٥٩ كذلك .

كما انتشر الهياج بين فلاحي القرى المحيطة بدمشق (٨) . وادى استفحال الاستياء بين الفلاحين في لبنان الى نشوب العصيان في كسروان وهو أهم عصيان في تاريخ الحركة الفلاحية في البلاد .

تاريخ دراسة العصيان في كسروان

ان اول واضعي الدراسات حول العصيان في كسروان هم معاصرو هذا الحدث ، ومشاهدوه عيانا من اللبنانيين مثل انطون ضاهر العقيقي (٩) ، ومنصور الحاتوني (١٠) . ومن الاجانب مثل الكولونيل الانكليزي تش . تشرشل المقيم في لبنان انذاك (١١) ، والمؤرخ والكاتب الاجتماعي الفرنسي باتيست بوجولا الذي زار لبنان في خريف ١٨٦٠ (أتيح له ان يشهد شعلة العصيان المنطفئة في كسروان وان يقابل زعيمه طانيوس شاهين) . وقد كتب هؤلاء الاربعة من مشاهدي نضال الفلاحين عن هذا العصيان على اساس ملاحظاتهم وأحاديثهم مع المشتركين في الحوادث .

كما ان هناك بعض المصادر التي تشبه اعمال هؤلاء الاربعة من حيث الطابع الاخباري كالكتاب الذي صدر في باريس عام ١٩٠٣ بريشة احد موظفي القنصلية الروسية العامة في بيروت خلال السنوات الخمسين (١٣) . وكراريس المؤرخ والكاتب الاجتماعي فرنسوا لينورمان (١٤) الذي طاف لبنان في خريف عام ١٨٦٠ ، ورسائل ضابط الاسطول الفرنسي الادميرال باربيه دي

٨ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٩ ـ راجع « كتاب ثورة وفتنة ... » ترجم الى الانكليزية بعنوان :
Lebanon in the last years of feudalism, 1840-1868.

١٠ ـ منصور الحاتوني نبذة تاريخية ...

١١ ـ Ch. Churchill, The Druzes...

١٢ ـ B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie...

١٣ ـ « Souvenirs de Syrie (Expédition française de 1860) par un témoin oculaire », Paris, 1903.

١٤ ـ F. Lenorman, Les derniers événements du Syrie, Paris, 1860; F. Lenorman, Histoire des massacres de Syrie en 1860.

تينان الذي زار الشواطىء السورية في عام ١٨٦١ (١٥) .

وفي الوقت الذي صدرت فيه اعمال تش . تشرشل و ب . بوجولا ، صدرت كذلك دراسات حول هذا الموضوع بقلم ريشار ادوارد (١٦) . الذي كان يحوز على مواد وثائقية بهذا الصدد، وهي اوراق محاكمة « المسؤولين » عن صدامات الدروز والموارنة في لبنان وعن اعمال التنكيل بالمسيحيين في دمشق عام ١٨٦٠ ، كما صدرت في الفترة نفسها كذلك مراسلات للقنصلية الفرنسية تمس هذا الموضوع .

هذه هي الاعمال الرئيسية التي تتحدث بهذا القدر او ذاك عن العصيان الكسرواني والتي كتبها اصحابها وهم تحت تأثير الحوادث مباشرة .

يتميز طابع العصيان الكسرواني عن طابع حوادث عام ١٨٤١ وعام ١٨٤٥ التي لا يزال من الصعب تحديد مغزاها الاجتماعي حتى الان ، بوضوحه للجميع . فهو حركة عفوية فلاحية قام بها الفلاحون في لبنان ضد اقطاعييهم كتلك الحركة التي اطلق عليها في فرنسا اسم *jacquerie*

بيد ان معاصري الحوادث يختلفون في تحديد اسباب هذا العصيان وفي تقييم مواقف مختلف الكتل السياسية والاجتماعية من المتمردين وفي مجال الكشف عن الصلات التي تربط هذا العصيان بالصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٦٠ .

وقلما نصادف في كتب التاريخ اللبنانية والاوروبية ربطا مباشراً للاحداث بالوضع الاجتماعي وبالنظرات السياسية لدى مؤرخي الاخبار وعلماء التاريخ والكتاب الاجتماعيين كالربط الذي نجده في الدراسات المكرسة للعصيان الكسرواني والصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٦٠ . ولهذا فان مؤرخ الاخبار وجامع الرسائل انطون ضاهر العقيقي المتأثر بالافكار الدينية الجامدة والذي كان يعلل الكثير من الحوادث بدسائس الشيطان ويقيمها من وجهة نظر الصراع الازلي بين الخير والشر كانت حلوله للمسائل المختلف

١٥ — نشرت الرسائل في كتاب :
P. Rochemonteix, Le Liban et l'expédition française en Syrie (1860-1861), Paris, 1921.

١٦ — R. Edwards, La Syrie 1840-1862.

عليها في العصيان الكسرواني اقرب الى الواقع من خلول المؤرخ الفرنسي ب . بوجولا الذي تشكلت نظراته تحت تأثير تقاليد المدرسة التاريخية التي يتزعمها او . تيريه وف . غيزو .

وكان انطون ضاهر العقيقي ينتسب لعائلة شارك افرادها في العصيان الى جانب الجناح اليميني . ويتألف هذا الجناح من اكابر الريف الذين وقفوا ضد عدم المساواة الاجتماعية في القرية اللبنانية ولكنهم لم يشاطروا الفلاحين المحرومين من الاراضي طموحهم للاستيلاء على ممتلكات الاقطاعيين . وقد استطاع انطون العقيقي بفضل وضعه الاجتماعي ان يقيم اسباب العصيان تقييما صحيحا ،بدون ان يستعمل في التعبير عنها الاصطلاحات السياسية التي كان يستعملها زملاؤه المؤرخون الاوروبيون. وكان العقيقي يرى ان اسباب العصيان تعود لعدم المساواة الاجتماعية في حياة البلاد (« اقل واحد من بين الخازن كان يهين اكبر واحد من الاهالي »)، وعدم ضمان حفظ ممتلكات الفلاح وامنه الشخصي (« الفلاح وما بيده لهم » اي الاقطاعيين) . وسوء استعمال مشايخ آل خازن للسلطة . ولم يكن العقيقي يميل لتهويل دور رجال الدين والسلطات التركية في تطور العصيان . وكان يرى بوضوح مدهش بالنسبة لزمنه صلة العصيان بالصدامات الدرزية المارونية لعام ١٨٦٠ .

وقد كتب يقول : « ولم يزل البغض يتزايد بين المشايخ والاهالي الى ان وقعت الخلفة بين النصارى والدروز في ناحية الشوف وكان ذلك في ابتداء سنة ٦٠ وسبب وقوعها هو ان البعض من اهل تلك الناحية راموا رفع المقاطعجية مثل الامراء بيت ابي اللمع وخلاف مشايخ من دروز ونصارى ... فمشايخ الدروز علموا بهذا الخبر فأخذوا يضطهدون الاهالي ويوقعوا بين الطائفتين » (١٧) .

اما القسيس منصور الحاتوني فيحدد اسباب العصيان بشكل مغاير . ومن المعروف ان الحاتوني كان موجوداً في مكان العصيان وقد حاول ان يصلح ما بين الفلاحين والاقطاعيين . وكان من الواضح انه يقف بعواطفه السياسية الى جانب كبار رجال الدين الموارنة ويميل للدفاع عن مشايخ آل الخازن . وهو يرى ان اسباب نشوب العصيان هي نتيجة لدسائس القائمقام المسيحي بشير احمد الذي رفض آل الخازن ابداء الطاعة له فقرر ان يعاقب مشايخهم

١٧ — ثورة وفتنة .... صفحة ١٠٦ .

بتحريض الشعب على القيام ضدهم . ولا يذكر الحاتوني اي صلة اخرى بين الاحداث ، بيد انه لا ينفي ان دعوة عملاء القائمقام قد صادفت طموحا طبيعيا الى الحرية في نفوس السكان . وعلى هذا يمكن الافتراض بأن الحاتوني كان يجيز وجود مقدمات من شأنها ان تتيح لعملاء بشير احمد اثارة الشعب للقيام بالعصيان وهذه المقدمات في نظره هي طموح الفلاحين لتجريد كافة افراد اسرة الخازن من السلطة وذلك لصالح واحد منهم ، عادل ومحب للخير. (ونذكر بالمناسبة ان هذا البند من مطالب الفلاحين هو الوحيد الذي حظي بتأييد كبار رجال الدين الموارنة) .

ان كتابي العقيقي والحاتوني يعكسان الاراء التي كانت شائعة في المجتمع اللبناني انذاك . وبالاستناد الى صدى هذه الآراء في اعمال المعاصرين من الاوروبيين نستدل على انها كانت معروفة خارج حدود جبل لبنان ومع ذلك فان معايني الحوادث الاوروبين لا يرتقون الى درجة العمق التي يصل اليها العقيقي في تحليل هذه الحوادث

ويعلل د . شيفاليه هذه الظاهرة بقوله : « انهم (عملاء الدول الاوروبية – المؤلفة) بحكم انغماسهم في غمرة الدسائس التي تحيكها حكوماتهم لتقسيم الرجل المريض لا يعترفون غالبا بالمغزى الخاص للحركة ، بل ينظرون اليها كمجرد نتيجة للمنافسة بين الدول الاوروبية والجهاز الاداري العثماني » (١٨) ان هذه الملاحظة لا تنطبق على الدبلوماسيين فقط وبل وعلى الاوروبيين الذين كتبوا في السنوات الستين عن الاحداث في لبنان .

وبالرغم من كل الاختلافات في مشاعر التعاطف والنفور السياسية لدى المعاصرين الاوروبيين فانهم يميلون جميعا لتأويل اسباب العصيان الكسرواني خارج نطاق التطور الاجتماعي في لبنان نفسه . وهكذا نجد ان ب . بوجولا مثلا يفتش عن « جذور الشر » في سياسة السلطات التركية وكأنها هي التي كانت تحرض الفلاحين على العصيان ، وفي دسائس القائمقام بشير احمد والعملاء الانكليز .

ويعمد ريشار ادواردز في كتابه الذي يتميز عن كتاب ب « بوجولا » « الحقيقة عن سوريا » بعدائه للاكليركية وبتعاطفه مع

١٨ – D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 36.

الانكليز الى فضح رجال الدين الموارنة وكأنهم هم الذين استفزوا العصيان ضد المشايخ بفرض الانفراد بالنفوذ بين السكان . (ولنلاحظ أن كلا من بوجولا وادوآرد ، شأنهما شأن زملائهما الاوروبيين ، كانا يكنان مشاعر العداوة للمتمردين) .

ويمكن ان نصادف مختلف الالوان من المزاعم المشابهة في بقية الاعمال التي كتبت تحت تأثير الحوادث مباشرة، كما ان اكثرية الاعمال التي كتبت بعد ذلك وحتى ايامنا هذه تتصف بأنها تقف من الحوادث موقفا غير نقدي شأنها في هذا شأن سابقتها .

وقد مر ما يناهز الخمسين عاما قبل ان يعاد النظر في اراء ب. بوجولا و ر. آدوارد . على يد بولس نجيم (جوبلان) (١٩) .

لقد كان بولس نجيم حائزا على ثقافة تاريخية اوروبية وكان على ما يبدو ملما بالنظرات التاريخية البورجوازية التقدمية ، ومن الجائز انه قد تأثر بعض الشيء بأعمال الاشتراكيين الفرنسيين . وقد أعطي نجيم موهبة تأويل المصادر بعمق وفطنة، وبالرغم من ضيق دائرة مصادره (اذ انه كان يستخدم اقوال معاصري الحوادث وما نشره اي . تيستا من الوثائق الدبلوماسية وربما كان يستخدم كذلك ارشيف القنصلية الفرنسية في بيروت) فقد تمكن من ان يستخلص منها اكبر قدر من المواد للبرهان على صحة ارائه . وقد نبذ نجيم بجراة التصورات القديمة عن الحوادث وانشأ سلسلة من المفاهيم الخاصة به . ولكنه للاسف كان احيانا يتبنى كبديهيات بعض الاراء التي لا يمكن النظر اليها الا كفرضيات فقط . اما من ناحية عقيدته السياسية فقد كان قوميا وكان يكره الاتراك ولا يفوت آية فرصة لنقد سياستهم في سوريا . وهو كغالبية القوميين البورجوازيين اللبنانيين في بداية القرن التاسع عشر من محبذي السياسة الفرنسية ، الامر الذي يجعله غير موضوعي في تقييمه لهذه السياسة .

ونظرة نجيم الى اسباب العصيان هي نظرة صحيحة في خطوطها العامة على الاقل، اذ انه يعتبره نتيجة حتمية لارتقاء سكان لبنان من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ومما له اهميته كذلك تعليله للاسباب التي جعلت النضال الفلاحي في الخمسينات يبدأ في المناطق المارونية الشمالية حيث كانت الرجعية الاقطاعية

١٩ – M. Jouplain, La question du Liban.

تعربد دونما اي رادع ثم ينتقل فيما بعد الى لبنان المتوسط والجنوبي ، حيث كان نشاط الوكلاء يحد من تعسف الاقطاعيين .

وبولس نجيم هو أول من لاحظ التدرج في تطور الحركة الفلاحية في لبنان . فقد كتب عن أن فلاحي كسروان نهضوا في البداية ضد سوء استعمال السادة للسلطة ومن ثم من اجل الغاء الامتيازات الاقطاعية وفي سبيل المساواة السياسية والاجتماعية واخيراً في سبيل توزيع الارض . لقد كان الفلاحون اللبنانيون لا يملكون الارض التي يعملون عليها ولهذا كانوا يتعطشون لوضع قانون زراعي شأنهم في هذا شأن الفلاحين الفرنسيين ابان الثورة الفرنسية . ولكن من الصعب ان نوافق مع بولس نجيم على تحليله لتوزع القوى الطبقية في البلاد ابان العصيان ، كما انه من الصعب ان نوافق معه كذلك على تحديده لقادة العصيان . فهو يرى ان الحركة قامت في البداية برئاسة رجال الدين والبطرك ثم تزعمها بعد ذلك يوسف كرم وصفار السلالات الاقطاعية .

وقد كان من الواضح تماما لدى بولس نجيم أن الصدامات التي وقعت بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠ لم تكن سوى الشكل الخارجي « لثورة الفلاحين » في جنوب لبنان (*) .

أن التحليل النظري لاحداث نهاية السنوات الخمسين في لبنان الذي وضعه بولس نجيم لم يكن مقبولا لدى معاصريه ، ولم يكن لهمن أثر في الابحاث التي وضعت فيهذا المجال الا فيعصرنا هذا اي بعد مضي خمسين عاما على وضعه . فنحن نجد أن عادل اسماعيل (٢٠) يقبل كافة اراء نجيم وان م. كير يشاطره اكثرها (٢١) ، مع انه قد اتيح خلال السنوات العشر الاخيرة اكتشاف ونشر مصادر جديدة لم تكن متاحة لبولس نجيم .

ففي عام ١٩٣٩ اصدرت المجلة التقدمية « الطليعة » كتاب الاخبار الذي الفه انطون العقيقي ووثائق البطريركيةالمارونية التي تحتوي على الرسائل المتبادلة بين المتمردين والبطرك الماروني بعد ان اعدها يوسف يزبك للنشر . وهي وثائق على درجة من الاهمية يصعب تقديرها . وقد تابع يوسف يزبك في السنوات

(*) والمقصود هنا بالطبع جنوب جبل لبنان (ملاحظة من المعرب) .

٢٠ — Adel Ismail, Histoire du Liban.

٢١ — Lebanon in the last years of feudalism (1840-1868).

الخمسين نشر مصادر القرن التاسع عشر واعاد نشر كتاب منصور الحاتوني . كما شرع د . شيفاليه بمعالجة ارشيف مشايخ عائلة الخازن المحفوظ في المتحف الوطني في بيروت (٢٢) .

وهكذا تتشكل قاعدة جديدة للمراجعةبصدد دراسةالعصيان الكسرواني .

آن د . شيفاليه هو اول من وضع تحليلا لبعض قضايا العصيان الكسرواني على مستوى العلم الحديث ، ولكنه اقتصر في تحليله هذا على دراسة الاسباب الاجتماعية والاقتصادية العامة وعلى الوضع الاقتصادي في لبنان قبيل العصيان والعلاقات المتبادلة بين المتمردين وكبار رجال الدين الموارنة (٢٣) .

ولم تجر حتى الان اية محاولة لكتابة تاريخ العصيانودراسة العلاقات بين مختلف فئات المتمردين الاجتماعية ثم اخيرا الاعتماد على المصادر لتبيان مكان العصيان الكسرواني في الحركة الفلاحية في لبنان القرن التاسع عشر وصلته بأحداث السنوات الاربعين وبالصدامات التي وقعت بين الدروز والموارنة في عام ١٩٦٠ .

قبيل العصيان

في عام ١٨٥٤ غادر المسرح السياسي في لبنان تباعا كل من الامير حيدر ، والقائمقام الماروني الذي توفي في ايار ويوسف الخازن والبطرك الماروني الذي توفي في تشرين الثاني . وظهرت وجوه جديدة ارتبطت اسماؤها بالحوادث التي شهدتها البلاد بعد ذلك .

ان البطريرك الجديد بولس مسعد الذي أثار ترشيحه معركة ضارية في صيف عام ١٨٤٥ ، تم انتخابه الان دون اثارة خلافات. ذلك أن غالبية الاساقفة الموارنة في منتصف السنوات الخمسين لم تكن تنتسب للارستقراطية الاقطاعية . ولنذكر بأن بولسمسعد الذي تلقى ثقافته الدينية في روما ،والذي كان يتحدث بثمان لغات

٢٢ — D. Chevalier, Que possédait un cheikh maronite en 1859 ? Un document de la famille al-Hazen, — « Arabica », t. VII, 1960, janvier.

٢٣ — D. Chevalier, Aux origines des troubles...

كان يعود بأصله الى اسرة من الفلاحين (٢٤) . وكان اخوه بطرس قسيسا بسيطا . وقد كتب تشرشل يقول ان البطرك الماروني يتميز « بكرهه للارستقراطية الاقطاعية وتعصبه للعقائد الدينية الجامدة التي تدين بها طائفته » (٢٥) . وكانت الكتلة التي رشحته والتي يتمتع طوبيا عون بنفوذ كبير بين افرادها تشاطره موقف المعارضة ازاء الارستقراطية الاقطاعية . وكان رجال الدين يرمون الى التضييق على الارستقراطية الاقطاعية في المجال السياسي كما ضيقوا عليها في مجال ملكية الارض . ولكن بالرغم من كل ما كان يكنه البطرك ورجاله المقربون من مشاعر العداء للارستقراطية الاقطاعية فان شعور التضامن الطبقي مع الفئات الاقطاعية لم يكن ليتركهم ولو للحظة واحدة .

ولم يحتل القائمقام الجديد الامير بشير احمد ابو اللمع منصبه فورا . فقد احتل مكان حيدر مؤقتا امير اخر من العائلة نفسها اسمه بشير عساف . وبعد اربعة اشهر أعطيت الافضلية لبشير احمد بسبب قربه من الامير السابق (اذ كان متزوجا من بنت الامير حيدر) ، وبفضل الرشاوى الضخمة التي قدمت لوالي صيدا (٢٦)، وقبل كل شيء بفضل الدعم القوي له من جانب القنصل الفرنسي اي . ليسيبس . بينما كان القنصل الانكليزي مور على العكس يدعم الامير بشير عساف . وقد اثرت الخلافات الانكلو - افرنسية حول تعيين القائمقام على المعركة التي وقعت بعد ذلك بين الاميرين .

ولم يكد بشير احمد يصل الى الحكم حتى بدأ يطغي ويبغي ، وغير افراد ديوانه ، فعين فيه قضاة موالين له واخذ يحكم في الدعاوى الجنائية والمدنية حسب ما يرتئيه . وقد كان يسعى لاخضاع الارستقراطية الاقطاعية له . . ويصف انطون العقيقي ، وهو من خصوم المشايخ الخازنيين ، تدابير الامير بشير احمد بأنها « عادلة » لان الامير « حكم الحكومة عدل وردع الاقوياء عن الضعفاء » . والى جانب ذلك فقد كان بشير احمد يسيء في توزيع الضرائب ويضطهد فئات كاملة من السكان (٢٧) . حتى ظن الناس

٢٤ — B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., p. 75.

٢٥ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 122.

٢٦ — « ثورة وفتنة ... » صفحة ٦٦ .

٢٧ — يبدو ان الامير كان يضطهد السكان الكاثوليكيين ارضاء لرجال الدين الموارنة وبهدف ارغام اولئك على الالتحاق بالكنيسة المارونية .

ان الامير بشير قام من القبر » (٢٨) حسب تعبير العقيقي .

وبعد استلام الامير بشير للحكم بفترة قصيرة ساءت العلاقات بينه وبين الارستقراطية المارونية الى حد بعيد . واخذ العملاء الانكليز يدعمون المعارضة الاقطاعية التي يتزعمها بشير عساف (٢٩) . وفي صيف عام ١٨٥٧ رفع المشايخ الخازنيون شكوى على القائمقام فحولت الى استامبول وأصر السفير الانكليزي ستافورد ريدكلف على ملاحقتها عند اولي الامر للنظر فيها (٣٠) . ونشب اثناء ذلك صراع عنيف بين انصار بشير احمد وخصومه .

وتعقد الوضع في لبنان نتيجة لاحتدام التناقضات الاجتماعية بعد حرب القرم .

وعزمت الارستقراطية الاقطاعية التي اعماها كرهها للامير على الاستفادة من استياء الاهالي لتحقيق اهدافها ، فأخذت تشجع عقد الاجتماعات لكتابة العرائض والجهر بالاحتجاجات ضد اساءة القائمقام في توزيع الضرائب وجبايتها (٣١) .

وفي خريف عام ١٨٥٧ حضر الى صيدا واليها الجديد خورشيد باشا في صحبة بعض القطعات العسكرية . ويذكر القنصل الروسي موخين انه كانت لدى الوالي الجديد تعليمات بعرقلة حركة العرائض في لبنان . وقد كان موخين يفترض عن حق بأن السلطات التركية كانت لا تزال مهتمة كالسابق بتعقيد الوضع السياسي في لبنان لكي تكون لديها الذرائع المناسبة لالغاء الحكم الذاتي في البلاد (٣٢) .

ولهذا فقد دعا الوالي الجديد فور وصوله كافة المستائين لتقديم شكاواهم اليه . ولكنه طالب بايقاف الاجتماعات في البلاد . فانهالت جموع المشتكين الى بيروت (٣٣) مما اقلق الباشا وجعله

٢٨ — « ثورة وفتنة ... » صفحة ٥٤ .

٢٩ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٠ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 124.

٣١ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ..

٣٢ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٣ — كان عدد المشتكين يمكن ان يصل الى بضعة الوف . وعلى كل حال فقد بلغ عدد المشتكين على القائمقام الذين قدموا الى بيروت في حزيران من عام ١٨٥٨ حين وصول التركي اتابي الى المدينة الفا وخمسمئة انسان . « السفارة في القسطنطينية » .

يصرخ بأن كل هذه الحركة « نتيجة لفتنة » وبأن يصدر امرا الى الجبليين بمغادرة المدينة وابقاء وكلاء عنهم فقط .

ان الهيجان الذي انتشر في لبنان بقدوم خورشيد باشا اضطر السلطات التركية الى الاسراع لاتخاذ التدابير والقرارات بهذا الشأن . كما تدخل القناصل الاجانب فيالامر فاضطر الباشا تحت الحاحهم آن يصدر امرا في بداية كانون الاول يمنع بموجبه تقديم الشكاوى وفي الوقت نفسه اوصى القائمقام بأن لا يقوم بأعمال من شأنها آن تزيد الاضطراب في البلاد .

وقد جاء عام ١٨٥٨ بتعقيدات جديدة ، ففي نهاية ايار حاصرت فرقة من الجبليين بقيادة الارستقراطية الاقطاعية قرية برمانا حيث يقيم آلقائمقام . فهرب هذا الى بيروت ، وانتقلت السلطة بأكملها الى يد المقاطعجية .

ولم يكن قدوم عطا ـ باشا من استامبول للنظر في الشكاوى ليغير من الامر شيئا . فقد ظلت اجتماعات السكان مستمرة ، واتخذت في منطقتي المتن والقاطع طابعا جماهيريا وكان يمكن ، حسب رأي السلطات التركية « ان تبلبل النظام في آلجبل وتقضي على طمأنينة السكان » (٣٤) .

ومع ان الامير بشير احمد قد عاد الى قصره تحت حراسة تركية بعد شهر من هربه الا انه لم يعد يتمتع بالسلطة . ولم تؤد محاولات الامير لتنفيذ امر الباب العالي والشروع بجباية الضرائب الا لنشر الاستياء من جديد بين الاهالي (٣٥) .

وقد أقلق الوضع في البلاد رجال الدين الموارنة . وكان البطرك واثقا ان الارستقراطية بتأريثها نار المعارضة ضد القائمقام « كالباحث عن حتفه بظلفه » (٣٦) . فراح يحذر مشايخ الموارنة شخصيا من مغبة هذا الامر . واخذ الاسقف طوبيا (بتحريض من الباشا والقنصل الفرنسي) يبذل جهوده لتسوية الامور بين القائمقام والمشايخ المسيحيين (٣٧) . وكانت الارستقراطيةالدرزية قلقة ايضا مما آل اليه الوضع . وقد اوصى زعيم مشايخ تلحوق

---

٣٤ ـ ارسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٥ ـ اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٦ ـ منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٦٣ .

٣٧ ـ اسرخ السفارة في القسطنطينية .

دروز المتن في رسالة اليهم بعدم الاشتراك في الحركة وباطاعة السلطات وعدم المساهمة في الاجتماعات. كما توجه سعيد جنبلاط الى مشايخ آل الخازن بمثل هذه آلوصية وحذرهم من خطر هذه الاعمال على مقاطعجية كافة الطوائف في لبنان وأصر على اتحاد الاقطاعيين في البلاد (٣٨) . ان حوادث عام ١٨٤١ و ١٨٤٥ قد جعلت الارستقراطية الدرزية اكثر حذرآ من ذي قبل .

ان قلق رجال الدين والاقطاعيين الدروز كان له ما يبرره . فحركة العرائض والصراع حول القائمقام كانا بمثابة الشرارة التي فجرت التناقضات الاجتماعية ، ولم تكن احداث زحلة وغزير الا البوادر آلتي أنبأت بقرب وقوع هذا الانفجار .

فسكان زحلة ،الذين حصلت بينهم وبيناسيادهم الاقطاعيين من الامراء اللمعيين مشادات قبل هذا ، امتنعوا الان عن طاعةبشير احمد أبي آللمع ، (ويبدو انحركة العرائضضد الامير قد ساعدت على هذا) وانتخبوا من بينهم شيخ شباب وشكلوا مجلسا بلديا منتخبا من ستة اشخاص . وقد نشرت جريدة « تايمز » ان سكان زحلة قد نظموا « جمهورية ثيوقراطية » (٣٩) . وظل الامير يفاوض سكان المدينة طوال ثلاثة اشهر « ولم أمكنه ان يلاشي هذا العمل » (٤٠) .

وامتنع سكان غزير ، وهي قرية لبنانية كبيرة ، عن طاعة اسيادهم من مشايخ حبيش ، وكتب العقيقي يقول انهم « عملوا شيخ شباب نظير زحلة وكتبو حجج روابط فيما بينهم على هذا العمل (اي آلوقوف ضد الاقطاعيين ـ المؤلفة) ولما علموا بهالمشايخ صاروا يتهددوا الفلاحين على عملهم فحصل بينهمغوشة وراحجملة مجاريح » فتدخلت السلطات والقت القبض على البعض من الطرفين وخمدت الحركة (٤١) .

وبعد حوادث زحلة وغزير نشب العصيان في كسروان .

---

٣٨ ـ المصدر نفسه .

٣٩ ـ « The Times », 22. VIII, 1860.

٤٠ ـ « ثورة وفتنة ... » الصفحة ٦٦ .

٤١ ـ ثورة وفتنة ... الصفحة ٦٦ .

بدأ الهياج بين الفلاحين في كسروان منذ ربيع عام ١٨٥٨ عندما كانت حركة العرائض في بقية مناطق لبنان الشمالي في أوج نشاطها .

وكانت الفئات الاقطاعية تتصارع حول منصب القائمقامية من اجل اهدافها السياسية النفعية . وكانت جماعة من أسر آل الخازن (٤٢) تدعم بشير عساف ، وتدعم جماعة الاخرى الاميربشير احمد . وكانت كل جماعة منهم تريد ان تجر الفلاحين الى جانبها فعمد الفريقان الى المناورة مع البعض (٤٣) والى استعمال العنف « والشتم والضرب » مع البعض الاخر حتى ان الامر كان يصل الى القتل . ولم يتورع المشايخ عن نهب الفلاحين بشكل مباشر من اجل الحصول على الاموال اللازمة لمتابعة الصراع . وقد اشتكى فلاحو كسروان بعد انتهاء الحوادث في خريف عام ١٨٥٨ الى البطرك من ان الاقطاعيين المتنافسين قد حرموهم « الامن والراحة والسكينة » (٤٤) .

وقد تجلى الهياج بين السكان في البداية على شكل نقاش بين الفلاحين « لتحديد موقفهم من هذا الامر » أي من الصراع الذي يجري بين المشايخ . وكتب العقيقي يقول : « فعند ذلك حصلت المخابرة فيما بين الاهالي عن ذلك بين البعض الذين ليس هم من الاعيان وذلك كل قرية من قرايا كسروان من دون علم من اهل القرية الاخرى لان الرعب واقع في قلوب الرعايا (من بيت الخازن) .

ان انطون ضاهر العقيقي قد استطاع ان يحدد الاسباب الاولى للعصيان الكسرواني وان يفهم نفسية الفلاحين اللبنانيين ويلاحظ النبضة الاولى التي استدعت انتشار الهياج بين الفلاحين . وقد اشار الى ان الفلاحين بدأوا يعبرون عن استيائهم « باللهج فيما بينهم عن انهم صاروا كالعبيد بيد المقاطعجية وما عاد لهم قول ولا

٤٢ — مشايخ ال الخازن كانوا مالكي منطقة كسروان الاقطاعيين .

٤٣ — وصل الامر الى ان عين المشايخ وكلاء في القرى في شهر اذار من عام ١٨٥٨ من اجل جمع التواقيع على العرائض له الح القائمقام أو ضده ، (منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٦٣) .

٤٤ — ثورة وفتنة ... صفحة ١٦٨ .

مشورة في شيء » (٤٥) وكان الاقطاعيون يجبرونهم على توقيع العرائض دون اخذ رأيهم في محتواها بينما جرت العادة في المجتمع اللبناني منذ اقل من مئة سنة على عقد اجتماعات عامة يتمتع الفلاحون فيها بحق التصويت (٤٦) .

وقد اخذ الفلاحون يستنكرون تصرفات المشايخ الذين يمتهنون كرامتهم « وكانوا يتكلمون ان الفلاح وما بيده لهم (للمشايخ — المؤلفة ... وان اقل واحد من بيت الخازن كان يهين اكبر واحد من الاهالي » (٤٧) .

ان ب . بوجولا قد استطاع ان يسجل في كتابه محتوى تلك الاحاديث التي كانت تدور في قرى كسروان ، ومما ورد لديه « ان الفلاحين يتهمون المشايخ بأنهم لا يظهرون دائما بمظهر مثال العدل واللين في معاملتهم لهم . حتى ان نساء المشايخ كن يتخذن قرارات تمس شؤون الفلاحين ويبعثن احيانا بخدامهن الى اكواخهم . وقد اصبح من العادة تقديم الهدايا اليهن ايام العيد ، وتقبيل ايديهن بالضرورة كما هي الحال بالنسبة لازواجهن وذلك تمشيا مع ما ينبغي فعله لدى الامراء (الحاكمين) ورجال الدين . وكان على الفلاحين ان يقدموا جرة من القهوة في عرس احدى بنات الشيخ او ابنائه . وكانوا يلومون حكام القرى لانهم يعفون انفسهم من الاتاوات المفروضة على الاشخاص ويلقون بأعبائها على كاهل الفلاحين مستخدمين في هذا سلطتهم الشخصية » وكان الفلاحون في نهاية المطاف يتهمون الاقطاعيين باختلاس جزء من الضرائب (٤٨) .

وفي ربيع عام ١٨٥٨ بدأ فلاحو بعض القرى يستبدلون الاقوال بالافعال فشكلوا منظمات سرية ، كان هدفها حتى ذاك الوقت الدفاع المشترك عن مصالح من تمثلهم .

وقد نشأت احدى هذه المنظمات في قرية عجلتون . «واخذت الرعايا بالاجتماعات ليجدوا لهم طريقة يوقوا ذواتهم بها من هذه المظالم من دون معارضة الاحكام في شيء ، فحصل اولا اجتماع في قرية عجلتون بين بعض الشبان وتحالفوا فيما بينهم بأنه لا احد

٤٥ — نفس المصدر — صفحة ٧٢ .

٤٦ — راجع الفصل الثاني .

٤٧ — ثورة وفتنة ... صفحة (٧٢) .

٤٨ — B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., pp. 58, 59.

يخون الاخر وانه اذا احد المشايخ تعدى على واحد منهم يكـون الجميع مسعفين له حتى الدم » (٤٩) .

وتشكل اتحاد مشابه في قرية كفرذبيان كان يضم في البدء ثلاثة عشر رجلا فقط . وسرعان ما تمت الصلة بين القريتين وأخذ اعضاء الاتحادين « يخبر بعضهم بعضا بخططهم السرية التي تهدف لحمايتهم من الاضطهاد فقط لا غير » .

وتم في كل من القريتين انتخاب وكلاء لقيادة عمليات الفلاحين . وقد لعب اثنان منهم وهما صالح جرجس صفير من عجلتون وحبيب آلخوري العقيقي من كفردبيان دورا ملحوظا اثناء العصيان فيما بعد .

وقد عاد مشايخ آل الخازن في الخريف فجددوا نشاطهم ضد القائمقام بدون ان يلحظوا ما يجري في اوساط الفلاحين . وشرع بعضهم يطالب الفلاحين بعقد الاجتماعات وتقديم العرائض لازاحة بشير احمد ، واخذ آلبعض الاخر يطالب بتقديم الشكاوى على بشير عساف . وقد اشار العقيقي في كتابه الى ان « هؤلاء المشايخ لم يعلموا ان نهاية الامر تعود على رؤوسهم » (٥٠) .

وقد اخذت الاجتماعات تأخذ طابعا معاديا للمشايخ على عكس ما كانوا يتوقعونه منها . وينبغي الافتراض ان الاجتماعات آلتي عقدت في قرية زوق مكايل وربما كذلك اجتماعات ريفون وعشقوت والقليعات والتي بادر فيها الفلاحون الى انتخاب وكلاء عنهم قد جرت في هذه الفترة بالذات . وقد شدت هذه الاجتماعات من عزيمة اهالي عجلتون فشرعوا بمفاوضة آل خازن وتقديم مطالبهم لهم ، الامر الذي يعتبر شكلا صريحا من أشكال المعارضة .

وبعد انعقاد الاجتماع الريفي الذي وقف فيه اهالي عجلتون موقفا جريئا ضد المشايخ « طلبوا وجوه البلاد الى قرية عجلتون للتوصل الى اتفاق بينهم وبين الشعب » . وجرت المفاوضات في ايلول من عام ١٨٥٨ ، وحضرها بعض القساوسة كوسطاء بين الطرفين .

ولم يقف الفلاحون في المفاوضات موقف الواثق من نفسه ، بل اخذوا «يبررون» عزمهم على اجراء المفاوضات « بأنهم يرومون

---

٤٩ ــ ثورة وفتنة ... صفحة ٧٧ .

٥٠ ــ المصدر نفسه صفحة ٧٩ .

المشايخ كما كانوا أولا وليس عندهم فكر مضر او تغيير » (٥١) .

وقد اجاب المشايخ على اقوال الفلاحين بالتهديد والوعيد (٥٢) .

وانتهت المفاوضات بدون اية نتيجة ولكنها جعلت الطرفين يأخذان اهبتهما للقتال .

ينبغي الافتراض أنه في هذا الوقت بالذات تم العهد الذي أقسم بموجبه فلاحو عجلتون ومزرعة كفردبيان وريفون والقليعات وعشقوت ودأريا وبقعاتا وبلونه وجعيتا وغزير على توحيد اعمالهم والعمل كيد واحدة . وقد اخبروا البطرك الماروني بولس مسعد بأمر هذا العهد (٥٣) ووجهوا اليه رسالة ذكروا فيها ان الخلاف آلذي دب في أسرة آل الخازن (حول القائمقامية) قد « اعدمهم الامن والراحة والسكينة » واشتكوا من عسف الاقطاعيين الذي لا يطاق ولكنهم ذكروا كذلك انه (حبا بحفظ السلامة وملاحظة فخر اجدادهم (اجداد المشايخ ـ المؤلفة) الماضيين فقد حصل السكون منا اولا بأن ذلك هو حادث وقتي ويعبر ويزول والان عند ملاحظتنا التامة والمذاكرة بذلك من عمومنا وجدنا ان ما مضى هو بالنسبة للحاضر والمستقبل يحسب كلا شيء فلاجل ذلك ما عاد يمكننا احتمال ما لا يحتمل » . ولهذا ارتأى أهالي القرى المذكورة ان من الضروري الاتحاد « لوقاية حياة كل منا » وحفظا لعرضنا واحوالنا » . وعزموا على النضال عند نزول الاضطهاد بأحدهم عن طريق تقديم العرائض الجماعية للسلطات .

ان الوثيقة المذكورة هامة جدا من حيث تطور النفسية الاجتماعية لدى فلاحي كسروان .

فالفلاحون يعترفون أن انتساب الاقطاعيين الى « اسلاف اشراف » آية في العدالة والرحمة ، امر يعطي المشايخ حق السلطة . وهذا ما جعل اهالي عجلتون يطلبون من اسيادهم ان يحذوا في حكمهم حذو المشايخ « الاوائل ») .

وقد كانت التهديدات التي عبر المشايخ بواسطتها عن عدم رغبتهم في الاقتداء بأسلافهم الاشراف عاملا على توسيع مدارك

---

٥١ ــ المصدر نفسه .

٥٢ ــ « واما المشايخ فبعضا منهم كانوا يتهددون الاهالي التهديد الكلي بانهم يطردونهم من البلاد ويقتلوا منهم « المصدر نفسه » .

٥٣ ــ راجع المصدر صفحة ١٦٧ ــ ١٦٩ .

الفلاحين الذين أصبحوا الان يدحضون التبرير التقليدي لحق الاقطاعيين في السلطة على اساس « أن ما مضى هو بالنسبة للحاضر والمستقبل يحسب لا شيء » « وما عاد يمكن احتمال ما لا يحتمل » في سبيل هذا الماضي .

ولكن التنكر للافكار التقليدية لم يؤد في البداية الى امتناع السكان عن الخضوع لسلطة الاسياد . وكما قال اهالي عجلتون فانه) ليس عندهم فكر يضر بالمشايخ او رغبة في التغيير) ، ولكن هذا التنكر مهد التربة لتقبل افكار المساواة الاجتماعية والسياسية وكان نقطة الانطلاق في توجيه وعي الفلاحين وجهة ثورية .

ان اتحاد القرى وعزمها على مقاومة تعسف الاقطاعيين قد ابهجا الفلاحين بهجة عظيمة . وقد ذكر العقيقي انه بعد انتهاء أحد اجتماعات الفلاحين في كفردبيان « اخذ الاهالي بالحدى والغنا وطلق البارود بعد آن كابدوا تهديدات كثيرات قبل ذلك » من المشايخ (٥٤) .

وهكذا فقد زال الخوف من قلوب الفلاحين وحلت محله الحماسة المتأتية عن العزم على بذل الجهود الجماعية لايقاف الاضطهاد والتعسف من جانب المشايخ . وكان هذا الاتحاد وحده كفيلا بأن يجعل الفلاحين يدركون مدى قواهم الخاصة .

هذه هي المشاعر التي كانت منتشرة في اوساط فلاحي كسروان في ايلول ــ وتشرين الاول من عام ١٨٥٨ . وقد انضمت في هذا الوقت الى الحركة قرى جونية وفيترون وميروبا . وبتعبير اخر فقد عم الهياج كل كسروان المتوسط والجنوبي اما قرى شمالي غربي كسروان فقد « بقيت مستكينة » خاضعة ولم تشارك في الاضطرابات (٥٥) .

وفي غضون هذه الشهور انتخب صالح جرجس صفير وكيلا رئيسيا للقرى التي رفضت الطاعة . ومن المتعذر ان نحدد الوضع الاجتماعي الذي كان عليه هذا الشخص ، ولكن بما ان المشايخ (ولو عن خطأ) « كانوا يثقون به جدا » ويعتبرون « انه من

---

٥٤ ــ المصدر نفسه صفحة ٧٩ ــ مما له دلالته ان مثل هذه البهجة قد انتشرت بين اهالي دير القمر في عام ١٨٤١ بعد استلام «رسالة» البطرك التي كان الشعب يعتبرها دعما فكريا لمقاومتهم سلطة المشايخ الاسياد .

٥٥ ــ المصدر نفسه صفحة ٨١ .

غرضهم » (٥٦) اذن يمكن الافتراض بأن صالح جرجس صفير كان ينتسب للقسم الغني من سكان الريف . وقد رشح الياس نقولا المنير (١٨١٠ ــ ١٨١٣) لوكالة القرية اللبنانية الكبيرة زوقمكايل . وكان هذا انسانا مشهورا بملكيته لمناسج الحرير ولكنه بدأ حياته (٥٧) كصاحب مهنة ثم آخذ يسلف المبالغ الضخمة وكان القائمقام الماروني من مدينيه « الامر الذي يسمح لنا بأن نفترض ان المنير كان ينتسب لاعيان الزوق من التجار الصناعيين والمرابين .

وفي عام ١٨٤٨ كانت قائمة اعضاء « الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون » التنويرية تحتوي على اسم الياس منير (٥٨) . ومن الجدير بالملاحظة ان اصحاب الورشات في الزوق كانت تربطهم بتجار بيروت صلات وثيقة . وبالاضافة الى هذا فان كنية منير » التي هي لقب مهني حرفي كانت غير منتشرة في بيروت على الارجح حيث لم تكن المهنة متطورة . ان كل هذا يجعلنا نقبل الرأي القائل بأن الياس منير وكيل الزوق هو نفسه عضو « الجمعية السورية » .

ومع اسم الياس منير وصالح صفير جزئيا ارتبطت الدعوة لافكار المساواة السياسية والاجتماعية بين فلاحي كسروان (٥٩) .

وينقل لنا منصور الحاتوني كلمات الياس منير على الشكل التالي : ان الباب العالي يسعى بانصاف ورأفة لكي يرفرف الامن على رعاياه وهو لا يريد لنا ابدا ان تكون ارقاء كما هو شأن اهالي كسروان الذين استعبدتهم أسرة آل الخازن الكبيرة العدد .

---

٥٦ ــ منصور الحاتوني ، نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٦٩ .

٥٧ ــ لقد اكتسب جد الياس منير الحموي الاصل لقب اسرته « المنير » من (الانيار) التي كان يقوم بصنعها في الزوق (ثورة وفتنة صفحة ٨٠) .

٥٨ ــ اعمال الجمعية السورية ص ١٦٦ .

٥٩ ــ استند منصور الحاتوني الى معلومات عن وجود صلات اقتصادية بين الياس منير وبشير احمد ليؤكد ان وكيل الزوق الذي هو عمل للقائمقام كان المحرض السري على العصيان وقائده . وقد نبع هذا الرأي من نظرية الحاتوني الاساسية التي تعلل العصيان الكسرواني كنتيجة لدسائس القائمقام الماروني الذي كان يفتش عن السبل المناسبة لابعاد خصومه الخازنيين عن المسرح السياسي . ولكن هذه النظرية لا تصمد للنقد في ضوء اخبار انطون العقيقي ولا في ضوء وثائق العصيان . وبالتالي فاننا لا نملك اي حق في الافتراض ان دعوة الياس منير كانت نتيجة دسائس القائمقام السياسية .

(يتضمن هذا القول تلميحا الى الخط الهمايوني الذي اعلن في عام ١٨٥٦ المساواة بين الرعايا بغض النظر عن دينهم . ولكن بالرغم من المعنى الذي ضمنته التركية لهذا المرسوم فان الياس منير يفسره كاعلان للمساواة الاجتماعية لا الدينية اي المساواة التي لا يمكن معها استعباد بعض الناس لبعضهم الاخر) . وهكذا يستخلص الياس منير انه « علينا ان نطلب الاقالة من هذه ونتظاهر رفض تسلط عموم المشايخ عنا وان يكون لواحد منهم فقط تولي الاحكام وله وحده تكون السلطة والسيادة ويكون من الاشخاص المزدانين بالذكاء والمعارف ومحبة الالفة والسلامة ، يميل طبعا للعدل والانصاف ، مبغضا للرشوة » (٦٠) .

ولنلاحظ ان صورة الحاكم العادل في ذهن اعيان الريف كانت اعقد مما هي عليه في اذهان جماهير الفلاحين . فهو يجب ان يتصف بالذكاء والثقافة والسعي الى حفظ امن الاهالي والى محاربة الرشوة .

وهكذا ففي خريف عام ١٨٥٨ برز بين السكان الهائجين طلب سياسي محدد وهو : **انتخاب مأمور من المشايخ وحرمان كافة الباقين من السلطة** . ان هذا الطلب الصادر من اعيان الريف كان خطوة الى امام بالنسبة لرغبة فلاحي عجلتون التقليدية غير المحددة في ان يحذو المشايخ حذو اسلافهم .

وفي تشرين الاول من عام ١٨٥٨ اجتمع في منزل صالح صفير وكلاء جميع القرى التي انتشر فيها الهياج . وصدر عن الاجتماع قرار يقضي بـ « نشر راية العصيان على اوامر المشايخ ورفع تسلطهم » (جميعا ما عدا المأمور ، كما يبدو) (٦١) » . وكان هذا القرار انذاك لا يزال مقتصرا على زعماء الفلاحين فقط .

وقد تسارع تطور الحوادث اللاحقة بسبب الطوارىء التالية التي وقعت في تشرين الثاني وبدء كانون الاول في قريتي الزوق وجونية .

فبينما كان الشيخ عباس الخازن يشتري حريرا في ساحة السوق في زوق مكايل اهان احد سكان القرية (ويظهر ان هذا كان منافسه في العمليات التجارية) واظهر على ذاته السلطة

٦٠ — منصور الحاتوني — نبذة تاريخية ص ٢٦٨ .

٦١ — منصور الحاتوني صفحة ٢٧٠ .

المعتادة (٦٢) فأخذ المعتدى عليه يدافع عن نفسه وآزره السكان واضطر الشيخ الى الهرب من القرية (٦٣) .

وقد وقعت حادثة مشابهة في جونية بين الشيخ يوسف وردان الخازن واحد اهالي زوق مكايل وهو يوسف العجوي اثناء صفقة لشراء القمح . واهان الشيخ منافسه فعاد هذا الى الزوق واخذ يصرخ في سوقها بملء صوته : « الا اسمعوا يا قوم ان الشيخ وردان قد شتمني وحاول ضربي لو لم افر هاربا من امام وجهه واوسعني اهانة واسمعني كلاما لا يطاق احتماله » (٦٤) .

وكانت العلاقات بين المشايخ والشعب قد وصلت الى درجة كبيرة من التوتر بحيث تحول الخلاف الى صدام . وسرعان ما انحدرت فرقة من الزوق الى جونية وادركت الشيخ فأجابت على اهانته واستعملت ضده القوة . ولم يستطع منصور الحانوتي الذي كان موجودا انذاك ان يخلص الشيخ من بين ايدي الجمهور الغاضب الا بعد جهد جهيد . وقد ذهبت سدى كل دعواته للصلح الموجهة لسكان الزوق » الذين عادوا وهم يصيحون بالتهديدات ضد المشايخ والتشكيات من تعدياتهم (٦٥) .

وبعد هاتين الحادثتين اسرع مشايخ آل الخازن للاجتماع في قرية غوسطا البعيدة عن الاضطرابات لتنظيم النضال ضد الفلاحين . وكان ذلك في اليومين التاسع والعاشر من عام ١٨٥٨ ومنذ تلك اللحظة اخذت الحوادث تتواتر بسرعة .

واخبر المشايخ البطرك الماروني بما حدث آملين ان يستعمل البطرك سلطته الدينية في صالحهم ولكن البطرك اقتصر على اجابتهم بأنه انغم بسبب ما حدث وانه يخشى ان يؤدي الامر الى « تبلبل نظام الجبل » ودعا المشايخ الى التبصر في مغزى هاتين الحادثتين واخبرهم بأنه سيحضر سريعا الى طرفهم للمفاوضة (٦٦) . ويبدو ان البطرك قد فوجىء بالامر ولم يحدد بعد خط العمل الذي سيتبعه . وبعد فترة قصيرة عزم البطرك على ان يلعب دور الوسيط

٦٢ — المصدر نفسه .

٦٣ — ثورة وفتنة ، صفحة ٧٩ ، ٨٠ .

٦٤ — منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٧٠ .

٦٥ — المصدر نفسه صفحة ٢٧١ .

٦٦ — المصدر نفسه .

السامي شكليا لكي يصون سلطة الكنيسة ويحتفظ بنفوذه بين الفلاحين . ولهذا فقد امتنع عن مقابلة المشايخ ولكنه بذل كل جهوده لكي يصلح ما بين الطرفين داعيا الفلاحين للتنازل والقبول بحل وسط .

وكان اول قرار اتخذه الاقطاعيون المجتمعون في غوسطا هو نبذ الخلافات بينهم وتوحيد القوى والوسائل من اجل اخماد العصيانات الفلاحية . وفي الثالث عشر من كانون الثاني اقسم المشايخ على توحيد جهودهم واوكلوا مهمة الاشراف على العمل الى حصن وقعدان الخازن (٦٧) .

وقد اثار هذا الاجتماع تخوفات كبيرة لدى اهالي قرية زوق مكايل الواقعة بالقرب من هذا الوكر الذي تتمركز فيه الرجعية الاقطاعية . وكتب اهالي الزوق عن تخوفاتهم الى البطرك والقنصل الفرنسي بتاريخ العاشر من كانون الاول آملين أن يتدخل هذان الاخيران للدفاع عنهم (٦٨) . واخذوا في الوقت نفسه يتأهبون لصد المشايخ بقوة السلاح وتوجهوا الى أهالي قرى كسروان لطلب العون منهم استنادا الى معاهدة الدفاع المشترك التي عقدتها القرى فيما بينها في ايلول عام ١٨٥٨ (٦٩) .

وكان أهالي زوق مكايل محقين في تخوفاتهم . فصاحب القرية ورئيس دير البشارة الراهب يوسف راجي الخازن لم يجرؤ على معاقبة الاهالي الذين هاجموا الشيخ في جونية ولكنه سافر الى غوسطا بطلب من اقاربه لكي ينضم الى الاقطاعيين الذين يتأهبون للهجوم على الزوق ، فتوجهت فرقة مسلحة من أهالي غوسطا الى الزوق ولكنه حال دون وقوع الصدام رسل من قرى شمال غربي لبنان (دلتا ، عرمون ، شننعير ، الجديدة) التي لم ينتشر الهياج فيها بعد والتي لم تكن تريد للوضع أن يتأزم (٧٠) .

وقد اثارت اعمال المشايخ العدائية ردة فعل قوية لدى سكان كسروان . وقرر فلاحو عجلتون وعشقوت والقليعات برئاسة الوكيل

---

٦٧ — راجع نص الاتفاقية المرسل الى البطرك في كتاب « ثورة وفتنة » ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

٦٨ — المصدر نفسه الصفحتان ١٦٥ ، ١٦٦ .

٦٩ — منصور الحلتوني ، نبذة تاريخية .. ، صفحة ٢٧٢ .

٧٠ — المصدر نفسه الصفحة ٢٧١ .

صالح جرجس صفير مهاجمة المشايخ الى جانب اهالي الزوق . فانحدر قسم من الفلاحين الى القرية المذكورة .

وفي تلك الاثناء وصل الى غوسطا رسولا البطرك : الاسقفان يوسف رزق ونقولا مراد المشهوران منذ حوادث الاعوام الاربعين التي مثلا فيها خط المعارضة السياسية داخل المجلس البطركي الماروني . وكان يوسف رزق الذي ترأس الفرقة الشعبية في لبنان الجنوبي عام ١٨٤٥ من انصار استغلال الحركات الشعبية في النضال السياسي . ويبدو انه كان من ذوي النفوذ بين جماهير الفلاحين الواسعة . « اما نقولا مراد فقد كان في عام ١٨٤٤ يدعم الارستقراطية في معارضتها للقائمقام »وربما كان البطرك قد اعتمد على هذين الامرين بالذات عند اختياره لرسوليه الى منطقة الاضطرابات . وقد حاول الاسقفان ان يؤثرا على المشايخ وشعب كسروان بقصد تسوية الامور بين الطرفين .

ولكن آل خازن لم يبدوا اي استعداد للتراجع وتوجه الاسقفان الى الزوق حيث اجريا في البداية مفاوضات مع اعيان القرية ، ثم خطبا أمام الشعب في كنيسة القديس مار جرجس فحذرا اهالي القرية من الجرائر السيئة التي سيؤدي اليها الصدام مع الاسياد ودعواهم الى الاذعان وطلب الصفح من المشايخ . ولكن لا مركز رسل البطرك الديني ومكان المفاوضات ، ولا حجج الاسقفين كانت بقادرة على التأثير في مجرى الحوادث . ويذكر الحاتوني انه « كلما صار الاستعداد لاخماد النار كان يزيد سعيرها وأوارها » . فقد كانت مواعظ الاسقفين « تزيد الاهلين حماسة وصراخا وتهيجا » (٧١) ولكن هؤلاء اجلوا مهاجمة المشايخ الى موعد آخر .

واضطر البطرك بعد فشل رسوليه الى عقد المجلس البطركي الذي توصل الى راي مشترك بضرورة بذل الجهود لانهاء الخلاف بسبل سلمية . وكانت كل الظواهر تدل على القلق الشديد الذي استولى على كبار رجال الدين . (وهذا يناقض بوضوح الزعم المنتشر في كتب التاريخ بأن رجال الدين كان لهم ضلع في التحريض على العصيان) .

وفي النصف الثاني من كانون الاول عقد في الزوق الديوان المنتخب من قبل الاهالي وصدرت عنه مطالب لا تتمتع بدعم القرى

---

٧١ — المصدر نفسه ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

التي سادها الهياج فحسب ، بل وبمؤازرة فلاحي القرى التي كانت تظهر الطاعة للمشايخ (٧٢) .

وقد كانت « البنود المطلوبة التي من اجلها تحصل الراحة لنا (للفلاحين) ولجناب المشايخ تنحصر في التالي :

١ ـ يجب ان توزع الضرائب على الاراضي والارواح حسب اللائحة المرتبة من سعادة شكيب أفندي ، ويجب على المشايخ أن يدفعوا ما يترتب عليهم دفعه بدون ان يلقوا بعبئه على كاهل الشعب .

٢ ـ ان كل الرسوم الاستثنائية التي تجبى من قبل المشايخ تتناقض مع قرارات كلخانة والتنظيمات . وكل من يخرق هذه القرارات والتنظيمات يجب ان يعيد ما جباه .

٣ ـ الغاء هدايا الاعياد والاعراس والرسوم التي يفرضها المشايخ عند بيع أراضيهم (٧٣) .

٤ ـ أعطاء مركز المأمور الى شخص لائق يحكم بالعدل ويحمي

---

٧٢ ـ لقد وردت هذه المطالب في خطوطها العامة في ملحق الرسالة التي بعثها سكان الجديدة ، وشننعير ودلبتا وعرمون وغوسطا وبطحا الى البطرك الماروني بتاريخ السابع عشر من كانون الاول عام ١٨٥٨ . « ثورة وفتنة » ص ١٦٠ ـ ١٦٣ .ولهذه المطالب قصة .

فمن المعلوم ان القرى المذكورة آنفا ظلت حتى منتصف كانون اول عام ١٨٥٨ على الاقل « خاضعة » لاسيادها ، وبعد طرد المشايخ من كسروان بقيت فيها مقاومة قوية لقادة العصيان . وقد كتب سكان عرمون والجديدة في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٨٥٩ انهم لم يعطوا قادة العصيان اي وعد بأنهم الى جانب الوكلاء (المصدر نفسه صفحة ١٧٠) وفي منتصف كانون اول عام ١٨٥٨ قدم الى هذه القرى سجعان العضيمي وكيل جونيه وطالبهم باسم اهالي الزوق بالانضمام الى الحركة عندها اجتمع اهالي هذه القرى في دلبتا بتاريخ السادس عشر من كانون الاول و « غب المداولة مع الوكلاء قد اتفق رأيهم » ثم وجهوا رسالة الى البطرك يرجونه مساعدتهم في الحصول على « حقوقهم » . وقد جاء في الرسالة « انظروا حالتنا الضعيفة وانقذونا ممن يظلمنا .. » ليس بالحاضر بل تكون دائمة دواما (المصدر نفسه الصفحة ١٦٠) .

٧٣ ـ اعتاد اقطاعيو لبنان على الزام الفلاحين اثناء بيع اراضيهم لهم بتقديم الهدايا السنوية لاصحاب الاراضي السابقين ، راجع :
D. Chevallier, Aux origines des troubles..., p. 56).

الشعب من المضايقات والمظالم . تقديم كل قرية لوكيل او وكيلين وذلك حسب عدد سكانها من اجل مساعدة المأمور .

٥ ـ نظرا لان الباب العالي قد منح المساواة العامة والحرية التامة فلا يجب أن يكون هناك تمييز عنصري او امتهان في المعاملة . وبما أن الاسس القديمة للرسوم قد تغيرت فان الضرائب الجديدة تفرض على الجميع . « نرجو ان تأخذ غبطتكم كل هذا بعين الاعتبار » .

وفي احدى شروط الاتفاقية التي عقدت مع المشايخ بعد ذلك بفترة من الزمن صيغ هذا البند بشكل اوضح فجاء كالتالي :« تكون منزلة المشايخ بمنزلتنا في كل شيء بدون استثناء البتة » (٧٤) .

٦ ـ يجب أن يخضع المأمور الى قرارات البطرك على اساس ان تعم سلطة المأمور على الجميع دون استثناء وفقا للتنظيمات . واذا ارتكب المشايخ اي جنحة ضد الشعب ،فيجب ان يحاكموا كما يحاكم افراد الشعب » .

وهكذا فان البرنامج الذي قدمه الكسروانيون كان يطالب بالاستقامة في تنفيذ خط كلخانة وبنود التنظيمات ، وقبل كل شيء بمراعاة المساواة في الحقوق بين جميع السكان والغاء الرسوم النابعة من تبعية الفلاحين للاقطاعيين وتنظيم شبكة الضرائب (٧٥) .

وكانت متطلبات البرنامج تضمن اعادة تنظيم الحكم في كسروان بحيث تحرم الفئة الاقطاعية من حقوقها وامتيازاتها الاقطاعية وتفسح المجال امام الاهالي للوصول الى الحكم . وكان تنفيذ هذه المطالب كفيلا لا بتحسين وضع الفلاحين فقط وبل وبالمساعدة على تطوير العلاقات البورجوازية .

وكان معاصرو الحوادث ، وحتى معادو المتمردين منهم كالشيخ عباس الخازن يدركون أن متطلبات الكسروانيين تستند الى اساس اجتماعي واسع وتستجيب لمصالح مختلف هيئات الشعب .

وقد لاحظ انطون العقيقي ان مقدم الفلاحين طانيوس شاهين

---

٧٤ ـ ثورة وفتنة ... صفحة ١٧٨ .

٧٥ ـ ولهذا فان الحركة لم تكن تتضمن من حيث الشكل اي شيء معاد للحكومة . وربما كان هذا هو السبب في ان الحكومة التركية والبعثات الدبلوماسية الاوروبية لم تول في أول الامر كبير اهتمام للحوادث في كسروان معتبرة اياها جزءا من حركة العرائض .

كان « يظهر لهم انه هو فداهم ويقدم كل ما يلزمهم من اي وجه كان » (٧٦) . اما عباس الخازن فقد كتب للبطرك ان ديوان الزوق « موجود فيه حكمة غريبة شيطانية لتشريب كل من في بيروت من الرفيع للوضيع ما يناسبه من الغايات » (٧٧) .

وتتضمن هذه الملاحظة اشارة مبهمة الى علاقات ما بين الكسروانيين و « اعيان عاميي بيروت » . ومن المعروف ان الكسروانيين كانوا قد وجهوا عريضة الى باشا بيروت في النصف الثاني من كانون الاول . وربما كانت هذه هي الصلة الوحيدة مع «اعيان» المدينة . اما مسألة الصلات المتبادلة مع الشعب البسيط من مركز لبنان التجاري فقد كانت اكثر تعقيداً . ولدينا معلومات تذكر انه في كانون الاول من عام ١٨٥٨ اي قبيل العصيان أعطى بعض « المواطنين المسالمين طانيوس شاهين نقودا لشراء الاسلحة (٧٨) . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، اي اثناء العصيان مد المرابون والتجاريد العون المادي للكسروانيين . ويذكر المؤرخ والكاتب الاجتماعي الفرنسي ف . لينورمان ان بعض رجال المصارف الموارنة في بيروت ، الذين كانوا يتمتعون بصلاحية مطلقة في تمثيل ابناء دينهم كانوا يحاولون ان ينقلوا الى القسم المسيحي من الجبال البنادق والبارود لكي يستطيع السكان الذين جردوا من سلاحهم تماما تقريبا منذ حوادث ١٨٤٥ ان يدافعوا عن انفسهم في حالة هجوم الدروز » (٧٩) .

وتعطينا هذه المعلومات الحق في الافتراض بأن الاوساط البورجوازية في بيروت كانت تعطف على الحركة في كسروان نظرا لان مصلحتها كانت كمصلحة الكسروانيين تتفق مع تحقيق الاصلاحات التي نادى بها الاتراك . وربما كان بقاء الاصلاحات على الورق وعدم تنفيذها هو السبب في الجدل الذي جرى في نهاية السنوات الخمسين بين الاوساط التنويرية والسلطات التركية ،

---

٧٦ — ثورة وفتنة ... صفحة ٨٣ .

٧٧ — المصدر نفسه صفحة ١٦٤ .

٧٨ — R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 27.

٧٩ — F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860., p. 7.

هذا الجدل الذي لم يذكر عنه المعاصرون سوى معلومات ضئيلة (٨٠) .

وهكذا فان المطالب الموضوعة في الزوق كانت تستجيب لمصالح الفئات الشعبية الواسعة وتلاقي الدعم من الجميع . ولكن تحديد السبل التي يمكن بواسطتها تحقيق هذه المطالب اثار في الديوان نقاشات تعكس المعركة السياسية الداخلية بين مختلف الكتل لا في الزوق فقط بل وفي جميع منطقة كسروان . وقد كتب الشيخ عباس الخازن للبطرك عن هذه النقاشات فقال « فالعقلاء من الاهالي يشربون هذا الديوان ان الغاية هي لتهذيب الولاية واصلاحها فقط لا انقراضها وانه ما لم تصل طبقة الهيجان لاخر درجة لا يصير الوصول الى التهذيب ، والجهلة من الاهالي حاصل التشريب لكل منهم حسب غايته والمحركين من الاهالي حاصل لهم التشريب بأنهم حيث تورطوا وتشاهروا بالعداوة فما عاد خلاصهم بقا العايلة او ولايتها لانه اي وقت راق الحال لا بد من ان العايلة تلاشيهم » (٨١) .

وهكذا نرى ان الخلافات قد ظهرت في صفوف المشتركين بالحركة المعادية للاقطاعية وهي ما تزال في مرحلتها تلك . وتحدد داخل الحركة اتجاهان يمكن ان نطلق عليهما اصطلاحا اسم الاتجاه الثوري والاتجاه الاصلاحي . وقد ادت هذه الخلافات فيما بعد الى انقسام مكشوف في صفوف مختلف الكتل من المتمردين مما حدد مصير العصيان .

فما هو الطابع الاجتماعي لهذه الكتل؟ ان اللبنانيين المعاصرين يميزون

---

٨٠ — ذكر المستعرب الروسي ف.ف غير غاس في تقريره بعد عودته من البعثة العلمية في الشرق العربي ان الامسيات الادبية التي عقدت عند بطرس البستاني وغيره من اعضاء الجمعية والتي عادة ما كان يلقي فيها مختلف الاشخاص خطبا بصدد تطور الثقافة في سوريا .. قد توقفت نتيجة للشاحنات المختلفة مع باشا بيروت (اى. يو. كراتشكوفسكي .ف.ف. غير غاس « مذكرات هيئة المستشرقين » الجزء III ، ١٩٢٨ ، الصفحة ٧٣ وقد اضطر المجمع السوري العلمي الذي شكل في عام ١٨٥٧ الى البقاء بشكل غير رسمي . وقد تغير اسم الجريدة البيروتية الاولى التي اراد مصدرها تسميتها بـ « المصباح المنير » الى حديقة الاخبار (فيليب الطرزي ، طريق الصحافة العربية ، ٥٦ ، ٥٧). ويبدو ان السلطات التركية قد منعت الاسم الاول لانها وجدت فيه اشارة سياسية الى فجر الازدهار والنهضة في سوريا .

٨١ — « ثورة وفتنة ... » صفحة ١٦٤ .

في صفوف المتمردين بين عقلاء وجهلة ، واضعين في هذين المفهومين تقييمهم الطبقي لنشاط المتمردين . ومع كل ما تتصف به هذه التقييمات من اصطلاح فانها تعني فئات اجتماعية معينة .

وحسب اقوال الشيخ عباس فان العقلاء اناس ينحون منحى اصلاح الحكم في كسروان ولكنهم يقاومون توسع الهيجان حتى الدرجة القصوى اي تحوله الى عصيان .

وكان أكثر المواقف اعتدالا هو موقف « العقلاء » في قرية عرمون (شمالي غربي كسروان) . فقد استطاع هؤلاء ان يمنعوا « جهلة » قريتهم من طرد أسيادهم المشايخ الدحادحة (٨٢) . اما جماعة عقلاء الزوق فقد كانت اكثر جذرية وساهمت في العصيان ولكنها اختلفت فيما بعد مع قادة العصيان وابتعدت عن المعركة .

ان بعض الوثائق التي نشرها يوسف يزبك يعبر عن رأي « العقلاء » من اهالي شمالي غربي كسروان (٨٣) واطلاعنا عليها يسمح لنا بتكوين صورة عن الوضع الاجتماعي لهذه الفئة من سكان القرية اللبنانية . فهي تتصف بالخوف من الهزات الاجتماعية (بدليل الشكاوى من ان مقدم « الجهلة » اي وكيل جنوبي كسروان « قد اعدمهم امنهم ») وان ممثلي المنطقة مستاؤون من عرقلة المتمردين للصلة الحرة مع جونية (المقصود على ما يظهر هو زيارة الميناء اللبناني للتجارة) وفي ايار من عام ١٨٥٩ كان هؤلاء مستعدين لمفاوضة طانيوس شاهين ودفع اتاوات مضاعفة له بشرط ان يخضع للبطرك وان « ينشر السلام والامن على الجميع » (٨٤) . وكل هذا يدل على اننا بصدد فئة غنية من سكان الريف تزاول الربا والتجارة . وربما كانت هذه الفئة في الزوق تضم ايضا اصحاب الورشات المهنية .

اما « الجهلة » فهم في مفهوم عباس الخازن ومنصور الحلتوني تلك الفئات التي كانت مستعدة في كانون الاول ١٨٥٨ ان

٨٢ — منصور الحلتوني ، نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٧٦ .

٨٣ — مثل الرسالة الشهيرة التي كتبها سكان القرى الشمالية المغربية في السابع عشر من كانون الاول عام ١٨٥٨ والمطالب الملحقة بها ، والرسالة الى البطرك من « شعب » عرمون والجديدة في الثاني عشر من كانون الثاني سنة ١٨٥٩ ورسالة قرى عرمون والجديدة وشننعير وغوسط ودلبتا في التاسع عشر من ايار عام ١٨٥٩ « ثورة وفتنة ..» ملحقات الوثائق (XIX, IX, III, II

٨٤ — « ثورة وفتنة ... » ص ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

تطرد المشايخ من البلاد وتلغي سلطة الاقطاعيين الاسياد . وفي خريف عام ١٨٥٩ وقفت هذه الفئة التي وزعت اثناء العصيان اراضي الشيوخ ضد الاتفاق مع المشايخ على اعادة اراضيهم لهم كما كان بنية « العقلاء » ان يفعلوا . وكانت هذه الفئة تضم الفلاحين الذين لا يملكون الارض واصحاب الاراضي الصغيرة والحرفيين الريفيين الفقراء وممثلي الاوساط الفنية الاكثر يسارية من زملائهم في عرمون . وكان تطور الحركة يجبر هؤلاء على الابتعاد عن فئة « الجهلة » .

وفي منتصف كانون الاول من عام ١٨٥٨ ترأس الحركة طانيوس شاهين الذي كتب عنه م. غيز في عام ١٨٥٩ « ان طانيوس شاهين ، الذي كان في الماضي مكاريا وبيطارا والذي كان يسمي نفسه روبن هود ، دكتاتور البروليتاريا الريفية شبه الامي والذي أعلن في عام ١٨٥٠ جمهورية فلاحية في كسروان يظل واحدا من أكثر شخصيات فترة القائمقامية غموضا ولكنه بدون شك من أبرزها كذلك » (٨٥) . وكاتب هذه السطور لا يمكن أن نتهمه بتعاطفه مع زعيم الجماهير الفلاحية .

ان جميع معاصري الحوادث تقريبا كانوا يعتبرون أن من واجبهم اعطاء صورة عن طانيوس شاهين ولكن هذه الصورة كانت دائما مسبقة ومعادية بصراحة ولا تسمح لنا بتكوين صورة حقيقية عن شخصية روبن هود اللبناني .

لقد ولد طانيوس شاهين في ريفون عام ١٨١٥ وتوفي « مغمورا في عام ١٨٩٥ » (٨٦) . عمل مكاريا وبيطارا واستطاع أن يوفر بعض المال (٨٧) وكان شاهين يتصف بارادة قوية وذهن حي وموهبة في التنظيم ولهذا فقد كان يتمتع بنفوذ كبير بين الاهالي وكانت خططه السياسية تتصف بصفة أثارت الكثير من الجدل والحيرة بين معاصريه ، وهي اللجوء الى أساليب من شأنها أن تحير وتبلبل أفكار المحيطين به أثناء المعركة السياسية : فلكي يجذب السكان الى جانبه مثلا كان تارة يكتب في رسائله بأن لديه وثيقة من سبع دول تعلن منح الحرية للمسيحيين ، ولا يستطيع أحد أن يحرمهم هذه

٨٥ — Lebanon in the last years..., p. 22.

٨٦ — Ibid.

٨٧ — B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie, pp. 60-61.

الحرية (٨٨) . وأحيانا « يسند قوله على قول السيد البطـريرك بولس مسعد . . . مع أن غبطته كان يضادد جدا هذا العمل » (٨٩) . أو انه يدهش منصور الحلتوني بتلميح شفاف أثناء حديثه معـه عن دعم السلطات التركية للمتمردين (٩٠) . وأخيرا علق فوق بيتـه العلم الفرنسي الثلاثي اللون « لكي يحرض السكان علـى الاتحاد والسير وراءه في العصيان » حسب أقوال مشايخ آل الخازن .

ان الظروف التي انتخب أثناءها طانيوس شاهين كوكيل عام ليست واضحة تماما . ويقول انطون العقيقي انه في الوقت الـذي شرع فيه الفلاحون بالتسلح قدم الى طرف طانيوس شاهين وكلاء قرى مزرعة كفرذبيـان وميروبا وعجلتون وعشقوت وهم هابيـل العقيقي وناصيف الخوري وصالح جرجس صفير وباخوس أبو غائب ومعهم بعض الرجال . وعرضوا على طانيوس أن يتفق معهم وانهم « يقيموه وكيل عام . فبعد مجادلة عظيمة ومخالفات قد قبل منهم وأقاموه وكيـلا على قرية ريفـون ثم بعده وكيـل قرايا كسروان الجرود » (٩٢) . ويمكن أن نستنتج من هذا أن طانيوس شاهين لم يكن حتى منتصف كانون الاول قد شارك مشاركة فعالة في الحركة او على الاقل لم يكن يشغل أية مناصب انتخابية . وقد رشحـه لمنصب الوكيل ممثلو قرى كسروان الشرقي (وهي منطقة جبايـة عالية ذات ظروف معاشية قاسية وشحيحة) . حيث ولدت الحركة وحيث بقي السكان مخلصين للعصيان مدة أطول من بقية المنـاطق بعكس جنـوب غربي كسروان حيث المركـزان التجاريان الزوق وجونية اللذان ترك سكانهما المعركة قبل غيرهم .

ان الدوافع لاعادة انتخاب صالح صفير سلف طانيوس شاهين ليست واضحة لدينا .. ويزعـم منصور الحلتوني أن صفـير كان يخشى توسع الحركة فطلب « اقالته من الوكالة » (٩٣) ولكـن

٨٨ — R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 129.

٨٩ — « ثورة وفتنة ... » صفحة ٨٥ .

٩٠ — منصور الحتوني ، نبذة تاريخية صفحة ٢٨٠ .

٩٢ — ثورة وفتنة ... صفحة ٨٣

٩٣ — منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٧٤ ان منصور الحتوني يقدم هذا الزعم بقصد النوال من سمعة الحركة ولكي يظهر انه حتـى المشاركـون النشيطون فيها قد ابتعدوا عن المعركة ، بعد ان ادركوا غوائل هذه الثورة الوخيمة ودسائس منشئها الايلة للدثار والخراب .

هذا الزعم غير مقنع ، اذ أن هذا الاخير ظل وكيلا عن قرية عجلتون طوال مدة العصيان ، وشارك فيه مشاركة فعـالة وقد وقع مع طانيوس شاهين على عدد من الوثائق . ولا يسعنا أن نعلل أسباب انتخاب وكيل عام جديد الا في حدود الفرضيات .

لقد كان النصف الثاني من كانون الاول عام ١٨٥٨ هو الفترة التي تحدد فيها جوهريا مصير الحركة . فبعد الحادثتين اللتـين ذكرناهما آنفا توترت العلاقات بين أهالي الزوق والمشايخ . وظهر في القرية التي أصبحت ميدان المعركة اتجاهان متعارضان : همـا الاتجاه الجذري والاتجاه الاصلاحي القوي الذي يعكس وجهة نظر أعيان الزوق من التجار الصناعيين الاغنياء ، ويتأثر باراء كبـار رجال الدين من الموارنة . وكانت هذه الظروف تتطلب على الارجح أن يترأس الحركة انسان يستطيع أن يقف في وجه أعيان الزوق . وكان طانيوس شاهين في رأي الوكلاء هو الانسان الجدير بهـذه المهمة اذ انه كان مستقلا من الناحية الاقتصادية ، وكان بصفتـه حدادا في أختلاط دائم بفلاحي مختلف القرى وله نفوذ بينهم . وقـد خلقت له مهنته السابقة كمكاري صلات واسعة مع أهالي البلاد . وكان شاهين مشهورا بعدائه لاعيان الزوق بدليل صدآماته معهـم فيما بعد (وخاصة في كانون الثاني عام ١٨٥٩ ، اذ كان أعيان الزوق يميلون حتى الى تسليم شاهين للسلطات التركية في الوقت الذي خبأه أهالي ريفون عندهم) (٩٤) .

من الصعب أن نتكهن بالموضوع الذي كان يدور حوله الجدل بين الوكلاء وشاهين أثناء انتخابه . وليس من المستبعد أن يكـون شاهين نصيرا لاشكال من النضال أكثر حزما . آن انطون ضاهـر العقيقي لا يذكر شيئا بهذا الصدد ولكنه يلاحظ مستاءا بعض الشيء انه : « ظهر منه ما لا يظن به وأخذ يخاطب بيت الخازن بخطابات رسمية ويشدد البلاد ويظهر لهم (للشعب — المؤلفة) أنه هو فداهم ويقدم كل ما يلزم من أي وجه وانه يريحهم من المشايخ بحسـب مآربهم وأخذ يجول من محل الى محل وكانوا الجميع يعتبرونه بغاية الاعتبار وفي كل قرية كان يدخلها كانوا الجميع يصنعون له الملاقاة الجيدة بالفرح والسرور وطلق البارود المتواصل نظير زيارة الحكام لرعاياها » (٩٥) .

٩٤ — المصدر نفسه الصفحة ٢٧٩ .

٩٥ — ثورة وفتنة .... صفحة ٨٣ .

وعندما أصبح شاهين وكيلا أخذ يفاوض المشايخ . وقد وضع في أساس المفاوضة على ما يبدو المطالب المذكورة آنفا . (ولم يكن هناك من شيء جديد سوى الاقتراح بتسليم السلطة في كسروان لثلاثة مأمورين من المشايخ بدلا من تعيين مأمور واحد) (٩٦) . وقد ظهر هذا البند الاخير من المطالب بشكل مفاجيء بعض الشيء . ولكن بما أنه من المعلوم لدينا أن كبار رجال الدين الموارنة كانوا في عام ١٨٥٩ يصرون على تسليم السلطة لمأمورين ثلاثة فمن الممكن أن نفترض أن رجال الدين هؤلاء قد قدموا في كانون الاول من عام ١٨٥٨ هذا البند كحل وسط لتسوية الوضع بين الشعب والمشايخ. وقد قبل آل الخازن بهذا المطلب فقدم عندئذ طانيوس شاهين والوكلاء بندا أكثر جذرية : وهو انتخاب مأمور من قبل الشيوخ ومأمور مساعد له من قبل الشعب . فرفض الخازنيون هذا البند وأخذوا يتوجهون بشكاواهم الى خورشيد باشا .

وفي أثناء المفاوضات دعا طانيوس شاهين والوكلاء الاهالي للنهوض ضد المشايخ دون أن ينتظروا قرارات السلطات التركية . وكلف شاهين مساعديه بشراء أسلحة وذخائر بالنقود المأخوذة من السكان « المسالمين » (٩٧) .

ويؤكد كل من منصور الحلتوني والشيخ عباس الخازن وأنطون العقيقي ان طانيوس شاهين عمد بقصد اثارة الشعب ضد المشايخ الى اصطناع جو من الذعر بين السكان في ليلة الخامس والعشرين من كانون الاول (عيد الميلاد) مدعيا بأنه قد تعرض لهجوم المشايخ.

ولم تكن كلمات طانيوس شاهين شيئا غير متوقعا : فمنذ فترة قريبة حرض المشايخ أهالي غوسطا للهجوم على قرية الزوق وفي الثامن عشر من كانون الاول أخبر سكان مزرعة كفرذبيان البطرك بهجوم شيخين من آل الخازن في طرف قرية بقعوتا على شخص يدعى الياس الزوقي وقد أوثقوه وحشروا في فمه منديلا وأخذوه صوب الدير (٩٨) . وبتعبير اخر فقد استمر المشايخ يطبقون العنف ضد السكان الذين لا يعجبونهم وكانوا بالتالي يمكن أن يهجموا على شاهين لتصفية حسابهم معه . وقد أثار نبأ الهجوم على شاهين

---

٩٦ — كان المقصود هو تعيين مأمور لكل اقليم — وحدة ككسروان .

٩٧ — R. Edwards, La Syrie..., p. 127.

٩٨ — ثورة وفتنة ... صفحة ١٦٦ ، ١٦٧ .

الاضطراب بين الاهالي . وأخذت صيحات « حقيقة لقد أطلقوا المشايخ النار على طانيوس شاهين » تنتشر في الضواحي ، وقد اجتمع في ريفون تلك الليلة حوالي ألف انسان (٩٩) . وبعد يومين حدث مثل هذا في عجلتون عندما شاع نبأ الهجوم على صالح صفير.

ويبدو أن الاصرار على الدعوة الى السلم هو الذي منع وقوع المعركة مؤقتا (١٠٠) وأجبر الفلاحين على التوجه الى السلطات التركية بشكوى ضد المشايخ .

وبعد هذه الحوادث توجه وفد من الكسروانيين برئاسة طانيوس شاهين من الزوق الى بيروت ، وكان في عداده بعض أعيان الزوق (١٠١) . وقد قابل خورشيد باشا الوفد كما كان يقابل مقدمي العرائض ، ولم يسمح بالدخول اليه سوى للوكيل العام ولبعض وكلاء القرى (١٠٢) وقد قدم هؤلاء لوالي بيروت عرائض من كافة القرى فيها « تعداد لجميع القبايح » (١٠٣) . ووعد الباشا بالنظر في الشكاوى .

وأمطر المشايخ بدورهم السلطات التركية بوابل من طلبات المساعدة . فأصدر الباشا أمرا بارسال موظف بصحبة مئتي جندي الى الزوق من أجل تحري الحوادث في مكان وقوعها . فوصلت الفرقة الى كسروان في الايام الاولى من كانون الثاني عام ١٨٥٩ (١٠٤) وأثار هذا ، على ما يظهر ، اشاعات مفادها أن

---

٩٩ — منصور الحتوني نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٧٤ .

١٠٠ — راجع الوثيقة السابعة عشرة بصدد اجتماع الثلاثين من كانون اول سنة ١٨٥٨ (في خميس الثلاثين من الشهر الماضي ..) « ثورة وفتنة ... ص ١٧٩ ، ١٨٠ » .

١٠١ — المرجع نفسه صفحة ١٦٤ .

١٠٢ — منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٧٥ .

١٠٣ — ثورة وفتنة ... صفحة ١٦٤ .

١٠٤ — من المتعذر تأريخ الحوادث بدقة . ويخطيء منصور الحلتوني عندما يؤرخ وصول الجنود الى الزورق بالسابع من كانون الثاني وطرد المشايخ بالتاسع عشر من كانون الثاني . بينما تدل الوثائق التي نشرها يزبك ان المتمردين طالبوا البطرك في الثالث من كانون الثاني بابعاد المشايخ اللاجئين اليه من مقره وقد كتبت بتاريخ الثاني عشر والثامن عشر من كانون الثاني الرسائل الموجهة الى البطرك والدالة على ان السلطة كانت في يد المتمردين (ثورة وفتنة ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢).

« المشايخ يريدون تخريب كسروان » وأدى الى اجتماع شعبي تقرر فيه طرد جميع آل الخازن نساء ورجالا من كسروان . وقد هتف الناس لاول مرة في هذا الاجتماع « بأنهم سوف يملكون أرزاق بيت الخازن » وكان « مقدام الجميع طانيوس شاهين » (١٠٥) كما كتب أنطون العقيقي .

وقد رأى الفلاحون في مغادرة الموظف التركي وضابط الفرقة وبعض الفرسان للزوق وتوجههم الى غوسطا نية السلطات التركية على الاتفاق مع المشايخ . وسرعان ما اجتمع حوالي ثمانمئة انسان من قرى كسروان مسلحين من رأسهم حتى قدمهم « بقيادة شيخ شباب جونية سجعان العضيمي » (١٠٦) . ويقول الحاتوني في كتابه « انهم حضروا الى غوسطا بالحدا والصراخ طالبين قيام المشايخ من غسطا ومن كامل قرايا كسروان » فلقيهم رسل خورشيد باشا « وأخذوا يسكنون ضجيجهم وينصحونهم ويتملقونهم ليرعووا عن مقصدهم فازدادوا صياحا وهيجانا وهجموا على منازل المشايخ وأطلقوا الرصاص عليهم ونزحوهم من أوطانهم مع كامل حريمهم وأولادهم » (١٠٧) . أما أهالي غوسطا الذين كان مشايخ آل الخازن يعتمدون على مؤازرتهم فقد ظلوا على الحياد بعد أن شاهدوا البلاد كلها ناهضة ضد المشايخ . كما لم يجازف الاتراك أيضا بالتدخل في المعركة الدائرة .

وبعد مهاجمة غوسطا طرد أهالي عجلتون وريفون ومزرعة كفرذبيان والقرى الاخرى بقية المشايخ من قراهم . واستجار قسم من الخازنيين برجال الدين واختبأوا في دير بكركي حيث يقيم البطرك الماروني وفي الدير الارمني الكاثوليكي في بزمار . فحاصر المتمردون الديرين ووجهوا في الثالث من كانون الثاني رسالة الى بولس مسعد يطالبون فيها بابعاد المشايخ بسرعة والا فانهم سيهاجمون الدير (١٠٨) . واضطر البطرك الماروني للتخلي عن المشايخ وكذلك فعل غريغوري الثامن رئيس الارمن الكاثوليك فغادر المشايخ حدود

---

١٠٥ — المصدر نفسه ، صفحة ٨٤ .

١٠٦ — المصدر نفسه الصفحة ٨٥ . وهناك رواية اخرى تقول ان القائد كان طانيوس شاهين .

١٠٧ — منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ...

١٠٨ — « ثورة وفتنة ... » ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

منطقة كسروان المتمردة .

وتنبغي الاشارة الى أن الفلاحين اقتصروا فقط على تهديد المشايخ ولكنهم تجنبوا سفك الدماء . ولم تقع حوادث انتقام شعبية سوى مرة واحدة في عجلتون، حيث كان المشايخ قد نكلوا بالسكان تنكيلا فظيعا ووحشيا (١٠٩) . فقد صوحب طرد المشايخ من كسروان بالاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم .

هكذا وصف المعاينون بدء العصيان . وتدلنا هذه الاوصاف على هيجان الشعب الى الحد الاقصى وعلى عفوية أعماله . ومع ذلك فقد أخذت عناصر التنظيم تظهر منذ بدء العصيان ويذكر منصور الحلتوني أنه بالرغم من أن بعض الفلاحين قام بنهب أحياء المشايخ في عجلتون والقليعات ومزرعة كفرذبيان وبلّونة فقد أذعن المتمردون لاوامر طانيوس شاهين والقوا الحجز على أرزاقهم (أرزاق المشايخ — المؤلفة) (١١٠) .

وبعد طرد المشايخ في الثالث عشر أو الرابع عشر من كانون الثاني أصدر طانيوس شاهين ايعازا بعقد اجتماع عام في ريفون لوكلاء قرى كسروان (اذ أن مركز الحركة قد أصبح الان في ريفون) . وربما كان هذا هو الاجتماع الاول للممثلين الشعبيين (١١١) بعد الغاء سلطة المشايخ . وتوجه الخيالة لدعوة الوكلاء من شمالي غربي كسروان ولم يكن الاسياد قد طردوا من هناك ولكن الفلاحين كانوا مهتاجين اهتياجا شديدا .

وتوجه الى المناطق المجاورة في الوقت نفسه دعاة « نشر الحقيقة بين جميع الناس » المستعدين للانضمام الى المتمردين . ونظرا لقيام معارضة للعصيان في شمالي غربي كسروان ولتواتر الاخبار من هناك « بأعمال تظهر من البعض ... ضد أعمال المتمردين وخير الجمهور » (١١٢) فقد اصطحب الدعاة فرقة مهمتها صد الاعمال العدوانية . ونفذ هؤلاء مهمتهم بنجاح اذ انضمت قرى غوسطا ودلبتا وشننعير وعرمون وعجلتون الى التمرد .

ويمكننا أن نتابع تاريخ العصيان فيما بعد ذلك بخطوطه العامة

---

١٠٩ — المصدر نفسه صفحة ٧٢ .

١١٠ — منصور الحتوني نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٧٦ .

١١١ — لم تصلنا للاسف قرارات هذا الاجتماع .

١١٢ — ثورة وفتنة .. صفحة ١٧٠ — ١٧١ .

فقط . فقد نظم الفلاحون المتمردون حكمهم بقيادة طانيوس شاهين فزرعوا أراضي المشايخ ومنعوا الشركاء من دفع الريع لال الخازن فتوجه هؤلاء الى السلطات التركية للمطالبة باعادة حقوقهم لهم . وأخذوا يحيكون الدسائس سرا ضد المتمردين معتمدين على دعم كبار رجال الدين الموارنة المتعاطفين معهم . وأقام المشايخ في منطقة العصيان صلات مع الناس المخلصين لهم وأخذوا يزورون القرى سرا ويبذرون بين الاهالي بواسطة عملائهم بذور الهلع من نوايا السلطات التركية العدوانية مهيئين بهذا تربة مناسبة لعودتهم الى كسروان (١١٣) .

وقد طرح باشا بيروت على بساط المناقشة في المجلس مسألة العلاقات بين الفلاحين والمشايخ في كسروان و (مسألة القائمقامية) . وأسرع كبار رجال الدين الموارنة أثناء ذلك للتوسط في المفاوضات بين المشايخ والفلاحين لكي يملوا شروطهم على كلا الطرفين . وفي اذار من عام ١٨٥٩ دعا بولس مسعد قسما من الوكلاء واقترح عليهم تسوية العلاقات مع المشايخ على أساس الاعتراف بسلطة ثلاثة مأمورين منتخبين من قبل الخازنيين . فأجاب المتمردون متملصين بأنهم ليس هم الذين يعينون ويصادقون على تعيين الموظفين في كسروان ولهذا فان هذه المسألة تنتظر حلها في بيروت ، وهم بالاضافة الى هذا يوكلون سلفا مهمة تمثيل مصالحهم للوكيل العام الذي يترتب على « غبطته » أن يتوجه اليه (١١٤) .

ولم يسفر توجه البطرك الى طانيوس شاهين عن النجاح . فقد رفض الوكيل العام الحضور « للثم مواطىء أقدام (البطرك) وبحث قضية المأمورين الثلاثة ما دامت هذه القضية تبحث في مجلس بيروت . وكان هذا الرفض الجريء يحمل توقيع طانيوس شاهين وثلاثين وكيلا معه . (١١٥)

وأرسل الفلاحون الى البطرك في الوقت نفسه مذكرة تحتوي على شروط تسوية العلاقات مع الخازنيين . والى جانب المطالب المعروفة سابقا كالمساواة والغاء التعسف كانت المذكرة تتضمن بندا يطالب المشايخ بدفع المصاريف التي انفقها الفلاحون

---

١١٣ — ثورةوفتنة ... ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٩ .

١١٤ — المصدر نفسه ، صفحة ١٧٣ .

١١٥ — المصدر نفسه ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

ووكلاؤهم اثناء العصيان (١١٦) . ورفض المتمردون بحزم اقتراح البطرك مصرين على تنفيذ البند القائل « بأن المشايخ لا يكون منهم أحد مأمورا علينا » (١١٧) . وهكذا فقد كان برنامج الفلاحين الجديد اكثر جذرية من المطالب التي قدموها في كانون الاول من عام ١٨٥٨ قبيل العصيان . ولكن البرنامج تجاهل قضية الارض ولم يحتو على مطالب خاصة بفقراء الريف .

وفي آيار وقعت الحيرة والارتباك بين المتفاوضين في المجلس وفي البطريركية على حد سواء . وتشهد على هذا ، الرسالة التي بعثها شخص يدعى يعقوب البيطري الى البطرك يخبره فيها بأن الفلاحين لا يرغبون القبول بمأمور من صفوف المشايخ و « ان لهم حقوقا يريدون آخذها من دون واسطة احد » « وقد عزموا على نوالها » بدون مسوغ شرعي » (١١٨) .

وقد اصبح وقوع الخلاف مع السلطات التركية امرا واضحا وقررت هذه الاخيرة اللجوء الى استعمال السلاح . وكان هذا فيما بين آيار وحزيران من عام ١٨٥٩ . ونظرا لان الفرق التركية الموجودة في جونية والزوق اضطرت بسبب ضعفها وانعدام الامل لديها الى الوقوف موقف المتفرج فقد وجه الباشا قوى جديدة نحو حدود كسروان . وكان المتمردون على علم تام باستعدادات الاتراك الحربية بواسطة رجالهم في بيروت . وقد تسلم طانيوس شاهين بشكل خاص نبأ يفيد بأن الجنود الاتراك ينوون الانحياز الى جانب الفلاحين عند وقوع أول صدام بين الطرفين (١١٩) . واستعدادا لصد ضربة الفصائل التركية قوّى المتمردون فرقهم وخصصوا لها كمية استثنائية من الخبز والنقود ففرضوا قرشا على كل شخص لسد حاجات المقاتلين (١٢٠) .

وكانت آفاق الصدامات المسلحة في كسروان تقلق رجال

---

١١٦ — من المعروف ان بعض اعيان الريف كوكيل الزوق حبيب الجاماتي قد انفقوا على تنظيم العصيان من اموالهم (منصور الحتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٨٠) .

١١٧ — « ثورة وفتنة ... » الصفحة ١٧٨ .

١١٨ — المصدر نفسه ص ١٨٠ .

١١٩ — المصدر نفسه صفحة ١٨٤ .

١٢٠ — المصدر نفسه صفحة ١٨٠ ، ١٨٢ .

الديـن أشد القلق : اذ ان العمليات الحربية كانت تهدد بالخطر ، العديد من الاديـرة المارونية والاراضي التـي تملكـها (١٢١) . وبالاضافة الى هذا فان انتصار الاتراك كان يمكن ان يؤدي الى احتلالهم للبنان وهو أمـر غير مرغوب فيه بالنسبة لرجال الدين المسيحي . وبالعكس فـان نجاح المتمردين الذي يمكن جـدا أن يتحقق في حالة تعاطف الجنود الاتراك معهم سيؤدي الى تطـور الحركة الشعبية مما كان يخيف رجال الدين . وكـان البطرك لا يزال يعلـق آمالا على المفاوضات مع المتمردين . ان كل هـذا قد دفـع رجال الدين الى محاولة الحؤول دون وقوع الصدامـات المسلحة . وقد توجه بولس مسعد بطلب المساعدة مـن القنصل الفرنسي ، فاحتج هذا على أعمال السلطات التركيـة التي خرقت حـق لبنان في الحكم الذاتي ودعمه في هذا القائمقام المسيحي وأعضاء مجلسه . فقررت السلطـات التركية التريث حتى تحـين الفرصة الملائمة للتدخل السافر فيشؤون لبنان وسحبت فصائلها المسلحة من لبنان الشمالي. ويبدو ان المتمردين اعتبروا انسحاب الفرق التركية من الزوق وجونية نصراً لهم وأخذ الفلاحون يغنون في مـدح طانيوس شاهين أغنية تقول : « يا بيكنا من ريفوني يا ابو السيف المسنوني انت اللي طردت العسكر من جونيه » (١٢٢)

وفي تشرين الاول من عام ١٨٥٩ تجددت المفاوضات بـين المتمردين والبطرك ، وشارك فيها من جانـب المتمردين طانيوس شاهين ومن الجانب الآخر كاتم اسرار البطرك يوحنـا حبيـب وممثل القنصل الفرنسي ورئيس ارسـالية العازريين ف. ليروا وعميل القائممقام عيد حاتم . وتراجع البطرك هذه المـرة بنـاء على رغبات القنصل الفرنسي فاقتـرح على المتمردين انتخـاب « مأمورَين من الفلاحين ومعهم ثالث براني » (١٢٣) . وذلك بدل

١٢١ — كان عددالاديرة المارونية فقط الموجودة في منطقة كسروان في السنوات السبعين اربعة وعشرين ديرا تضم اربعمئة واربعين راهبا ، وفي منطقة المتـن المجاورة ثلاثة وخمسين ديرا تضم اربعمئة وسبعة رهبان (ك.م بيتكوفتش « لبنان واللبنانيون » ، ص ٢٣٧، ٢٣٨) ولنذكر بان الاديرة والكنائس كانت تملـك اراض يعمل فيها الرهبان والشركاء .

١٢٢ — B. Poujoula t., la vérité sur la Syrie, p. 62.

١٢٣ — « ثورة وفتنة ... » ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

ثلاثة مأمورين من آل خـازن . وكان المفروض ان يكون الثالث هو الشيخ يوسف كرم المشهور بصلاته مع رجال الديـن الفرنسيين والموارنة . ولكن طانيوس شاهين أصر على انتخاب مأمـور من الشعب . فأخذ رجال الدين يميلون الى الاخذ بهذا الاقتـراح بشرط أن لا يكون هذا المأمور هو طانيوس شاهين نفسه وذلـك لتجريـده من سلطته ونفـوذه في كسروان . وحاول البـطرك والقنصل الفرنسي الضغط على شاهين . وربما كان هذا الضغط مرتبطا بتلك الحادثة التي رواها شـاهد العيان الذي كتـب ان « البطرك الماروني بعد ان شاهد ما يتهدد النظام الاجتماعي فـي الجبـل اخـذ يقـوم بالمناورات لابعـاد طانيوس شاهين من كسروان . فأتى هذا الاخير الى البطرك بموكب مهيب وهو يمتطي بغـلا أبيض ويحف به مساعدوه ولكنه امتنع عن تنفيـذ رغبـة زعيمه الديني طامعا في تنفيذ الرسالة (١٢٤) .

ومع ان رجال الدين كانوا قد استعدوا تمام الاستعداد لهذه المفاوضات (اذ انهم كانوا يقومون بالدعاية لاقتراحاتهم بواسطة القساوسة ، وينظمون العرائض وما شابه ذلك) الا ان مساعيهم باءت بالفشل . ولم تسفر المفاوضات في هذه المـرة عن التوصل لاتفـاقية بشأن الحكم في كسروان .

وكانت الحركة قد اتخذت اثنـاء ذلك أبعادا كبيرة مما أقلق رجال الدين والاقطاعيين اللبنانيين وحتى أعيان الريف الذيـن اشتركوا في العصيان ، ولا يمكن ان نلم بأسباب هذه الظـاهرة الا بعد استعراض تنظيم السلطة والتدابير التي اتخذت في منطقة العصيان .

تنظيم السلطة وتدابير المتمردين الاجتماعية

لقد شمل العصيان كـل مقاطعة كسروان العـائدة لمشايخ آل الخازن والتي يناهز عدد سكانها الخمسة عشر الف نسمـة

١٢٤ — « Souvenirs de Syrie..., p. 11.

آل الخازن والتي يناهز عدد سكانها الخمسة عشر الف نسمة (١٢٥). وقد انضم الى العصيان خلال عام ١٨٥٩ وبداية عام ١٨٦٠ قرى المقاطعات المجاورة مما يجعل من المتعذر تعيين حدود منطقة العصيان وعدد المشاركين فيه تعيينا دقيقا . ولكن هناك ما يجعلنا نفترض بأن عددهم كان يتراوح بين العشرين والثلاثة وعشرين الف نسمة .

وبالرغم من تأكيدات المتمردين المستمرة على طاعتهم للاتراك والقائمقام (١٢٦) فقد شكلوا في الواقع جمهورية فلاحية مستقلة في منطقة العصيان (١٢٧) . ومنعوا مشايخ آل الخازن من الدخول اليها . وكان الموظفون الاتراك يأتون الى هناك من أجل مفاوضة قادة المتمردين فقط . كما ان المتمردين كفوا عن جباية الضرائب للسلطات التركية ، وشكلوا أجهزة للحكم غير معترف بها من قبل الاتراك .

وكان الجهاز الاعلى للسلطة في منطقة العصيان هو الاجتماع العام الذي يضم ممثلي القرى الوكلاء الذين يناهز عددهم التسعين شخصا . وكان مثل هذا الاجتماع يعقد بشكل خاص خلال الايام الاولى من طرد المشايخ ، ثم اصبح يعقد جلساته بعد ذلك لمناقشة قضايا العصيان الهامة . وكانت الوثائق التي ترتدي أهمية كبرى بالنسبة للمتمردين توقع من قبل كافة الوكلاء المشاركين في الاجتماع . وكانت قرارات الاكثرية تتمتع بصفة القانونية ، وقد اخذ البطرك هذا الامر بعين الاعتبار فدعا

---

١٢٥ — أصبحت المنطقة بعد التقسيم الاداري الذي جرى فيما بعد تضم مديريات غوسطا والجرد والزوق وصربا . وقد ورد في وثائق العصيان اسم ثلاثين قرية تقريبا يبلغ عدد سكانها وحدها احدى عشر الف نسمة ومن بينها قرى كبيرة كقرية غزير ٢٣٠٠ والزوق ١٧٠٠ ومزرعة كفردبيان ١٦٠٠ وعجلتون ٦٠٠ وعشقوت ٥٥٠ وريفون ٣٣٠ شخصا . وكانت النساء تلعب في اكثر الاحيان دورا فعالا في العصيان (بالاستناد الى المعطيات الاحصائية التركية لعام ١٨٦٢ المذكورة في كتاب ك.ر. بيتكوفتش « لبنان واللبنانيون ») .

١٢٦ — « ثورة وفتنة ... » ص (١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٥) .

١٢٧ — يذكر انطون العقيقي ان طانيوس شاهين كان يخطب باسم « الحكومة الجمهورية (الشعبية) المصدر نفسه ص ٨٧ » .

اليه الوكلاء بقصد التأثير على المتمردين . (١٢٨) وكان انتخاب ممثلين عن القرى وارسالهم الى الاجتماعات العامة شرطي انضمام هذه القرى الى العصيان (١٢٩) .

وفي فترة ما بين الاجتماعات كان يستلم ادارة المنطقة الوكيل العام طانيوس شاهين ، المنتخب من قبل اجتماع الوكلاء قبيل العصيان ، والمتمتع بنفوذ لا حدود له بين المتمردين مما جعل المعاصرين يسمونه « الدكتاتور » شاهين (١٣٠) . وكان نفوذ طانيوس شاهين يعود الى سمعته الحسنة الذائعة وشعبيته بين الاهالي (١٣١) ، والى اعتبار ان الوكيل العام يعبر عن المصالح العامة . وقد ظهرت هذه الفكرة الاخيرة بوضوح في رسالة وكيل قرية مزرعة كفردبيان حبيب الخوري العقيقي ، الذي كتب مخاطبا طانيوس شاهين : « فاذا كان لازم حضورنا الآن لنحضر على جناح السرعة ولو كانت مصلحتنا ضرورية حيث انها خصوصية ومصلحتكم عمومية » (١٣٢) .

وقد تكوّن هذا الراي نتيجة منح الشعب طانيوس شاهين مطلق الصلاحية في توجيه المفاوضات مع الحكومة والاشراف عليها، كما ورد في الرسالة التي بعث بها الفلاحون الى بولس مسعد (في اذار من عام ١٨٥٩) حيث كتبوا : « نحن جمهورنا الكامل قدمنا الى غبطتكم والى باب الحكومة وكيل عام يجاوب عنا بما نحن طالبينه من بيت الخازن وبما يجد عليه يشاورنا... وان صدر أمركم في الجواب ليد وكيلنا العام في ريفون حتى نستعمل بما تأمرون به » (١٣٣) . وبالرغم من الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها طانيوس شاهين فانه لم يكن يستطيع ان يتخذ

---

١٢٨ — « ثورة وفتنة ... » ص (١٧٣ ، ١٨١) .

١٢٩ — يمكننا ان نستنتج هذا من الوثيقتين (XLIV) et (XLI) ثورة وفتنة ... ص ٢١٢ . « Lebanon in the last years..., p. 141.

١٣٠ — Ch. Churchill, The Druzes..., p. 127.

١٣١ — مما يشهد على هذا تلك الاغاني التي كان الفلاحون يمدحونه بها : (B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie..., p. 62).

١٣٢ — « ثورة وفتنة ... » الصفحة ١٧٥ .

١٣٣ — المصدر نفسه الصفحة ١٧٣ .

القرارات الهامة بنفسه . وقد كتب يوحنا حبيب يقول : « ان الحلف الجاري بينهم ووكالته العامة يقتضيان أخذ رضاهم قبل القرار ولهذا استحسن صيرورة اجتماع عمومي » (١٣٤) .

وكان طانيوس شاهين يتمتع بحق دعوة الوكلاء للاجتماع ، وبالسلطة القضائية ، بالرغم من وجود جهاز قضائي في منطقة العصيان وهو الديوان في الزوق . ويبدو ان الجهاز الاداري الذي كان الوكيل العام يتصرف به لم يكن بالجهاز الضخم وهو يتألف من : المنادين (معلني الاوامر) والخيالة والمهيجين الذين كانوا ينفذون اوامره . كما كان تحت امرته فرقة مسلحة تضم بضع مئات من الرجال (١٣٥) . وفي حالات الضرورة كانت القرى تضع فرق متطوعيها تحت أمرته . وكانت مصاريف الفرقة المسلحة تؤخذ من الرصيد العام الموجود في بيت طانيوس شاهين ومن الرسوم الاستثنائية التي فرضها المتمردون (١٣٦) .

وكانت منطقة العصيان تطبق نظاما ثوريا وتعاقب خصوم السلطة الفلاحية والمخلين بالامن العام بمختلف العقوبات بما فيها السجن (١٣٧) .

وكان وكلاء القرى هم الذين يمثلون السلطة في قراهم . وكل قرية كانت تنتخب عددا من الوكلاء يتراوح بين اثنين وسبعة، ويقوم هؤلاء بصيانة الامن العام والنظام وبدور المرجع القضائي الاول لتسوية النزاعات بين الفلاحين . ويساعدهم في أعمالهم أعوان من أبناء قراهم بالذات .

---

١٣٤ — المصدر نفسه الصفحة ١٩٨ .

١٣٥ — المصدر نفسه ، صفحة ١٨١ .

١٣٦ — كتب انطون العقيقي عن الرصيد يقول « جمع طانيوس شاهين جانب من املاك المشايخ في الساحل والجرد انكان من الحرير او من الحنطة ووضعها في بيته وكان ياخذ ذلك بقوة الجمهور وفتح خروجه في بيته الى الشارد والوارد » (المصدر نفسه ص ٨٧) .

١٣٧ — R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 128.
بين الوثائق التي نشرها يزبك هناك مثلا رسالة طانيوس شاهين التي يعلم فيها رجال الدين في قرية عرمون بقرار الديوان (في الزوق ؟) ان يصير التنبيه في كافة المحلات ان من يشرب عرقا او خمرا خارجا عن محله ويصير منه رزالات سيعاقب بالسجن « ثورة وفتنة ... » صفحة ٢٠٨ .

هذا ما كان عليه تنظيم الحكم الجديد بالنسبة للبلاد ؛ الحكم المستند على مشاركة الشعب مشاركة واسعة في الادارة والذي الغى نظام الحكم الاقطاعي القديم . فما هي الفئات الاجتماعية التي كانت تعبر هذه السلطة عن مصالحها في القرية اللبنانية ؟

ان الوضع الاجتماعي لبعض الوكلاء يتيح لنا تحديد الفئات الاجتماعية في الريف الكسرواني التي شاركت بنشاط في العصيان . فبين الثلاثة والثمانين وكيلا الموقعين على بيان استسلام قرى كسروان (في ٢٩ تموز عام ١٨٦٠) كان هناك **عشرة قساوسة** ، ولا أقل من **ثلاثة مرابين** . وكان **اثنان وثلاثون وكيلا يملكون أختاما** للمهر (مما يجعلنا نفترض انهم كانوا من الفئة الموسرة) . اما وضع البقية فلا يمكننا تحديده . ان هذه المعطيات وحدها تدلنا على اشتراك أعيان الريف وصغار رجال الدين في الحركة ، الامر الذي وجد تعبيرا عنه في السياسة الداخلية لقادة العصيان . ونذكر بهذا الصدد ان مصالح رأس المال التجاري والربوي كانت مصانة في منطقة العصيان : وقد قبل طانيوس شاهين الطلب القاضي بتحصيل الديون والغرامات التجارية من المدينين ، كما ان بيان التاسع والعشرين من تموز قد نص على عودة المشايخ الى اراضيهم بشرط ان يدفع المشايخ والفلاحون جميع ديونهم حتما (١٣٨) .

ولكن تدابير قادة العصيان لم تكن تعبر فقط عن ميول أعيان الريف . اذ ان ابعاد المشايخ من منطقة العصيان قد أتاح تحقيق المساواة بين جميع أهالي كسروان والقضاء على التعسف الاقطاعي ، الامر الذي كانت تطالب به جميع الفئات في القرية اللبنانية .

واخيرا فان التدابير التي اتخذتها سلطة العصيان في المجال الزراعي كانت مفروضة من قبل الفلاحين ذوي الاراضي الصغيرة والذين لا يملكون ارضا .

وكما ذكرنا آنفا فقد استولى المتمردون اثناء العصيان على ممتلكات مشايخ آل الخازن من الادوات المنزلية الكثيرة والمجوهرات والاسلحة والنقود والمنتجات الزراعية ، الحنطة

---

١٣٨ — « ثورة وفتنة ... » الصفحات (١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٥) .

والشرانق ـ والارض (١٣٩) . وقد كتب انطون العقيقي يقول: « وصار الاهالي يعطلون املاك المشايخ من قطع احراش وتكسير ابواب حارات المشايخ وأخذ حاصلاتهم من حرير وحنطة وزيت وكروم وكل ما يمكن أخذه » (١٤٠) .

وكانت الممتلكات المنقولة والاشجار المقطوعة « تستعمل للصالح العام » (١٤١) أو توزع بين الفلاحين . كما وزعت بين الشعب كذلك شجرات التوت التي كان المشايخ المعوزون يجمعون محصولها بأنفسهم . أما الاراضي التي كان الفلاحون « يملكونها حتى ذاك الوقت كخدم أو شركاء » فقد اصبحت تستثمر بدون دفع ريع للاقطاعيين . وبتعبير آخر فقد انتقلت الارض الى ايدي الذين يعملون عليها (١٤٢) . وقد كان مثل هذا الحل لقضية الارض أنسب ما يكون لفلاحي لبنان ، حيث لم تكن توجد ملكية مشاعية ولا توزيع للاراضي المزروعة . وبالتالي فان العصيان الكسرواني لم يعرف اشاعة الملكية بين المتمردين او التوزيع المتعادل كعصيان البابديين في ايران أو عصيان التايبتيين في الصين .

وقد شرع قادة العصيان في كسروان بالاستيلاء على اراضي المشايخ وحظروا على الشركاء دفع الريع لاصحاب الاراضي » . وقد كتب العقيقي يقول : « وكانوا (الفلاحون ـ المؤلفة) اذا

١٣٩ ـ D. Chevallier, Que possédait un cheikh maronite en 1859; Un document de la famille al-Khazen.

١٤٠ ـ « ثورة وفتنة ... » صفحة ٨٧ .

١٤١ ـ Ch. Churchill, The Druzes..., p. 126.

١٤٢ ـ يمكن ان ننتهي الى هذه النتيجة استنادا لما يلي من اقوال ب. بوجولا وروشمونتيه : « لم يكن هناك في الحقيقة مصادرة للممتلكات بل كان هناك استعمال للعقارات لصالح الفلاحين العام » .
(B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., p. 61).

وفي عام ١٨٦٠ صدر امر للفلاحين « باعادة العقارات التي استولوا عليها بالقوة لاسيادهم القدامى ... وبدفع تعويض عن الاستعمال غير القانوني لهذه الممتلكات وبأن يبدأوا منذ هذه اللحظة بدفع الريع التام والاجرة وبقية ما يتوجب دفعه لاصحاب الاملاك » .
(P. Rochemon teix, Le Liban et l'expédition française en Syrie (1860-1861), p. 169.

وجدوا احد شركات المشايخ آخذ الى معلمه شيء كانوا يترصدونه ويأخذون منه كلما يكون معه » (١٤٣) .

ومع آن مفعول هذا الحظر كان مقتصراً على اراضي المشايخ الخازنيين ولا يطبق على الشركاء الذين يعملون في اراضي أعيان الريف والكنائس والاديرة الذين ظلوا يدفعون الريع كالسابق الا أنه أثار استياء أعيان الريف الذين كانوا يخشون ان تؤدي الحركة المتنامية الى الاستيلاء على اراضيهم المؤجرة للشركاء (١٤٤) .

ولهذا فقد أدت التدابير بشأن الارض الى نشوب صراع داخل صفوف المتمردين ، لم يكن يظهر للعيان بسبب الخطر الواضح الذي يهدد بعودة الشيوخ الخازنيين للحكم ، ولكن ما ان كاد البطرك والسلطات التركية توافق على تنحية مشايخ آل الخازن عن السلطة في كسروان حتى حصل الانشقاق في صفوف المتمردين . وعندها أبدى وكلاء الزوق واهالي السهل وغيرهم من الناس « العقلاء » استعدادهم للقبول باقتراح البطرك القاضي بانتخاب مأمور من أوساط الشعب واعادة آل خازن الى مقاطعاتهم فيما بعد . وقد تجلت بهذا محدودية مطامح أعيان الريف اللبناني الذين قنعوا تمام القناعة بالغاء تعسف مشايخ آل الخازن، الامر الذي يعلل بالخصائص النوعية التي تتصف بها هذه الفئة نصف البرجوازية ، نصف الاقطاعية من حيث جوهرها الاجتماعي (فقد كان ممثلوها يزاولون التجارة والربا ويملكون ورشات

١٤٣ ـ « ثورة وفتنة ... » صفحة ٨٧ . ان امثال هذا الحظر مشهورة في تاريخ الحركة الفلاحية ، ويكفي ان نتذكر ما كتب على مشنقة ليموزين (في فرنسا) عام ١٧٨٩ : هنا سيشنق كل من تسول له نفسه دفع الريع للاقطاعي والاقطاعي نفسه فيما اذا جرؤ على ابداء مثل هذا الطلب « (تاريخ العالم » الجزء السادس . موسكو ١٩٥٩ صفحة ٢٢) .

١٤٤ ـ وقد انعكس هذا الاستياء في كلمات انطون العقيقي الذي كتب يقول: « حتى اذا نظروا احد آخذ شيء الى المشايخ انكان من شركاتهم ام من خلافهم كانوا يأخذونه منه جبرا وبهذه الواسطة حصل الفقر على الجميع انكان من المشايخ لاجل ضبط املاكهم وزيادة مصاريفهم وان كان من الاهالي لعدم شغلهم في ما خص المعاش واعتكافهم الى الامر المنكر وصار ضيق عظيم « ثورة وفتنة ... » ص (٨٨) .

حرفية وكانوا في الوقت نفسه يوظفون الاموال للحيازة على الاراضي التي يعمل فيها الشركاء) .

وكانت غالبية الفلاحين تقف بشدة ضد اراء موسري الريف. وقد كتب يوحنا حبيب يقول « واما وكلاء الزوق فالجهلة قاموا ضدهم وصاحوا بصوت عال ان مأمورهم **الاميكو** (اي طانيوس شاهين) » (١٤٥) ذلك لان اسم طانيوس شاهين كان مرتبطا في ذهن الفلاحين بالتدابير التي اتخذت بشأن الارض . ولم يقتصر الصراع على المشادات الكلامية بل تعداها الى الاصطدامات المسلحة بسبب رفض بعض القرى الخضوع لطانيوس شاهين، وقد كان انتصاره عليها سببا في تقوية مواقع الوكيل العام والفئات الفقيرة التي آزرته . ويمكن القول انه منذ ذاك الوقت اخذت سلطة المتمردين تعبر قبل كل شيء عن مصالح الفلاحين الذين يملكون أراض قليلة والذين لا يملكون شيئا مما دعا المعاصرين للكتابة عن « التمرد المستفحل » . وقد اخذ المتمردون في كسروان يبحثون عن دعم لهم لدى فلاحي المقاطعات الاخرى وينظمون بينهم شبكة من المحرضين على العصيان (١٤٦) .

وساعد نجاح الفلاحين المتمردين في كسروان ودعايتهم على نشر الهياج في سائر لبنان . فساد الهيجان بين فلاحي المناطق التي تقع في شمال كسروان وانتقلت الاضطرابات الى منطقة اللاذقية . ورفض الفلاحون العلويون في ناحية صافيتا دفع الضرائب للسلطات التركية (١٤٧) فيما بين عامي ١٨٥٨-١٨٥٩ ثم امتد الهياج الى القائمقامية الدرزية « فأصبح المسيحيون

---

١٤٥ - « ثورة وفتنة ... » ص ١٩٣ .

١٤٦ - يمكن ان نحكم على طابع الدعوة التي كان ينشرها المتمردون من الخطاب البليغ الذي القاه شاهين في اهالي ناحية جبيل . وقد ورد في هذا الخطاب قوله : « ان لدى بيورلديا (أمرا) من سبع دول يقضي بتحرير كافة المسيحيين ، الذين لا يجب ان يبقوا بعد الان عبيدا لاحد . فاذا كنتم ترغبون في التحرر من نير العبودية فلا أحد يستطيع ان يمنعكم ان كان مشيرا او قائمقاما .... حرروا أنفسكم دون ابطاء ولا ترهبوا شيئا . واذا لزمكم جيش مسلح فاخبروني بهذا كي ارسله لكم ... واخبروني باسماء وكلاء كافة القرى التي تقف بجانبنا » .
(Lebanon in the last years..., p. 141.

١٤٧ - ا س ر خ « السفارة في القسطنطينية »

- حسب قول شاهد عيان - يضيقون ذرعا بتبعيتهم التي لا تطاق للمشايخ الدروز الذين يستثمرونهم دون شفقة (١٤٨) .

وعندها كتب يوحنا حبيب في رسالته للبطرك تلك الجملة التي يقول له فيها : « لم يزل حاصل الوهم من وقوع الفتنة بين النصارى والدروز » . (١٤٩)

فما الذي يمكن ان تعنيه هذه الجملة ؟

في نهاية عام ١٨٥٩ أخذت المفاوضات بين المتمردين والبطرك تدور في حلقة مفرغة وفشلت بهذا محاولات كبار رجال الدين لوضع الحركة تحت اشرافهم ، والادهى من هذا ان الحركة كانت آخذة في التوسع . وربما كان هذا ما جعل رجال الدين يفكرون بتأريث نار العداء من جديد بين الدروز والموارنة لاستغلال الفرصة واثارة الصدامات ودفع فلاحي كسروان للاشتراك فيها .

---

١٤٨ — « Souvenirs de Syrie..., p. 11.

١٤٩ - « ثورة وفتنة ... » ص ١٩٤ .

الفصل الخامس

الصدامات بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠

* الاحتلال الفرنسي للبنان
* النظام الأساسي في لبنان

الصدامات بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠

منذ حرب القرم أخذ وضع الاهالي المسيحيين في المناطق المختلطة يتدهور بشكل ملحوظ . وقد كتب تش. تشرشل ان معاملة المشايخ الدروز « للمسيحيين الموجودين تحت حكمهم المباشر كانت تنتقل من سيء الى أسوأ . أما النواب الذين عينوا لدى زعماء الدروز ليلعبوا دور الوسطاء في حالات وقوع خلاف بين الدروز والمسيحيين فقد اصبح لا شأن لهم وكانوا يحضرون كنظارة صامتين لا فائدة منهم للخير او الشر . ووصل الامر الى ان المشايخ آصبحوا يغيرون على القرى المسيحية ويسكنون خيالتهم في منازلها ويغتصبون الاموال وينهبون المواشي والدواجن وغير هذا من المواد الغذائية ، وكانوا في حالة المقاومة ينزلون بمقاوميهم آقسى انواع العقاب » . ومع كل يوم كان يزداد الخطر الذي يتهدد « الحياة والممتلكات في المناطق الدرزية » (١) .

وكانت المقاومة الكبرى تأتي كما في عام ١٨٤٥ من جانب مدينة دير القمر التي هي حسب قول تش. تشرشل « مركز

١ – Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 98, 111.

القوة والازدهار الذي كان بمثابة نجم آمالهم (المسيحيين – المؤلفة) المشع والمركز الذي يقف في وجه أعمال الدروز غير المشروعة » ومن مدينة زحلة – المدينة الواقعة على حدود البقاع « والتي كانت تبدي مقاومة جبارة لميول النهب والسلب لدى الدروز الذين إعتادوا منذ زمن طويل على ان ينظروا الى هذه المنطقة الخصبة ذات القرى العديدة كحقل فسيح لاعمال النهب والسلب » (٢) .

وكانت مدينة دير القمر قد رفضت الخضوع لاسيادها الاقطاعيين منذ الاعوام الاربعين وأصبحت تحكم من قبل موظف تركي ومجلس بلدي . اما زحلة فقد شنت نضالا عنيدا ضد أسياد المدينة منذ الاعوام الخمسين ، وتتوج هذا النضال برفض دفع « الاتاوات القانونية » للاسياد وبتشكيل « مجلس بلدي خاص » . وكانت كل من دير القمر وزحلة تملك قوى مسلحة – في حدود الالفي محارب للاولى وثلاثة الاف محارب للثانية . وقد عقدت المدينتان فيما بينهما معاهدة أتحادية (٣) .

وهكذا نجد ان دير القمر وزحلة يشكلان ظاهرة غريبة تماما في حياة المدن الشرقية التي لم تكن عادة خلال تاريخها كله تتمتع بحق الادارة الذاتية .

ولم يكن يمكن ان تبرز مثل هذه الظواهر في البلاد الا بعد ان تشكلت الظروف المناسبة لظهورها فيفترة ولادة العلاقات الرأسمالية وانتعاش الحركة المعادية للاقطاعية .

وقد كانت الاشكال التنظيمية للحركة المعادية للاقطاعية في المناطق المختلطة في نهاية الخمسينات تشبه في العديد من صفاتها الاشكال المماثلة لها من النضال ضد المشايخ الدروز في الاعوام الاربعين . فقد بدات تتشكل مجدداً في جنوب لبنان عام ١٨٦٠ فرق شعبية برئاسة شيوخ الشباب ، وكان لدى كل من هؤلاء ، حسب أقوال ابي شقرا ، قائمة بأسماء شباب فرقته، وكانت القوائم تسلم الى شيخ المشايخ الذي يترأس القوى

---

٢ – Ibid., pp. 103, 107.

٣ – Ibid., pp. 105, 167, 181, 182.

كان للمجلس البلدي في دير القمر يتمتع بنفوذ كبير في الناحية الى حد انه منع احد الاسياد القدامى من مشايخ آل نكد من بناء منزل على ارضه الخاصة بالقرب من المدينة .

المسلحة في سائر المنطقة . وكان يطلق على محاربي هذه الفرق اسم « الجهالي » وكانوا في هذه المرة يرتدون ملابس خاصة بهم (٤) . وبتعبير آخر فان قوى الفلاحين المسلحة قد بدأت تأخذ طابع الفصائل النظامية ، برئاسة اناس معروفين منذ حوادث الاعوام الاربعينمثل ابوسمرا غانم ويوسفالشنتيري وغيرهما...

وكان النضال يجري بقيادة منظمة تدعى « الرابطة المسيحية المحلية » ومركزها بيروت . وكان لها فروع في جبل لبنان . وكانت هذه الرابطة قد تألفت رسميا لمساعدة المحتاجين والمرضى ولكن اللجنة المركزية للرابطة كانت تقوم فعليا خلال عام ١٨٥٩ و ١٨٦٠ بالاستعداد للصدامات المسلحة بين الدروز والموارنة وكانت ترسل المنظمين العسكريين الى البلاد وتشتري الاسلحة وتوزعها بالمجان على اللجان المحلية التي كانت بدورها توزعها على فرق الفلاحين (٥) .

وكان ممولو المنظمة هم ، على ما يبدو تجار ومرابو بيروت ودير القمر . وكان في عداد اللجنة المركزية لهذه المنظمة التاجر البيروتي نقولا نقاش و « المصرفي » نعوم قيقانو والتاجر و « المصرفي » ميشيل فرج الله والتاجر أيوب طرابلسي من دير القمر وغيرهم .. وكان يترأس الرابطة المطران طوبيا عون ، وقد لعب القساوسة القرويون دورا فعالا في لجانها الفرعية .

ونحن للأسف لانملك موادا تسمح لنا أن نحكم بثقة على طابع وأهداف هذه المنظمة . وكما كان الامر في السنوات الاربعين فقد كانت الجماهير الشعبية الواسعة من الاهالي المسيحيين ترى في الصدامات مع الدروز سبيلا للخلاص من تعسف الاقطاعيين الدروز، ولذلك فقد كانت تدعم الرابطة . كما كانت هناك قوى داخل المنظمة وخارجها ترى مصلحتها في معارضة الشعور المعادي للاقطاعية بالتعصب الديني وتوجيه الحركة الفلاحية المتعاظمة في طريق الصدام بين الاديان . وكانت هذه القوى تؤرث العداوة المارونية الدرزية بشدة ، وقد فاق الجميع في هذا المضمار كبار رجال الدين الموارنة الذين ترأسوا المنظمة في عام ١٨٦٠ . وأخذوا ينشرون في لبنان كل

---

٤ – ابو شقرا ، الحركة ... ص (١٠٣–١٠٤)

٥ – ذكرت صحيفة The Times « 21. VII. 1860 » أنه تم توزيع اربعة عشر الف بارودة .

ما يكتبه ذوو المناصب الدينية في مباركة الحرب الدينية (٦) وقد عمد رجال الدين الموارنة الذين كانوا سابقا يغارون من العقائد المسيحية الاخرى الى الاعلان عن موقفهم المتسامح من الارثوذكستيين والكاثوليكيين اليونان من أجل توحيد القوى المسيحية (٧) .

وقد بذل رجال الدين جهودا خاصة لتحريض الفلاحين الكسروانيين ضد الدروز . و « رسموا لاتباعهم لوحة مؤثرة لآلام المسيحيين في الوسط وصرحوا لهم بأن شمال لبنان نفسه لن يسلم من غارات الدروز اذا لم يهاجمهم الموارنة في عقر دارهم لطردهم من لبنان » (٨) .

وقد لقي تحريض رجال الدين تربة مناسبة له ، اذ ان أنظار المتمردين الكسروانيين اتجهت في صيف عام ١٨٦٠ الى الهياج المتزايد بين الفلاحين المسيحيين في لبنان الجنوبي . وليس من المستبعد أن يكون طانيوس شاهين قد توجه بدعوة الى أهالي القائمقامية الدرزية للانضمام الى العصيان . ولهذا فعندما توجه الموارنة في المناطق المختلطة الى الكسروانيين لطلب المساعدة وعدهم طانيوس شاهين خيرا (٩) . لقد كان الكسروانيون يؤمنون برسالتهم التحررية وكانوا مستعدين لحماية الفلاحين الموارنة من تعسف الاقطاعيين الدروز .

وسرعان ما أعطى نشاط رجال الدين أكله : اذ توترت العلاقات بين الدروز والموارنة توترا شديدا وجرت سلسلة من الحوادث بسبب التعصب الديني بيد أنه لم يجر خلالها مساس بالقضية الزراعية أو تقديم طلبات مناهضة للاقطاعية وذلك خلافا لما جرى أثناء حوادث عام ١٨٤٥ . لقد كانت النزاعات الدينية هي التي تحتل مكان الصدارة في أحداث عام ١٨٦٠ .

ولم تكن جهود رجال الدين وحدها هي التي هيأت لوقوع الصدامات بين الدروز والموارنة . ففي العشرين من آب عام ١٨٦٠ لمح اللورد بالمرستون في البرلمان الى اشتراك فرنسا في الحوادث

٦ ــ تورد صحيفة « The Times » في عددها « 17, IX, 1860 » نص رسالة الاسقف صافروني .

٧ ــ R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 132.

٨ ــ Souvenirs de Syrie..., p. 26.

٩ ــ « ثورة وفتنة ... » صفحة ١٠٦ .

بقوله : « قبل بضعة أشهر من نشوب الصدامات سرت بين المسيحيين الاتراك والاوربيين اشاعات عن صدامات ستقع في سوريا . ومن المعروف جيدا ان احتياطيات ضخمة من الاسلحة ــ الاسلحة الاوربية الآتية من أوربا ــ قد أرسلت الى الموارنة » (١٠) وكانت الاوساط الحكومية في انكلترا تعرف أمر الصلات الوثيقة بين رجال الدين الموارنة وفرنسا ، وتعلم ان هذه الاخيرة قد أرسلت عدة مرات أسلحة الى سوريا في السنوات الاربعين وتعلم أخيرا ان يوسف كرم قد اشترى بنادق في مارسيليا (١١) ، ولهذا لم يكن لديها شك في أن فرنسا هي التي أرسلت الاسلحة الى لبنان عام ١٨٦٠ كذلك .

ان تحليل سياسة الحكومة الفرنسية الداخلية والخارجية الذي نشره كارل ماركس في جريدة « نيويورك ديلي تربيون » يلقي الضوء على الدوافع للسلوك الفرنسي في سوريا . فبعد دراسة الوضع الداخلي للامبراطورية الفرنسية وحالة الامور السياسية الاوربية استنتج ك. ماركس ان نابليون الثالث « وجد نفسه مضطرا للتفتيش عن أي حملة صليبية جديدة مثيرة ليغرق أمبراطوريته من جديد بالهذيانات الحربية » . ان فشل سياسة نابليون الثالث الخارجية في ايطاليا وبروسيا وخلافه مع البابا الذي ألحق « الضرر بتلك الدعامة التي كان يستند عليها نفوذه بين الفلاحين وهي رجال الدين الكاثوليك في فرنسا » ، والازمات المالية والسياسية الداخلية ، ان كل هذا تصادف زمنيا مع ظهور « تلك الحقيقة التي لا يمكن انكارها وهي ان روح التمرد الغولية (الروح الفرنسية) تبعث من تحت الرماد من جديد وان استمرار سيطرة مغتصب السلطة متعلقة من جديد بتنظيم حرب كبيرة جديدة كما حدث بعد عامين من الانقلاب العسكري *Coup d'éiat* ثم بعد عامين آخرين في أعقاب حوادث القرم . فلاشعال حرب أوربية شاملة يمكن بواسطتها تفادي الثورة كان لا بد من « احداث المجازر الفظيعة في سوريا لكي تتخذ ذريعة للتدخل الفرنسي » . وهكذا نرى ان ك. ماركس كان يعتبر ان العملاء الفرنسيين بالذات هم الذين نظموا « المعركة السياسية

١٠ ــ The Times, 21, VIII, 1860.

١١ ــ The Times, 6, XI, 1860.

الدينية .... على الساحل السوري » (١٢) .

في ضوء تحليل ك. ماركس هذا ودراسة نشاط رجال الدين الموارنة المرتبطين بفرنسا ، تكتسب معنى خاصا كلمات القنصل العام الفرنسي في بيروت الذي استدعي في نهاية عام ١٨٥٩ ، ادموند دي ليسيبس . عندما قال متحدثا عن خلفه في منصب القنصلية الكونت « بينتيفوليو » : بعد ستة أشهر سيغرق لبنان في النار والدماء وسيكون بينتيفوليو من المساعدين على هذا (١٣) . وقد تحققت تنبؤات أ. دي ليسيبس بدقة مدهشة .

ان بريطانيا ، شأنها شأن فرنسا ، لم تقف موقف المتفرج من الحوادث في سوريا . وكانت سياستها في عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٠ تقوم في التشجيع العلني ، ان لم يكن في الدعم السري ، لاستعدادات الدروز الحربية . وردا على نشاط « الرابطة المسيحية» أقام المشايخ الدروز صلات مع اقطاعيي حوران ، ونظموا دعاية دينية بين الفلاحين الدروز داعين اياهم الى ابادة المسيحيين (١٤) ، وقاموا بشراء الاسلحة والذخائر (١٥) . ولاعاقة تسليح الفلاحين المسيحيين أرسل أعيان الدروز الى منطقة صيدا حرسا لنزع الاسلحة من المسيحيين الذين ينقلونها خارج المدينة ، بينما كان الدروز ينقلون الاسلحة الى الجبال بحرية (١٦) .

وكان المشرف على نشاط الارستقراطية الدرزية هو الشيخ سعيد جنبلاط ، الذي يعتبر دعامة للنفوذ الانكليزي في لبنان . فقد كان يعقد اجتماعات سرية للارستقراطية الدرزية في مقره في المختارة ويمسك بيده جميع خيوط المؤامرة الدرزية . وينبغي الافتراض ان القنصل العام الانكليزي كان على علم بنشاط الاعيان الدروز . فقبيل

١٢ – ك. ماركس : الحوادث في سوريا – الدورة البرلمانية الانكليزية – حالة التجارة البريطانية – ك. ماركس و ف. انجلز ، المؤلفات ، الطبعة الثانية ، الجزء ١٥ ، الصفحة ١٠٢ .

١٣ – P. Rochemonteix, Le Liban et l'expédition..., p. 36.

١٤ – Iskandar Abkarius, The Lebanon in turmoil..., pp. 115-116.

١٥ – « Souvenirs de Syrie... », p. 10.
وزع المشايخ الاسلحة على الفلاحين الدروز بعد بدء الاصطدامات فقط .

١٦ – F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860, p. 11.

وقوع الاصطدامات بين الدروز والموارنة أخذ الشيخ سعيد جنبلاط يسأل القنصل العام الانكليزي (مور) كيف ينبغي عليه أن يتصرف في الوضع القائم . وقد نصحه القنصل نصيحة لا تحتمل التأويل وهي عدم القيام بأعمال سافرة كي لا يفضح نفسه . وقد نفذ الشيخ هذه النصيحة بدقة : فامتنع عن المشاركة في العمليات الحربية ، وحتى انه أرسل أغذية الى دير القمر التي كانت محاصرة من قبل الدروز وخبأ عنده بعض المسيحيين (١٧) . وكان يقود سرا جميع العمليات الحربية ضد المسيحيين .

وقد قدم العملاء الانكليز المساعدة الى الدروز أثناء العصيان . فشارك الكولونيل ش. تشرشل سرا في وضع خطط الدروز الحربية (وخاصة في عملية الاستيلاء على زحلة) (١٨) وكان المبشرون الاميركيون المتمتعون بالحماية الانكليزية يتجولون بحرية في لبنان الغارق في الدم . وقد تمكنوا من اكتساب عطف الدروز الى جانب أتباعهم البروتستانتيين القليلي العدد (في حاصبيا مثلا) وفضلا عن هذا فقد شارك البروتستانتيون اللبنانيون (بتشجيع من المبشرين الاميركيين دون شك اذا لم يكن بضغط منهم) في العمليات الحربية الى جانب الدروز (١٩) .

وقد كتبت الصحافة الاوربية كثيرا عن نشاط السلطات التركية الاستفزازي قبيل الاصطدامات . وسرت شائعات تقول ان الاتراك زودوا الدروز بالاسلحة من مستودع استامبول ولكننا لا نستطيع أن نتأكد من صحة هذا الامر ومن صحة معطيات الصحفيين الاخرى (٢٠) . ان سياسة السلطات التركية المخادعة في لبنان لم تظهر بكامل صورتها الا أثناء الصدامات .

وقد كان النذير الاول في وقوع مأساة عام ١٨٦٠ الدموية هو حوادث الخامس عشر من آب عام ١٨٥٩ التي وقعت في قرية بيت مري التي تبعد عن بيروت مسافة سفر بضع ساعات (*) . وقد

١٧ – ا س ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

١٨ – H. Jessup, Fifty three years in Syria, New York, 1910, p. 174.

١٩ – Ibid.

٢٠ – « The Times », 23, VIII, 1860.

(*) نسبة لوسائل النقل انذاك بالطبع (ملاحظة من المعرب)

حالت السلطات التركية وقتها دون وقوع الكارثة باسراعها في ادخال جيوشها الى لبنان .

وفي نيسان عام ١٨٦٠ أبلغ موخين القنصل الروسي في القسطنطينية لوبانوف — روستفسكي بأن لبنان في حالة الهدوء الذي يسبق العاصفة . وكتب يقول « ان كل هذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن الحرب الاهلية ستندلع في الجبال بعد جمع المحصول » (٢١) .

وبالرغم من أن بعض الاشخاص لفتوا أنظار القناصل وخورشيد باشا الى الوضع في البلاد الا انه لم تتخذ أية تدابير بهذا الخصوص .

وفي الرابع عشر من أيار عام ١٨٦٠ حدث أول صدام جدي بين الفلاحين المسيحيين من احدى قرى جزين وبين دروز قرية في مقاطعة الشوف بسبب قتل ثلاثة من المسيحيين . وبما ان جمع الشرانق لم يكن قد انتهى بعد فقد قرر الاقطاعيون الدروز (مقاطعجية جزين وسعيد جنبلاط والقائمقام الدرزي) والموظف التركي أن يخمدوا المشاجرة . فوافق الدروز على المفاوضة ، بينما رفضها المسيحيون بضغط من أبي سمرا الغانم ، المشهور في حوادث العصيان ضد المصريين وعضو اللجنة المحلية « للرابطة المسيحية » ،وطردوا أمناء الشيخ سعيد وترك الاهالي في العديد من القرى المسيحية أعمالهم في الحقول وتسارعوا لحمل السلاح . وأخذت فرقة الخيالة التي تشكلت في زحلة تشن الغارات على الدروز (٢٢) . وعقدت الاجتماعات (٢٣) في عدد من قرى لبنان الاوسط تحت اشراف « الرابطة المسيحية » كما يبدو . ولكن دير القمر بقيت في حالة ترقب. فبعث الاسقف طوبيا برسالة الى أهل المدينة بتاريخ العشرين من أيار عام ١٨٦٠ يعبر لهم فيها عن رضاه الابوي عليهم لانهم يحبون « الوطن والسلام والطمأنينة والراحة المنزلية » ولكن حذرهم من خطر هجوم الدروز عليهم . واختتم رسالته بتهديد أهل دير القمر الذين يقفون من الدروز موقفا سليم النية . وبعد بضعة أيام أعرب الاسقف بصراحة عن أنه « اذا لم يخضع أهالي دير القمر وظلوا على رفضهم للذهاب الى المعركة ، فانني سأدعو الدروز والمسيحيين

٢١ ـ ا س ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٢ ـ R. Edwards, La Syrie, 1840-1862, p. 135.

٢٣ ـ ا س ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

للهجوم عليهم » . (٢٥)

وفي السادس والعشرين من أيار حصل تشابك بين جماعة من الفلاحين الدروز والمسيحيين قرب بوابة بيروت . وقد أرّث الطرابلسي ، وهو أحد أعضاء لجنة « الرابطة المسيحية في بيروت » ، (٢٦) نار المشاجرة التي أسفرت عن مقتل أحد الدروز . وفي اليوم التالي قتل الدروز أحد الاثرياء المسيحيين من أهالي دير القمر . ومنذ تلك اللحظة بدأت ملاحقة الدروز جماعيا وأخذت الفرق المسيحية تشن الغارات في كل مكان بقيادة اللجنة المركزية « للرابطة المسيحية » وتوزعت الى المناطق المسيحية في لبنان رسائل شبيهة برسالة طوبيا الى أهالي دير القمر لدعوة الاهالي الى التأهب للقتال في لحظة صدور الاوامر . ثم أرسل طوبيا خيالا الى طانيوس شاهين ليطلب منه الاسراع في الهجوم . وتوجه البطرك الماروني برسالة الى المسيحيين يهددهم فيها بأنه سيغلق الكنائس في القرى التي لن يشارك أهاليها في الحرب (٢٧) .

ثم جرت الحوادث بعد ذلك على الشكل التالي : في الثامن والعشرين من أيار وصلت فرقة طانيوس شاهين الى المتن ، فأرسلت السلطات التركية في اليوم التالي جيوشها الى الحازمية لاغلاق الممر بين لبنان الشمالي والاوسط ، مما أربك الفرق المسيحية (وساعد كما يظهر ، مساعدة كبيرة على الانتصار الذي أحرزه الدروز في هذه المنطقة فيما بعد) . وفي اليوم التالي بدأت فرق المسيحيين من دير القمر وزحلة الاشتراك في العمليات الحربية . ووجهت هجماتها بالدرجة الاولى ضد القرى العائدة لكبار المشايخ الدروز (٢٨) . وبعد الاول من حزيران استلم الدروز زمام المبادرة فحاصروا دير القمر وزحلة (٢٩) ووصلت من حوران الى البقاع فرقة اسماعيل الاطرش بدعوة من سعيد جنبلاط . وفي الثامن عشر من حزيران هاجم الدروز

٢٤ ـ R. Edwards, La Syrie 1840-1862, pp. 136, 137.

٢٥ ـ Ibid., p. 138.

٢٦ ـ The Times, 17, IX, 1860.

٢٧ ـ ا س ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٨ ـ المصدر نفسه .

٢٩ ـ R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 149.

زحلة ، ثم نهبوها وأحرقوها . وقد كان الدروز قبل ذلك قد استولوا في الثامن من حزيران على القرية الكبيرة حاصبيا وقاموا مع الجنود الاتراك بذبح الاهالي الذين اختبأوا في قصر الحاكم ، وكان مصير أهالي راشيا نفس مصير سابقتها . وهاجم الدروز مدينة دير القمر ، بعد أن ألقى أهلها السلاح بناء على طلب الضابط التركي ، فنهبوها وذبحوا جميع السكان تقريبا بالاشتراك مع الجنود الاتراك .

وقد حدثت مثل هذه الفظاعات في عدد آخر من قرى لبنان الاوسط الجنوبي . وكانت المناطق التي كابدت بشكل خاص هي المتن والبقاع الغربي والشوف والشحار والغرب وجزين . وكنت تستطيع أن ترى من بيروت ليلا ألسنة اللهب تتصاعد من القرى في الجبال . ويعتقد المعاصرون ان ما حال دون وقوع المجازر في بيروت وصيدا هو وصول الفرقاطة الروسية « ايليا مومتس » وباخرة فرنسية الى المينائين المذكورين .

وقد أحرق ما يقارب مئة وخمسين قرية مسيحية وألحق الضرر بعشرات القرى الدرزية في المتن . وأصبحت المدينتان اللبنانيتان المزدهرتان زحلة ودير القمر تربضان تحت الانقاض . وقد مات قسم من سكانهما وفر قسم الى بيروت . وقد سقط في هذه الصدامات آلاف القتلى وفقد الآخرون مساكنهم وأملاكهم (٣٠) . وأبيدت كل المزروعات تقريبا وقطعت أشجار التوت . وملأت جموع اللاجئين بيروت وكسروان وقد لجأ الى المنطقة الاخيرة وحدها أربعون ألف نسمة وبدأ الجوع وانتشرت الاوبئة . حتى ان الفزع استولى على التجار الاوربيين وأسرع مكتب البنك العثماني باخراج ممتلكاته من بيروت . وفر أغنياء بيروت عن طريق البحر الى الاسكندرية واستطامبول . وتوقفت المغازل وذهب العمال للقتال . ان تاريخ لبنان لم يعرف مثل هذا الصراع الدموي بين الاهالي من قبل .

---

٣٠ ـ لقد قاسى من هذه الصدامات الفلاحون وأهالي المدن الفقراء بشكل رئيسي ذلك لان الاقطاعيين الدروز كانوا اثناء الحرب يحتفظون لا بسمعتهم بين الفلاحين الدروز فقط بل وبمراكزهم الاقتصادية وقد استطاعوا ان يصفوا حساباتهم مع دائنيهم من تجار دير القمر بتركهم اياهم احياء لقاء مبالغ ضخمة . وعندما كان الفلاحون الشركاء المسيحيون لا يشاركون في الحركة الفلاحية ، كان الاقطاعيون يحمونهم من هجمات الفرق الدرزية . وقد كان سعيد جنبلاط مثلا يحمي مستاجري أراضيه فيجزين (ا س ر خ «السفارة في القسطنطينية»).

ولم تكن الدول الاوربية التي ساعدت على نشوب الصراع الى هذه الدرجة أو تلك ولا الحكومة التركية ولا رجال الدين الموارنة يتوقعون مثل هذه العواقب الفظيعة لسياستهم .

ولم تتوقف العمليات الحربية الا فينهاية حزيران، وفي السادس من تموز بعد التدخل الفعال من قبل قناصل الدول الاوربية الذين كانوا يخشون وقوع صدامات مشابهة استطاع خورشيد باشا أن يصل الى عقد اتفاقية بايقاف الصدامات بين الزعماء الاقطاعيين من الدروز والمسيحيين . وكانت الاتفاقية تنص على رفض المسيحيين التعويض عن الخسائر وعلى الاحتفاظ بكل امتيازات الاقطاعيين الدروز (٣١) .

وما كادت الصدامات تتوقف في لبنان حتى بدأت مجزرة المسيحيين في دمشق كاستمرار للمذابح اللبنانية . وقد تمكنت مناطق كسروان ولبنان الشمالي من تفادي غارات الدروز والخسائر المادية. بيد أن الحركة الفلاحية في كسروان أصيبت بضربة سياسية ومعنوية قوية . اذ عادت فرق طانيوس شاهين الفلاحية التي شتتتها فصائل الاتراك الى كسروان . وقد حلت الفوضى والحيرة في صفوفها . وتأرجحت سمعة السلطة الفلاحية ، وانهمر سيل اللاجئين الى كسروان ، فلم تستطع سلطة الفلاحين أن تحافظ على تنظيمها في مثل هذه الظروف . أما المعلومات عن العصيان الكسرواني فيما بعد ذلك فهي معلومات عرضية وغير منظمة .

ان مشايخ آل الخازن لم يشاركوا في حوادث الدروز والموارنة وعندما توقفت العمليات الحربية اتفقوا على ما يظهر مع كبار رجال الدين الموارنة على اعادة حقوقهم لهم في كسروان . وضغط الاسقف طوبيا على المتمردين مكرها اياهم على الاستسلام . وربما لم تسر الامور بدون ضغط من جانب القنصل الفرنسي كذلك . وفي التاسع والعشرين من تموز عام ١٨٦٠ وقع وكلاء كسروان على « بيان قرى لبنان » الذي عبروا فيه عن موافقتهم على عودة المشايخ الى كسروان واعادة حقوقهم في الممتلكات (٣٢) . ولم يحتو البيان على حلول لقضايا الادارة السياسية وظل طانيوس شاهين بعض الوقت على رأس الجهاز الاداري . وظلت المنطقة بضعة أشهر بعد توقيع

---

٣١ ـ « Souvenirs de Syrie..., p. 149.

٣٢ ـ « ثورة وفتنة ... » ص ٢١٤-٢١٦ .

الاتفاقية لا تدفع الضرائب للاتراك . أما المشايخ فلم يستطيعوا تسلم ممتلكاتهم (٣٣) . ويبدو ان مختلف القرى كانت تسلم في أوقات مختلفة ، فقد اعترفت الزوق مثلا بسلطة القائمقام المؤقت يوسف كرم في تشرين الثاني ١٨٦٠ . أما قرى كسروان الشرقي فلم تعترف بها حتى بداية عام ١٨٦١ (٣٤) بيد أن مصير العصيان ككل كان قد تقرر .

الاحتلال الفرنسي للبنان

في الرابع من تموز عام ١٨٦٠ ظهرت في الصحافة الانباء الاولى عن الحوادث في سوريا ، وفي الخامس من تموز توجه وزير الخارجية الفرنسي توفينيل الى السفير الانكليزي في فرنسا اللورد كوفلي بتصريح يتضمن ضرورة التدخل في الشؤون السورية . وفي الثامن عشر من تموز أدلى القنصل الفرنسي في لندن الكونت بيرسيني الى اللورد راسيل برأي الحكومة الفرنسية حول حتمية ارسال جيوش أوربية الى سوريا . وكانت الحكومة الفرنسية تعتمد على أن الدول الاوربية ليست مستعدة لارسال الجيوش ولهذا فهي ستمنح فرنسا حق احتلال سوريا بمفردها . وقد أجابت الحكومة الانكليزية في اليوم نفسه بأنها لا تستطيع أن تعارض الاحتلال الاوربي لسوريا ووافقت على ارسال أسطولها في البحر الابيض المتوسط لحراسة الساحل السوري . ولكن بشرط يقضي بضرورة عقد مؤتمر دولي يحدد مواعيد وأهداف الحملة على سوريا .

وبعد ثلاثة أيام أي في الحادي والعشرين من تموز أعد في طولون كل شيء من أجل توجه الجيوش الفرنسية ولم يبق سوى صدور قرار الاجتماع الدولي المنعقد في باريس . وقد بذل المندوب التركي في هذا الاجتماع أقصى ما يمكن بذله من النشاط لكي يحول دون اصدار قرار باحتلال سوريا ولكن مندوبي فرنسا والنمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا وقعوا في الثالث من آب عام

٣٣ — B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., p. 367,369.

٣٤ — D. Chevallier, Que possédait un cheikh maronite en 1859 ? Un document de la famille al-Khazen, pp. 74, 83.

١٨٦٠ بروتوكولا حول احتلال الجيوش الفرنسية لسوريا (٣٥) لمدة ستة أشهر .

ويقضي البروتوكول بأن تحافظ أساطيل الدول الاوربية على النظام في الساحل السوري . وقد توجه الى سوريا جيش فرنسي لا يزيد عدد جنوده عن ستة آلاف جندي . ولكن الفرنسيين استطاعوا الحصول على السماح بمضاعفة هذا العدد في حالات الضرورة وبعد موافقة الدول الاوربية . وكان على سكان سوريا تحمل كل مصاريف الاحتلال .

وفي السادس من آب بدأ ارسال الجيش الفرنسي الى سوريا بقيادة الجنرال بوفور دو تبول .

وكانت الحكومة التركية قد وجهت أثناء المفاوضات وزير الخارجية فؤاد باشا الى بيروت بمهمة مستعجلة ومنحته مطلق الصلاحيات . وفي السابع عشر من تموز وصل فؤاد باشا الى بيروت بصحبة فرقة تركية . وجمعت الجيوش التركية في سوريا بسرعة . واعتقل فؤاد باشا الكثيرين من الموظفين والضباط الاتراك ومن الارستقراطيين الاقطاعيين الدروز وسكان دمشق . وتبرع الباشا في طريقه بمبالغ كبيرة للمنكوبين كما أخذ ينثر الوعود ذات اليمين وذات اليسار للاجئين المسيحيين (٣٦) ، وقد قام فؤاد باشا بمهمته خير قيام (بالنسبة لمصالح الحكومة التركية) . واستطاع أثناء المحاكمات أن يطمس جرائم الموظفين الاتراك في الحوادث السورية واللبنانية ، وأن يقضي على خطر تكرر هجمات الدروز في لبنان والمسلمين في دمشق وأن يحرم بهذا قيادة الجيش الفرنسي من الحجة التي تخول لها توسيع نطاق الاحتلال في سوريا .

وما أن وصل الجيش الفرنسي الى سوريا حتى كان الهدوء يعم كل مكان . وقد كتبت مجلة (تيتشتغني زابسكي) تقول : « لقد وجد الفرنسيون البلاد في وضع لا يستطيعون معه القيام بأي عمل ، وقد اكتسبت حملتهم نفسها طابع النزهة العسكرية العادية » (٣٧) احتلت الفصائل الفرنسية والتركية لبنان الاوسط

٣٥ — « The Times », 10, VIII, 1860.

٣٦ — « Souvenirs de Syrie..., pp. 193-208. (تيتشتغني زابسكي) .

٣٧ — ١٨٦١ . العدد الاول .

والجنوبي ، دون أن يبدي الدروز أية مقاومة وقد اختبأ قسم كبير من الاقطاعيين الدروز في حوران .

وأخذ العملاء الفرنسيون ينشرون الاشاعات الاستفزازية في سوريا ، وتقوم الصحافة الفرنسية بتهويلها لايجاد ذريعة من أجل تمديد الاحتلال . وقد مدد الاحتلال فعلا لمدة ثلاثة أشهر . ولكن في حزيران من عام ١٨٦١ اضطرت فرنسا تحت ضغط انكلترا لاستدعاء جيوشها . ولن نتوقف هنا لنحكم على سلوك الجيش الفرنسي في سوريا ، بل نكتفي بالاشارة الى أن وجودهم هناك قد ساعد على انهيار النفوذ الفرنسي بين الجماهير الواسعة في هذه البلاد . وقد اضطر حتى أكابر الضباط الفرنسيين الى الاعتراف بهذا (٣٨) .

النظام الاساسي في لبنان

في خريف عام ١٨٦٠ بدأت في بيروت اجتماعات اللجنة الدولية التي شكلت من أجل بحث الحوادث في جبل لبنان ودمشق واعداد نظام اداري جديد للبنان. وفي عام ١٨٦١ أصدرت اللجنة بعد مداولات طويلة ما يسمى بـ « **النظام الاساسي** » فيلبنان وهو يقضي بالغاء تقسيم البلاد الى قائمقاميتين . وقد عين الباب العالي حسب النظام الجديد حاكما مسيحيا واحدا لسائر لبنان ومنحه مطلق صلاحيات السلطة التنفيذية . وكان على الحاكم الجديد أن يجبي الضرائب ويعين الموظفين ويقيم المحاكم ويدعو المجلس الاداري المركزي للاجتماع ويترأس اجتماعاته ، ويتألف هذا المجلس من اثني عشر مندوبا عن الطوائف الدينية (مندوبان عنكل طائفة) (*) وهو يتمتع

٣٨ ـ « La vie militaire du général Ducrot d'après sa correspondance (1839-1871), publiée par ses enfants » t. 1. Paris, 1895, pp. 422, 423.

(*) ملاحظة من المعرب : نص النظام الاساسي لجبل لبنان كما اصدره السلطان بعد مدة التجربة ١٨٦١ ــ ١٨٦٤ في المادة الثانية منه على ما يلي : « ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلف من اثني عشر عضوا : اثنين مارونيين ينوبان عن قائمقاميتي كسروان والبترون ، وثلاثة عن قائمقامية جزين احدهم ماروني والثاني مسلم والثالث درزي ، واربعة عن قائمقامية المتن

بحق المناقشة فقط ، وكانت مهمته الاساسية هي توزيع الضرائب والاشراف على مداخيل الادارة ومصاريفها . وقد قسم لبنان من الناحية الادارية على أساس الديانات الموجودة فيه الى **خمس مديريات : ثلاث مارونية** وواحدة درزية وواحدة أرثوذكسية . وعين الحاكم في المديريات (نوابا اداريين) وكانت كل مديرية تحتوي على مجلس اداري خاص بها . وكان يترأس القرى شيوخ منتخبون من قبل الاهالي وحائزون على ثقة الحاكم . أما أعضاء المجالس فقد كان يعينهم زعيم الطائفة الدينية بعد موافقة الاقطاعيين المحليين . وهكذا أرسى رجال الدين دعائم نفوذهم في حياة لبنان السياسية .

وتنص المادة السادسة من القانون على : « المساواة بين الجميع أمام القانون ، والغاء كافة امتيازات الاقطاعيين ، وخاصة أصحاب المقاطعات منهم » . وبالرغم من أن الاقطاعيين اللبنانيين قد احتفظوا عمليا بجزء كبير من امتيازاتهم ــ اذ كان منهم القضاة ورؤساء النواحي والمديريات وأعضاء في المجالس الادارية ــ الا أن حقوق السيادة الاقطاعية قد تزعزعت أركانها ولم ترتكز الى أسس متينة كالسابق .

احدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة ، وعضو واحد درزي عن قائمقامية الشوف واخر من الروم ، ينوب عن قائمقامية الكورة والاخر من الروم الكاثوليك عن مديرية زحلة » (عن كتاب لحد خاطر : عهد المتصرفين في لبنان ــ منشورات الجامعة اللبنانية) ولعل المؤلفة عند اشارتها الى التوزيع الطائفي لاعضاء مجلس الادارة قد اعتمدت على اتفاق أولي بين ممثلي الدول وجدناه في « المحررات السياسية » التي عربها ونشرها فيليب وفريد الخازن ــ جونيه ١٩١٠ ، اعتبرت انه التوزيع النهائي باعتبار ان دراستها تتوقف عند ١٨٦١ . وبذلك يكون التوزيع ٤ من الموارنة ، ٣ من الدروز ، ٢ من الروم ، ١ من المسلمين السنة ، ١ من المسلمين الشيعة ، و ١ من الروم الكاثوليك .

الخاتمة

ان استعراض تاريخ لبنان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في غضون أكثر من نصف قرن يدل على ان هذه السنوات الخمسين كانت تتميز بالتطور السريع المتواتر في المجالين الاقتصادي والسياسي .

فقد شهد لبنان خلال هذه الفترة تفسخ النظام الاقطاعي تحت تأثير العلاقات البرجوازية الناشئة ، وأخذت الاسس الاقتصادية والاجتماعية فيه تتغير تغيرا ملحوظا ، مما أدى الى تدهور أوضاع الفلاحين المادية ومقاومتهم للتدابير المالية الجديدة مقاومة شديدة .

وكانت العلاقات البرجوازية والسلعية — النقدية الآخذة في التطور تتناقض مع البنية الاجتماعية في البلاد حيث ينعدم التساوي بين مختلف فئات السكان ، وحيث يوجد حرمان الفلاحين وسكان المدن من حقوقهم ، وعدم صيانة أملاكهم وأرواحهم من تعسف الاقطاعيين ، ومن استعمال الاوساط الاقطاعية لامتيازاتها من أجل الاستيلاء على أراضي الفلاحين وفرض الرسوم والاتاوات التعسفية. ولهذا فقد كانت الحركة المناهضة للاقطاعية لا تقتصر على مقاومة الضرائب فقط ، (كما كان الامر سابقا) ، بل وتقاوم سلطة الاقطاعيين القضائية والادارية وتناضل من أجل المساواة في الحقوق بين جميع السكان ومن أجل حل المسألة الزراعية .

وكان التطور الاجتماعي — الاقتصادي في لبنان يؤدي الى تغير التركيب الطبقي للسكان ، والى ظهور فئة برجوازية جديدة تتألف من التجار والمرابين وأصحاب الورشات الحرفية والمانيفاكتورات . وقد أخذت هذه الفئة الاجتماعية الجديدة التي تقوم مصلحتها في الحد من التعسف الاقطاعي بالتقدم لقيادة الحركة المناهضة للاقطاعية . وتغيرت خلال هذه الفترة لوحة تركيب السكان وتوزيعهم في لبنان : فحتى الربع الثاني من القرن التاسع عشر كان سكان جبل لبنان من الريفيين الموزعين في مقاطعات الاقطاعيين ، أما الآن فقد أخذت تنشأ القرى المهنية الضخمة ، الى جانب مدينتين يتألف سكانهما من التجار المرابين والمهنيين الصناعيين الذين يتعلقون اقتصاديا بالاقطاعية ويتصفون بالتلاحم والتنظيم أكثر من الفلاحين وقد أصبحت المدن مركزا لمقاومة التعسف الاقطاعي .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر تسارع تغلغل البلدان الاوربية الاقتصادي في البلاد وتدخلها في الحياة السياسية داخل لبنان . وأخذت البلدان الاجنبية تشق الطرق البحرية الى شواطىء لبنان ، وتأسست الشركات التجارية وأولى مصانع غزل الحرير ، وأول بنك في البلاد ، وشق طريق دمشق — بيروت . وأخذت البلاد تستقبل الرحالة ورجال السياسة والصحفيين والضباط اوربيين . وبدأ السكان يطلعون على أشكال الحياة الاجتماعية والافكار الجديدة في أوربا خارقين بهذا عزلة لبنان وانغلاقه على نفسه . وهكذا تشكلت في البلاد تربة اجتماعية جديدة صالحة لتقبل الافكار البرجوازية ومهدت السبل لنفوذها الى لبنان .

ان أفكار الثورة البرجوازية الفرنسية وانتفاضة التحرر الوطني في اليونان قد أعطت أكلها أثناء عصيان عام ١٨٤٠ . وكان المتمردون يستشهدون في منشوراتهم بالعصيان اليوناني فقد كتبوا في منشور الثامن من حزيران عام ١٨٤٠ « ان اليونانيين قد ضربوا لنا مثلا » . كما كتب المتمردون عن عدالة النضال ضد الطغيان وفي سبيل الحرية . وبعد بضعة أعوام طالب اللبنانيون بالمساواة في الحقوق بين جميع السكان . وبتعبير آخر فان أفكار حركة التنوير بدأت تستولي على أذهان البرجوازية (بدليل نص المنشورات ونشاط المنظمات التنويرية) ، وقد ساعد الهياج الذي انتشر بين فئات واسعة من الشعب اللبناني على نفوذ هذه الافكار الى الجماهير

(ويدل على هذا عرائض ما بين عامي ١٨٤١ ــ ١٨٤٤ وشكوى المتمردين في جبة ــ بشري) .

ان دراسة الحركة الفلاحية المعادية للاقطاعية خلال الفترة الواقعة ما بين ١٧٨٢ ــ ١٨٦٠ تتيح لنا أن نحدد منطق تطورها كالتالي :

ان حركتي عام ١٧٨٢ وعام ١٧٨٤ وعصيان عام ١٨٢٠ كانت لا تزال في طور التمردات الفلاحية التقليدية المقتصرة على مقاومة الضرائب بقيادة الاقطاعيين المستائين من الوضع لعدم تمشيه مع مصالحهم الخاصة .

ويعرف تاريخ الاقطاعية العديد من أمثال هذه التمردات . أما العصيان الذي جرى في أيار ــ حزيران عام ١٨٤٠ فقد كان نقطة تحول في تاريخ الحركة الشعبية في لبنان . ومع أنه لم يكن يحتوي على أي شيء جديد مبدئيا من حيث متطلبات القائمين به ، الا أنه كان أوسع بما لا يقاس عن الحركات السابقة من حيث نطاقه الاجتماعي. فقد شاركت في قيادته عناصر برجوازية الى جانب الاقطاعيين ، ثم ان طلبات القائمين به كانت تستند الى مبادىء فكرية جديدة (كالنضال في سبيل الحرية ، والمطالبة بالعدالة ضد الظلم والطغيان) وبالرغم من أن قادة المتمردين لم يقدموا مناهج لتغييرات جديدة في المجال السياسي الا ان دعوتهم الى القضاء على الطغيانكانت تتضمن شجبا لنظام الحكم بمجمله ، الامر الذي أثر فكريا في مجرى الاحداث بعد ذلك .

ان مساهمة الفلاحين في طرد المصريين ، وتسليح الحكومة التركية لهم ، ثم تغير الوضع في لبنان واحتدام التناقضات الطبقية نتيجة لمحاولات الاقطاعيين الدروز استعادة حقوقهم وامتيازاتهم ، ان كل هذا أثار هياجا عميقا بين الفلاحين وسكان المدن في البلاد موجها لا ضد سياسة الاتراك في مجال الضرائب فقط بل وضد أطماع الاقطاعيين المحليين كذلك . فأخذ الفلاحون يعقدون الاجتماعات المحتشدة التي يعبرون فيها عن عدم رغبتهم في دفع أية ضرائب ويضعون البيانات التي تتضمن رفضهم للخضوع لسلطة الاقطاعيين القضائية والادارية ، ويقتلون جباة الريع .

ان الظروف الخاصة بالحياة اللبنانية وقبل كل شيء تركيب السكان الديني عملت على احتداد التناقضات بين الطائفتين الدينيتين : الدرزية والمارونية في فترة الازمة الاجتماعية الجدية .

وساعدت العداوة الدينية على تعميق التناقضات الاجتماعية وأتاحت لبعض الكتل الاجتماعية والسياسية استغلال هذه العداوة لأهداف سياسية .

ان المغزى والطابع الاجتماعي للصدامات الدرزية المارونية في أعوام ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ لم يظلا على ما هما عليه .

ففي عام ١٨٤١ حاول الاقطاعيون البادئون بالهجوم على الموارنة في المدينة والريف أن يوقفوا الهياج ضد الاقطاعية بقوة السلاح وأن يزيحوا بشير قاسم الذي كان ينحو نحو مركزة السلطة في السياسة الداخلية وأن يفسحوا المجال أمام نشاط الرجعية الاقطاعية . وفي عام ١٨٤٥ كانت الجماهير الشعبية المارونية بقيادة أعيان مدينة دير القمر المتأهبة للصدام تحاول أن تقضي على الرجعية الاقطاعية في فترة الصدامات .

وقد أنهكت الصدامات الدرزية المارونية في عام ١٨٤٥ قوى الجماهير الشعبية في لبنان الاوسط والجنوبي ، وأضعفت تنازلات شكيب أفندي حدة التناقضات القائمة في البلاد وأخمدت حركة الفلاحين مؤقتا .

وفي نهاية السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر انتقلت الحركة الى لبنان الشمالي حيث تطورت تطورا سريعا بفضل تجربة السنين السابقة ، وقد ابتدأ هذا التطور بالتعبير عن الاستياء من التعسف الاقطاعي وبالمطالبة بالمساواة وانتهى الى طرد الاسياد الاقطاعيين وتوزيع الارض . وقد تشكلت في كسروان جمهورية فلاحية تحققت فيها المثل العليا لدى الفلاحين اللبنانيين التي عبر عنها جزئيا في عام ١٨٤١ : فلم تعد الضرائب تجبى وألغي الحق الاقطاعي في اقامة المحاكم ، وأصبح جميع السكان يتمتعون بحقوق متساوية وحلت المسألة الزراعية بالاستيلاء على أراضي الاقطاعيين وتوزيعها .

وكان يبدو كما لو أنه قد برزت امكانية انتشار العصيان في سائر لبنان . ولكن المقدمات الاجتماعية ــ الاقتصادية والسياسية اللازمة للتغييرات البرجوازية لم تكن متوفرة في البلاد . ولم تكن العناصر البرجوازية لتشكل طبقة بعد لانعدام التضامن الطبقي فيما بينها ومحدودية مصالحها . أما أعيان الريف الكسرواني شبه البرجوازيين وشبه الاقطاعيين ، فقد ارتاحوا لتنحية الاقطاعيين السادة عن الحكم ولكنهم لم يرضوا عن التدابير التي اتخذها طانيوس

شاهين وجماعته بصدد الارض وكانوا يسعون للصلح مع السلطات مما أدى الى حصول الانشقاق في صفوف المتمردين . ولم تكن فئة الكومبرادور من تجار بيروت لتميل الى دعم العصيان دعما نشيطا بل كانت مستعدة لاستغلاله من أجل الحصول على تنازلات من جانب الحكومة التركية . ولم تكن التناقضات الطبقية في لبنان الاوسط والجنوبي لتتغلب على العداوة الدينية مما أتاح لمختلف القوى أن تستثير بمهارة الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٦٠ ، وأن تستغلها كأداة لاخماد الحركة المعادية للاقطاعية .

كان كل هذا يعرض العصيان الكسرواني للفشل . وبالرغم من فشل الحركة الفلاحية فيما بين السنوات الاربعين والسنوات الخمسين فقد أدت الى نتائج هامة في حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية .

وفي فترة السنوات الستين والسبعين أصبح يلاحظ في البلاد توسع نطاق الملكية الفلاحية الصغيرة ونمو مصانع غزل الحرير نموا كبيرا وازدياد التباين في أوضاع الفلاحين الاجتماعية . وتوسع نطاق الهجرة ، وكان كل هذا يدل على نشاط عملية ولادة وتطور العلاقات الرأسمالية .

أما من حيث التنظيم السياسي فقد أدت الحوادث الى الاعتراف الرسمي بالحكم الذاتي في لبنان .

وأخيرا فان الحركة المناوئة للاقطاعية في لبنان قد ساعدت على تطور الافكار الاجتماعية وعلى نمو حركة التنوير والنهضة الادبية .



صفحة

الفصــل الثالث

الفصــل الرابع

الفصــل الخامس

مطبعة الامل
بيروت

كانون الاول ١٩٧٢

من منشورات دار الفارابي

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن ق.ل
تأزم الوضع التعليمي في لبنان	جماعة من الاساتذة	٥٠
مفكرة وزارة التربية وعمل لجنة المناهج	مجموعة من الاساتذة الثانويين	١٠
المسألة القومية في ضوء الماركسية اللينينية	سلسلة محاضرات مبسطة	٥٠
الحزب الشيوعي حزب الطبقة العاملة	سلسلة محاضرات مبسطة	٥٠
اناشيد ثورية		٥٠
عمان في ايلول	شعر توفيق زياد	٥٠
اضواء على التقارب الصيني الاميركي	البير فرحات	٥٠
قصائد عربية عن لينين	جمعها وقدم لها د. غريغوري شرباتوف	٢٠٠
تألق « جواكان موريتا » ومصرعه (مسرحية)	بابلو نيرودا	١٥٠
القطاع العام وافاق التطور الاشتراكي في العراق	د. صفاء الحافظ	١٢٠٠
اليسار الحقيقي واليسار المغامر	يساري لبناني	٢٠٠
نظريات الرأسمالية الموجهة	مجموعة مؤلفين	٢٠٠
في الاقتصاد اللبناني	يوسف خطار الحلو	٢٠٠

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن ق٠ل
التعايش السلمي	لينين	١٠٠
حول الايديولوجية والثقافة الاشتراكية	لينين	١٠٠
تقرير عن السلام	لينين	٢٥٠
موسوعة بلاد السوفيات	لجنة من العلماء والاختصاصيين	٤٠٠
صفحات من حياة لينين	ل. فوتيفا	١٥٠
أسس الفلسفة الماركسية	افاناسيف	٦٠٠
اشتراكية ومساواة	شيخنزاروف	١٠٠
من تجربة نضال الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي	ف. زايتشكوف	٢٥٠
قصة رجل حقيقي	بوريس بوليفوي	٢٠٠
الخنجر (رواية)	اناتولي ريباكوف	٣٠٠
الحصاد (جزءان)	غالينا نيكولاييفا	٤٥٠
اقوى من العاصفة		٢٥٠
السجن (رواية)	نبيل سليمان	٢٥٠
اوهانيس ثومانيان (مختارات)		٢٠٠
الحرب العالمية الثانية (جزءان)	ديبورين	٤٥٠

منشورت أخرى توزعها دار الفارابي

اسم الكتاب	النـاشر	الثمن ق٠ل
نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه (الجزء الاول)	منشورات الحزب الثيوعي اللبناني	٤٠٠
الشيوعيون اللبنانيون ومهمات المرحلة المقبلة	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	٨٠٠
مشروع موضوعات المؤتمر انثالث للحزب الشيوعي اللبناني	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	١٠٠
الموضوعات السياسية للمؤتمر الثالث	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	١٠٠
برنامج الحزب الشيوعي العراقي	منشورات جريدة « النداء »	١٥٠
سيرة حياة لينين	منشورات دار النهضة — بغداد	١٨٠٠
في الشيوعية العلمية	منشورات دار النهضة — بغداد	٣٠٠
الولادة بلا الم	الدكتور سبيرو فاخوري	٥٠٠
وسائل منع الحمل الحديثة	الدكتور سبيرو فاخوري	٨٠٠
الشفيع احمد الشيخ والحركة النقابية والوطنية السودانية	عبد المنعم الغزالي	٣٠٠
لبنان في محيطه العربي (المجلد الاول)	فؤاد قازان	٦٥٠

العنوان : دار الفارابي للنشر والطبع والتوزيع
شارع بشارة الخوري — بناية سيتي سنتر
هاتف : ٢٥٥٤٩٢
ص.ب. : ٣١٨١

مـــــن منشورات دار الجماهـــير

■ الرأسمال الاجنبي في سوريا	بدر الدين السباعي	٨٠٠
■ الناظرون الى النجوم	ناظم حكمت	٢٥٠
■ الانسان والارتقاء	جون لويس	٢٥٠
■ التخطيط في البلدان النامية	كولونتاي	١٢٥
■ لينـين والمـرأة	لينـــــين	٢٥٠
■ المادية التاريخية	ف. كيللي و م. كوفالزون	٨٠٠
■ المادية الديالكتيكية	جماعة من الاساتذة السوفيات	٦٠٠
■ موجز القاموس الاقتصادي	جماعة من الاساتذة السوفيات	١٤٠٠
■ مجموعة الاقتصـــاد السياســـي اربعة اجزاء (ستة كتب)	جماعة من الاساتذة السوفيات	٣٠٥٠
■ الحساب الاقتصادي	جماعة من الاساتذة السوفيات	١٢٥
■ التوزيع والتراكم	» » » »	١٨٠
■ عملية الانتاج	» » » »	٨٠
■ العلاقات السلعية	» » » »	٨٠
■ تخطيط الاقتصاد الوطني	» » » »	٦٠
■ ملكية وسائل الانتاج	» » » »	٧٥

العنـــوان :
دمشـــق ـ شارع التجهيز ـ بنايـــة كردوس ـ هاتف ٢٢٤٥٩٣